

افسانہ سے نورجیت

رودین

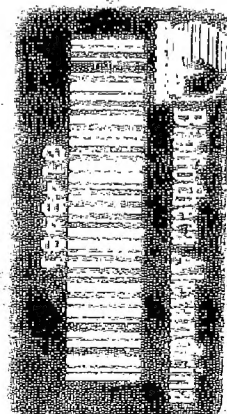
1924 1924

ترجمہ

ابراہیم کے نورجیت



کا المصنف



رودین

رودین

تألیف
اُتورجنیف

ترجمة
إبراهیم زکی خورشید



الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع

مقدمة

عاش تورجنيف حياة مضطربة في عصر حافل بأسباب القلق ، ملئ بالحركات الاجتماعية والسياسية والانتفاضات العقلية ، وقد عشق الحرية ورفع رايتها وكافح في سبيلها ، وهو يحيا في جو ساد العسف والطغيان والكبت والحرمان .

ولد تورجنيف سنة ١٨١٨ لأسرة من أعيان الريف ، وتزوج أبوه زواجاً مادياً من امرأة موسرة أكبر منه سناً . فساقتها العقد النفسية التي كانت تملكها إلى معاملة أطفالها وعبيدها معاملة كلها طغيان في طغيان . وتعلم تورجنيف في وطنه روسيا ، ودرس في جامعتي موسكو وسانت بطرسبرج ثم في برلين أخيراً (١٨٣٩ - ١٨٤٠) وفيها اختلط بشباب الروس المثقفين وتطبع بطباع الغربيين . وفي سنة ١٨٤٣ نشر قصته المنظومة « پاراشا » وقد عرض لها الناقد الكبير بلينسكي فأثنى عليها . وترك تورجنيف الخدمة المدنية واتجه إلى الأدب ، وتدله في حب المغنية

المشهورة يولين جارسيا (مدام فياردو) فدبت القطيعة بينه وبين أمه من أجل ذلك . وتوقفت عن مده بالمال ، فعاش عيشة بوهيمية حتى وفاتها سنة ١٨٥٠ . وهناك أصبح تورجنيف من الأغنياء . ولم تستجب مدام فياردو لحبه الذى شغله طوال حياته . وإن سمحت بلقائه . فترك ذلك أثراً عميقاً فى رواياته . وهجر تورجنيف الشعر إلى المسرح . ثم ترك المسرح بعد عام ١٨٥٢ واتجه إلى الرواية . وكانت أول رواية كتبها ولقيت نجاحاً هى « صور قلمية لرياضى » ظهر فيها الفلاحون أكثر جاذبية من أسيادهم . وفى سنة ١٨٥٢ نفى إلى ضيعته وقضى فيها ردهاً من الزمن . فقد أخذ عليه رثاؤه لجوجول وثناؤه عليه . ومن روائع رواياته رودين . والحب الأول . وآباء وأبناء . والدخان . والتربة العذراء .

كان تورجنيف ينتمى إلى فئة من الروس قليلة العدد جداً . فئة تلقت تعليماً أوروبياً خالصاً لا يقل عما يتلقاه الإنكليزى أو الفرنسى أو الألمانى . واتفق أن كان عمه نيقولاس قد اشترك فى الحركة التى كانت ترمى إلى إقامة حكومة دستورية فى روسيا بقوة السلاح ، وفشلت هذه الحركة ونجح نيقولاس فى الهرب من انتقام القيصر نيقولا الأول ، واستقر به المقام فى فرنسا ، ونشر فيها أول دفاع عن الثورة الروسية . وكان تورجنيف وهو يدرس الفلسفة فى برلين يزور عمه زيارات قصيرة فى فرنسا . وزرع فيه عمه أفكاراً عن الحرية لم يتخل عنها فى حياته كلها . وفى الستينات أصدر ألكساندر هرتزن فى لندن صحيفة « كولكول » وكان هرتزن من أكثر كتّاب الروس موهبة . لامعاً عاطفياً ذكياً .

وصحفيًا قديرًا وكاتب مقالات مبدعًا . واتصفت صحيفته هذه بالثورية والتطرف . وأصبح لها في روسيا سلطان كبير ، وقد اشترك تورجنيف في تحريرها ، بل كان عضواً في هيئة التحرير .

وقد ظهرت هذه الحقيقة مؤخرًا وتكشفت من خلال الرسائل المتبادلة بين هرترز وتورجنيف ، والحق أن هذه الرسائل قد ألقت ضوءاً جديداً على حياة كاتبنا . فقد بينت أن هذا الروائي العظيم كان أيضاً من أقوى المفكرين السياسيين في عصره وأبعدهم بصراً وبصيرة . ولا شك أن هذا يتجلى بأجلى بيان في آثاره .

وبعد فما قيمة تورجنيف بين الروائيين الروس العظام . بل بين أئمة الكتاب في العالم ؟ الواقع أن تورجنيف لم يعد كاتباً روسياً وحسب ، بل هو قد كسب في الخمسة عشر عاماً الأخيرة من حياته نفسها جمهوراً من القراء في فرنسا ثم في ألمانيا وأمريكا ، ثم في إنكلترة .

وحسبنا أن نذكر ما قاله في رثائه الفيلسوف والفنان العظيم رينان : « إن هذا المعلم الذي سحرت آثاره الرائعة القرن الذي نعيش فيه أصبح يعدُّ أكثر من أى كاتب آخر تجسيدا للجنس بأسره . ذلك أن عالما كاملا يعيش فيه ويتكلم هو بلسانه » .

ولا جرم أن تورجنيف بفضل خصب موهبته الخلاقة يقف على قدم المساواة مع أعظم الكتاب في جميع العصور . ونظرة واحدة إلى هذا المعرض الذي استحدثه من أناس يحشون بالحياة . رجالا بعامة . ونساء بخاصة . وكل منهم مختلف عن الآخر متفرد بشخصيته . وجميعهم

مخلوقات منتزعة من واقع الحياة ، وذلك الحشد الحاشد من الحقائق النفسية الذى كشف عنه ، والظلال العميقة لمشاعر البشر التى يجلوها لنا جلاء لا يستطيعه إلا روائى عظيم بين روائيين عظماء - كل أولئك قد زودنا بآثار فنى يفخر به وطنه ، بل يفخر به العالم ويعتز .

أما عن أسلوبه فى تناول مادته والقالب الذى يصبها فيه فإن قدرته فى ذلك تفوق قدرة الكاتب المبدع وحسب . صحيح أن تولستوى أكثر منه قدرة على التشكيل ، كما أنه بلا شك لا يقل عن تورجنيف عمقاً وأصاله وقدرة على الخلق ، وكذلك دوستويفسكى فإنه أقوى منه عاطفة وأحر منه انفعالا وأعظم منه إثارة . إلا أن تورجنيف الفنان والأستاذ فى جمع التفاصيل فى كل واحد متناسق ، والمهندس البارِع فى إقامة البناء من نسج الخيال - يفوق جميع كتّاب النثر فى بلاده ، وقلّ أن نجد له نظيراً بين الروائيين العظماء فى سائر البلاد . وشاهد ذلك أنه ما إن صدرت ترجمة فرنسية لقصته القصيرة « آسيا » حتى كتبت إليه الروائية الفرنسية العظيمة جورج ساند فى عز شهرتها تقول : « أيها المعلم إننا جميعاً لا نملك إلا أن نسعى إليك لندرس فى مدرستك » .

والخبر بآثار تورجنيف يتبين له أنه يملك مفاتيح جميع مشاعر الإنسان وانفعالاته أجلّها وأحطّها ، النبيل منها والحسيس . وهو يرى من فقه عليائه الجميع ويفهم الجميع ، فلا الطبيعة ولا الناس لها أسرار تختجب عن عينيه الهادئتين النفاذتين .

كان تورجنيف يحب الضياء والشمس المشرقة والشعر

الإنسانى الحى ، ويكره كل الكراهية القبح والغلظة والسوقية والنشاز حتى لقد أصبح شاعر الجانب اللطيف من الطبيعة الإنسانية . صحيح أنه فى الصور التى يرسمها يكشف لنا عن الجرائم والآثام وضروب القسوة ويصور أحوال الحياة وأقدارها ، إلا أنه لا يلبث طويلا فى هذه الأجواء الكئيبة ، بل يعود مسرعاً إلى عوالم الشمس والأزهار والمناظر البهيجة والحزن الشاعرى الذى يضيفه نور القمر فى هدأة الليل وسكونه . وكان يتحاشى الغيرة والحسد والحقد الذى هو الظل الأسود للأحاسيس الإنسانية الشاعرة ، فقد كان فنانا دقيق الحس مرهف المشاعر . وما من روائى أفسح مجالا عريضاً لشعور الشباب الخالد بالحب مثلاً أفسح تورجنيف ، أجل الحب فى شفافيته وصفائه حتى ليحس لنا أن نقول إنه وصفه وصف الموكل به المكابد له العليم بمظاهره وعذابات ومباهجه وصنوفه وألوانه . عرف الحب المستأنى المستوعب كما عرف الحب المفاجئ الذى يأخذ الغافل على غرة منه فيزلزله ويهز كيانه هزاً كأنما هو المرض الملح لا خلاص منه ولا فكاك .

وصفة القول أن تورجنيف كان أشعر الروائيين الواقعيين . على أنه يصدق فيه المثل المشهور لأكرامه لنبيّ فى وطنه ، فقد تنكر له قومه أول الأمر حتى لقد فكر فى أن يعتزل الأدب ، ولكن هيات كما قال الدكتور طه حسين ، ذلك أنه قد أدركته حرفة الأدب لا يستطيع أن يعيش إلا إذا كتب . وعلة ذلك أن تورجنيف قد قصر رواياته على تصوير طبقة واحدة من الشعب الروسى ، ونحن لا نجد فيه تلك الصورة المترامية

الأطراف التي نجدها عند تولستوى الذى يستعرض أمام القراء روسيا كلها : فقد انصرف إلى الكتابة عن روسيا المتعلمة أو على المفكرين فيها الذين يعرفهم هو حق المعرفة فهو منهم وهم منه . ونحن لا نأسف لهذا فقد يقف الكيف أمام الكم أحياناً . والصفوة على قلبهم ، هم الخميرة التي تقلب العجين . ولهذا ذاع صيت تورجنيف في الخارج أكثر من ذيوعه في روسيا . وأخذت دائرة قرآته تتسع يوماً بعد يوم .

فقد نشأ تورجنيف في عصر مليء بالكفاح السياسى والاجتماعى . وكان الناس فيه مستغرقين في مصالحهم الخاصة ، لا يقدرون الفن الخالص ولا يستمتعون به ، وهذا أمر مفرج بالنسبة لفنان يعيش في عصر بعيد عن الفن . فقد كان أسمى طموحه وأنبىل مساعيه يجرح أولئك القوم من مواطنيه الذين كان تورجنيف يخلص لهم أشد الإخلاص ويحبهم أصدق الحب . أجل لقد أعطى تورجنيف بلاده خير ما في نفسه ، وخير ما انطوى عليه عقله وجاد به خياله الخلاق ، كان هو المعلم والنبي الذي يبشر بآراء جديدة ، والشاعر الذي يبدع والفنان الذى يصور فينطق الجهاد ويشيع الحياة في الحجر والصخر ، ولكن مواطنيه معجّدوا فيه المعلم وحسب ، وظلّوا أمداً طويلاً لا يدركون الصفات الأخرى .

كان الرجل في فترة من أهم الفترات في تاريخ بلاده القومى حامل علم روسيا الحرة المفكرة ، ومن آياته أنه جمع بين الفكر والفنان بلا تنافر ولا تعارض حتى لقد أصبحت رواياته خلاصة للحياة الفعلية في روسيا الحديثة وأداة قوية في تقدمها العلمى .

ورواية « رودين » هى أولى روايات تورجنيف الاجتماعية . وهى بمثابة المدخل الفنى لما سيأتى بعدها من روايات لأنها تتناول حقبة سابقة على الحقبة التى بدأت فيها الحركات الاجتماعية والسياسية .

وهذه الحقبة قد جُرَّ عليها النسيان أذباله . ولولا روايته (رودين) لكان من العسير أن ندرك هذه الفترة حق الإدراك ، وهى إلى ذلك جديرة بالنظر . لأننا نجد فيها جرائم التقدم الذى حدث من بعد . كانت حقبة كثية . فقد كان القيصر نيقولا الأول طاغية قد خلا قلبه من الشفقة أو الرحمة . يحثم على صدر شعبه يبطش بكل كلمة وكل فكرة لا تمشى مع سياسته المتعنتة الضيقة الأفق . وكان لا يمثل روسيا التقدمية إلا عدد لا يتجاوز أصابع اليد يسبقون زمهم بمراحل . ويحسون بأنهم يعيشون فى وطنهم معزولين لا حول لهم ولا قوة . بعيدين عن الإحساس بحقائق الحياة حولهم . كأنما هم غرباء بين قوم لا يمتون إليهم بعاطفة ولا فكر . وكان لا بد هؤلاء من متنفس تلوذ به طاقاتهم الروحية . فقد عجزوا عن مشاركة سائر مواطنيهم فى التفاهات والصغائر التى يعنون بها . فخلقوا لأنفسهم دنيا وأنشطة واهتمامات من صنعهم . وكان من الطبيعى أن تربطهم هذه العزلة بعضهم ببعض . وفى هذه الدائرة التى هى وسط بين النادى غير الرسمى والجماعة التى يتصل بينها النقاش أصبحت هى المفزع الذى يرضون فيه نوازع عقولهم ونبضات قلوبهم . صحيح أن هؤلاء الناس كانوا يلتقون ويتحدثون . وهذا هو كل ما يستطيعونه .

كان هؤلاء خير من أنجبهم هذه الحقبة ، فقد امتلأت جوائنهم بالآمال العريضة والمعارف الواسعة ، وكان بنحهم المجرد عن الحق مطلباً نبيلاً ، وكان من حقهم بلا نزاع أن ينظروا من علي إلى جيرانهم الذين يتمرغون في وحل المادية الأنانية الدنيئة ، ولكن حياتهم في ذلك الملاذ الروحي يداعبون فيه آمالهم وأحلامهم ويستغرقون في تأملاتهم الفلسفية وتجرباتهم - أبعدهم أكثر وأكثر عن المشاركة في الحياة الحقيقية ، وأقصتهم إقصاءً شديداً عن الإحساس بالحياة في وطنهم .

وكان ديمترى رودين بطل روايتنا يمثل هذا الجيل خير تمثيل ، فقد كان ضحية وبطلاً لزمته في آن ، أجل كان رجلاً ماردافاً في أقواله قزماً في فعالة ، أوفى فصاحة سحبان ، ولد له المجادل الذي لا يُشَقُّ له غبار ، لا يقف أمام منطق منطق ، ومع ذلك فإنه لم يكن دجلاً محتملاً . كانت حماسه تعدى الآخرين لأنها حماسة صادقة لازيف فيها ، وفصاحته مقنعة لأن إخلاصه لمثله كان عشقاً يأخذ عليه نفسه ويغطي على قواده ، ولا يحجم عن الموت في سبيلها ولا يتزحزح عنها قيد أنملة مها بذل له من غم وما يمكن أن يلاقيه في سبيلها من متاعب ومشقات . وكان هذا العشق وتلك الحماسة تابعين من عقله فحسب . أما قلبه الذي يمكن أن ينطوى على أعماق المشاعر من حب ورحمة وشفقة ، فكان غافلاً مستسلماً للنعاس . وأما الإنسانية التي كان خليقاً أن يبذل في سبيلها آخر قطرة من دمه فكانت في نظره طائفة من الأجانب الفرنسيين والإنكليز والألمان الذين درسهم في الكتب أولقيهم في الفنادق في

الخارج وهو طالب أوسائح .

وهذه الإنسانية المجردة العجيبة لا يمكن أن يحس المرء بحب حقيق لها . فبرغم حماسة رودين فإنه كان في أعماق قلبه بارداً كالثلج . أجل كانت حماسته تتوهج بلا حرارة وتتألق بلا لهيب .

ومع كل ما يؤخذ على رودين ومن هم على شاكلته من ضعف وقصور ، فإن جيله ، جيل سنة ١٨٤٠ قد أدى لبلاده خدمات جليلة ، فقد غرسوا فيها عقيدة الإيمان بالمثل ، ذلك أنه قد أتى بالبدور التي لم يبق إلا رميها في أرض وطنهم الخصيبة حتى تؤتي ثمارها الوفرة في المستقبل . كان ضعف هؤلاء الناس وعمقهم يرجعان إلى أنه لم تكن لهم صلات عضوية بوطنهم ولا جذور تضرب في التربة الروسية . كانوا لا يكادون يعرفون شيئاً عن الشعب الروسي الذي كان يبدو في نظرهم حقيقة تاريخية مجردة وحسب . فقد كانت نزعتهم عالمية ، وكان تورجنيف صادقاً مع الحياة ومع الفن حين جعل بطل روايته يلقي مصرعه في حاجز من الحواجز التي أقامها الفرنسيون . وقد ظل الشعب الروسي يرغم حركة الإصلاح التي كانت في الأجيال الثلاثة التي أعقبت ذلك . يرسف في آلاف من الحواجز والسدود التي وصفها رواية رودين أصدق الوصف .

ولم يكن تورجنيف يعطينا بضربة واحدة من إزميله أشخاصاً قُذت من كتلة واحدة من الحجر كما هو الأمر عند تولستوى ، وإنما كان فنه أقرب إلى فن المصور أو الملحن الموسيقي منه إلى النحات . فعنده ألوان

أكثر ، ومنظور أعمق ، وطائفة متنوعة أكبر من الأضواء والظلال ،
أوقل صورة أكمل وأشمل للإنسان الذى تغلب عليه الروح . وفرق في
ذلك بينه وبين تولستوى ، فالشخصيات التى أبدعها تولستوى نجيش
بالحياة حتى تكاد تلمسها لمساً ونرى ملامحها ومشخصاتها ماثلة في الناس
نشاهدهم يسيرون في الشوارع . أما شخصيات تورجنيف فإن اعترافهم
الذاتية ورسائلهم الشخصية تكشف لنا أسرار حياتهم الروحية .
وكل مشهد من مشاهد روايات تورجنيف ، بل كل سطر فيها يكاد
يفتح آفاقاً عميقة جديدة ويلقى على شخصياته ضوءاً جديداً غير متظر
ولا متوقع .

وشخصية بطل روايتنا معقدة غاية التعقيد عسيرة كل العسر ، وهى
تبين لنا بأجلى بيان موهبة تورجنيف في التغلغل في أعماق النفس كما
تكشف لنا عن تعدد جوانب هذه الموهبة . ذلك أن شخصية رودين
تقوم على المتناقضات ، ولكننا لا نحس لحظة أنها بعدت عن الواقع
أو اختلفت عن الحياة تكاد تلمسها لمساً .

وليست شخصية بطلة الرواية ناتاليا بأقل من ذلك ، فهى فتاة هادئة
رصينة واقعية ، وإن كانت في أعماقها متحمسة ذات طبيعة بطولية . على
أنها كانت إلى ذلك « طفلة » تستجيب لجميع مؤثرات الحياة ، لم تنضج
بعد النضج الكافى . ولو أن تورجنيف اتبع في تصويرها الطريقة التحليلية
الفاحصة لأفسد هذه المخلوقة الجميلة الرقيقة المشاعر . وإنما هو قد
صوّرها تصويراً من صنعه في سطور قليلة ثم عن أستاذيته ، فقد .

كشف لنا عن أسرار روحها . وأرانا ما هي ، وما يمكن أن تكون لو وضعت في ظروف أخرى .

وتورجنيف أستاذ في تصوير النساء ، وشخصية ناتاليا هي أول إلهام شعري لحقيقة تسترعى النظر في تاريخ روسيا الحديث . ذلك هو ظهور نساء لها من قوة العقل ما يفتقر إليه رجال هذا العصر .

أما الشخصيات الثانوية الأخرى في رواية رودين فتجد أمامنا : لزنيف وبيجاسوف ، ومدام لاسونسكايا ، وبندالفسكي ، وقد صورهم تورجنيف تصويراً دقيقاً لا نلمسه إلا في روائع الصور المنمنمة .

وقد وفق تورجنيف في هذه الرواية الواقعية ، فقد التزم الحقيقة والصدق والطبيعة . ولكنه في سعيه إلى الصدق الذي يصور الحياة تصويراً دقيقاً غاية الدقة لا يسمح لنفسه أن يكون مملاً ينصرف عنه القراء . فأوصافه لا يبهرها أبداً بالتفاصيل المتعبة ، وحركته سريعة . وحوادثه لا يمكن توقعها قبل ورودها بصفحات كثيرة ، وإنما هو يبق قراءه في حالة من التشوق الدائم . وبذلك يمتاز على كثير من الكتاب الواقعيين في فرنسا أو إنكلترا أو أمريكا . ذلك أنه كان يرى أن الحياة ليست سمجة مملّة ، بل هي مليئة بالمفاجآت ، حافلة بأسباب القلق والاضطراب .

وفكرة رواية رودين بسيطة كل البساطة حتى يكاد المرء أن يقول إنها خالية من الفكرة على الإطلاق ، ذلك أن تورجنيف كان يحتقر حيل الروائيين الذين يتعمدون الإثارة ، ويستعيز عن ذلك بسيطرته الفريدة

على قرائته وعواطفهم . وهو يشبه في هذا الموسيقى الذى يلعب بأعصاب
مستمعيه وأفئدتهم دون أن يجعل للعقل دخلا فى ذلك ، أو قل إنه كان
أشبه بالشاعر الذى يجمع بين قوة الكلمة وسحر الانسجام . فالمرء لا يقرأ
روايات تورجنيف بل يعيشها .

إبراهيم زكى خورشيد

الفصل الأول

كان ذلك في صباح يوم هادئ من أيام الصيف . وقد علت الشمس السماء الصافية ، إلا أن الحقول كانت لا تزال تتألق بقطرات الندى ، وتضوع من الأودية التي كانت قد نفضت عنها الكرى أو كادت ، أريج عذب منعش ، وانبعث الطير المبكر يغرد فرحاً مسروراً في الغابات التي كانت لا تزال أيضاً ساكنة ندية ، وكنت ترى قرية صغيرة على قمة تل ينحدر المنحدر رقيقاً ، وقد غطاه من أعلاه إلى أسفله نبات الجويدار تفتق عن رأسه الزهر وشيكاً ، وسارت عادة في طريق ضيق يؤدي إلى القرية ترتدى ثوباً من الموصلي الأبيض وقبعة مستديرة من القش وفي يدها مظلة ، وكان يتبعها غلام خادم على بعد يسير منها .

كانت تمشي الهوينى وكأنها تنعم بزهتها ، ويحيط بها من كل جانب نبات الجويدار الطويل المتأيل ، يتثنى في موجات لها حفيف ناعم متصل ، تتخذ حيناً اللون الأخضر الفضي ، وحيناً اللون الأحمر المتوهج ، والقنابر تغرد على علو شاهق منها . كانت قادمة من قريبها التي لم تكن تبعد عن الدسكرة التي تقصدها إلا نصف

ميل أو أكثر قليلا ، وكان اسمها ألكسندره بافلوفنا ليينا ، وهى أرملة ثرية حرمت
نعمة الولد ، تقيم مع أخيها سرجى بافلوفتش فوليتسيف ، وهو صاغ متقاعد كان
فى سلاح الفرسان ، وكان عزباً يدير أملاكها .

وبلغت السيدة ليينا القرية . ووقفت عند أقرب أكواخها ، وكان كوخاً
متداعياً منخفضاً أشد الانخفاض ، ونادت الغلام وأمرته أن يدخل الكوخ وأن
يسأل عن صحة صاحبه ، وسرعان ما عاد الغلام وفى صحبته فلاح هرم أبيض
اللحية .

وسأله ألكسندره بافلوفنا : « ما وراءك ؟ »

وغمغم الشيخ قائلاً : « لا تزال على قيد الحياة »

« هل لى أن أدخل ؟ »

ولم لا ؟ « لك ذلك »

ودلفت السيدة ليينا إلى الكوخ . فألفته مكتظاً خانقاً حافلاً بالدخان . وكان
ثم شخص يتحرك ويثن على أريكة المدفأة ، ونحلت السيدة ليينا بنظرها إلى
الأريكة فرأت فى الغبشة وجه امرأة عجوز قد علاه الشحوب والتجاعيد ، وربطت
المرأة حول رأسها منديلاً منقوشاً . وتدنثرت حتى صدرها بمعطف ثقيل ، وكانت
تنفس فى عسر ، وتحرك يديها النحيلتين فى ضعف ووهن .

وتقدمت السيدة ليينا نحو السيدة العجوز ولمست جيئها ، فوجدته شديد
الحرارة يكاد يلتهم . وسألها وهى تنحنى على أريكة المدفأة ، قائلة : « كيف
حالك يامربونا ؟ » .

وتبينت العجوز السيدة ليينا فتوجعت قائلة : « أواه ! لقد ساءت حالى .

ساعت جداً يا سيدتى العزيزة ! لقد دنت ساعتى الأخيرة يا حبيبتى ! » .
 « إن الله رءوف بعباده يا مريونا . فقد تتحسن حالتك بالرغم مما بك . هل تناولت الدواء الذى بعثت به إليك ؟ » ، وتأوهت العجوز فى شقاء ويؤس ولم تحر جواباً . ذلك أنها لم تكن قد سمعت السؤال .
 وقال الشيخ ، وكان واقفاً بالباب : « لقد تناولته » .
 والتفتت إليه ألكسندره باقلوفنا وسألته : « أليس لها سواك يسهر عليها ويعبى بأمرها ؟ » .
 « لها فتاة هى حفيدتها . ولكنها تقضى جل وقتها فى الخارج ولا تستطيع البقاء فى مكان واحد طويلاً . إنها شديدة القلق . بل هى أكسل من أن تناول جديها جرعة ماء . أما أنا فقد بلغت من الكبر عتياً . فأى نفع يرمى منى ؟ » .
 « أو ينبغى لى أن أنقلها إلى مستشفى ؟ » .
 « كلا ، ولم تنقلها إليه ؟ إنها سوف تموت على كل حال . فقد انقضى عمرها وستحل بها مشيئة الله . ولن تبرح الأريكة أبداً . فما بالك تتحدثين عن المستشفى ؟ إنها سوف تقضى إذا حاولوا نقلها ! » .
 وتوجعت العجوز قائلة : « أواه ! يا سيدتى الجميلة لا تتخلى عن اليتيمة الصغيرة التى سأتركها . إن سادتنا بعيدون جداً عن هذا المكان . أما أنت . . . »
 وأخذت العجوز إلى السكون . فقد أضناها التعب .
 وقالت السيدة لبيينا : « خلى عنك القلق . فسنجيبك إلى كل ما تطلبين . وهأنذا قد أثبت ببعض الشاى والسكر . فاشربى شيئاً من الشاى إن شئت » . ثم التفتت إلى الشيخ وأردفت تقول :

« أفلا أجد عندكم وعاءً لغلى الشاي ؟ » .

« وعاء لغلى الشاي ؟ ليس لدينا شيء من هذا القبيل ، ولكننى أستطيع

الحصول على وعاء »

« افعل ، وإلا أرسلت إليكم الوعاء الخاص بى ، ثم قل لحفيدتك أن تلزم

الدار ، قل للفتاة إنها حرة أن تحجل من نفسها »

وتناول الشيخ بكلتا يديه الصرة التى اشتملت على الشاي والسكر ولم يجب !

وقالت السيدة لبيينا : « إلى اللقاء يا متريونا ! سأتى لزيارتك مرة أخرى

ولا يهن منك العزم ، وتناولى دواءك بانتظام »

ورفعت المعجوز رأسها وجاهدت لتدنو من المحسنة إليها ، وقالت بعد لأى :

« هاتى يدك يا سيدتى »

ولم تفعل السيدة لبيينا ذلك الذى طلبته منها المعجوز ، بل انحنت عليها وقبلتها

فى جبينها .

وقالت السيدة للشيخ وهى تبارح الكوخ : « ألا فلتعن بإعطائها الدواء بانتظام

كما هو موصوف ، وأعطها شيئاً من الشاي تشربه »

ولم يحر الشيخ جواباً مرة أخرى ، واكتفى بأن حنى قامته .

ولم تسترد السيدة لبيينا أنفاسها إلا بعد أن خرجت إلى الهواء الطلق ، ثم فتحت

مظلتها ، وكانت على وشك أن ترتد راجعة إلى مترها عندما لاح لها فجأة ، حول

منعطف الكوخ ، رجل فى نحو الثلاثين من عمره يسوق عربة سباق منخفضة ،

ويرتدى سترة رمادية قديمة فى لون التراب ، وقبعة مستدقة الطرف . وما إن لمح

الغادة حتى أوقف جواده فى الحال والتفت إليها ، وكان وجهه العريض الشاحب

ذو العينين الصغيرتين الرماديتين الفاتحتين والشارب السنجابي ، يلاثم لون ملاپسه .
وقال فى ابتسامة تنطوى على التهكم : « طاب صباحك ! هلى لى أن أسألك
ماذا تفعلين هنا ؟ »

« كنت أزور مريضة ، ومن أين أتيت يا ميخائيل ميخائيلوفتش ؟
وحقق الرجل الذى وجهت إليه هذا القول النظر فيها ، وأفرثغره عن ابتسامة
أخرى .

ومضى يقول : « إنك تحسنين صنعاً بزيارة المريضة ، ولكن أليس من الأفضل
أن تنقلها إلى مستشفىك ؟ »

« إنها غاية فى الضعف والوهن ولا يمكن نقلها .

« وهل فى نيتك أن تتخلى عن المستشفى ؟ »

« أمخلى عنه ؟ ولم ؟ »

« ولم لا تتخلين عنه ؟ »

« يا للفكرة العجيبة ، ما الذى أوحى بها إليك ؟ »

« إنك لعلى علاقة وثيقة جداً بالسيدة لاسونسكايا ، ويبدو أنك واقعة تحت
سلطانها ، وهى ترى أن المستشفيات والمدارس ليست إلا أوهاماً لا طائل تحتها
ولا غناء فيها ، وأن الإحسان يجب أن يكون من خاصة الأمور ولا يتعدى ذلك
أبداً ، وهكذا يجب أن يكون شأن التعليم ، من أجل خلاص روح الإنسان . هذه
هى فيما أعتقد أقوالها ، ترى من أين تلتقط هذه الأفكار ؟ »

وضحكت السيدة لبيينا ثم قالت : « إن داريا ميخائيلوفنا امرأة ذكية وأنا أحبها
أخلص الحب ، وأعجب بها غاية الإعجاب ، ولكنها هى أيضاً ليست مترعة عن

الخطأ ، وأنا لا أصدق كل كلمة تقولها ! »

وأجاب الرجل ، وكان لا يزال جالساً في عريته : « وهذا ما ينبغي لك . ذلك أنها هي نفسها لا تؤمن كل الإيمان بما تقول ، على أنه قد سرف كثيراً أن ألقاك »
« لماذا ؟ »

« سؤال طريف ! وكأنما لقياك لا تكون دائماً باعثة على السرور والانشراح !
إنك اليوم كالصبح نضرة وبهاء »
« وعادت الغادة إلى الضحك .
« علام تضحكين ؟ »

« لاحيلة لي في ذلك ! يالها من لهجة باردة خالية من الحرارة تصطنعها لإطرائي ! وإني لأعجب لأنك لم تشاءب وأنت تنطق بالكلمة الأخيرة »
« باردة حقاً . إنك تريدن اللهب ، ولكن ما جدواه ؟ إنه يتأجج ويلفظ الدخان ثم يخمد وهو يثر أزيزاً »

« وأتمت له الغادة عبارته بقولها : « وهو يبعث الدفء »
« أجل ثم هو يحرق »
« وماذا لو أحرق ؟ ليس في ذلك ضرر كبير ، بل إنه لأفضل على أية حال من . . . »

فقاطعتها ميخائيل ميخائيلوفتش في انفعال : « بودي أن أسمع ما تقولين عندما يحرقك اللهب » . ثم لطم الجواد بالعنان ، وقال لها : « إلى اللقاء ! »
« وصاحت الغادة : « انتظر لحظة ! متى تأتي لزيارتنا ؟ »
« غداً . وبلغني أخاك نحياتي »

ومضت العربة

وتابعت السيدة الرجل بعينها . ثم حدثت نفسها قائلة : « ياله من
« تليس » ! »

وكان منظره بظهره المَحْدَوْدِب وجسمه الذى علاه الغبار وقبعته المترلقة على
مؤخر رأسه وخصلات شعره الأصفر المضطربة التى انتفشت من تحت القبة يحاكي
حقاً « التليس » وقد امتلأ بالدقيق .

وسارت السيدة لبينا صوب المنزل فى خُطى بطيئة وقد أرخت بصرها إلى
الأرض . وطرق أذنّها وقع حوافر جواد فتوقفت ورفعت بصرها . فإذا بأخيها مقبل
نحوها يمتطى صهوة جواد . ويسير بجانبه شاب قصير القامة . فى سَرة للسهرة
مفكوكة الأزرار زاهية اللون ، وربطة للعنق زاهية أيضاً ، وقد لبس قبة ضاربة
إلى اللون الرمادى وأمسك عصا تعينه على السير . وراح يبتسم للغادة حيناً بالرغم
من أنه رآها مستغرقة فى أفكارها . ولا تعى شيئاً مما حولها . وما إن توقفت حتى
هرع إليها وقال لها فى صوت تشيع فيه الهجة والسرور ويغلب عليه الحنان : « طاب
صباحك يا ألكسندره بافلوفنا ! طاب صباحك ! »

فأجابت بقولها : « آه ! قسطنطين ديوميدوفيتش ! طاب صباحك ! أو قادم
أنت من عند داريا ميخائيلوفنا ؟ »

فهتف الشاب وقد أشرق وجهه : « صدقت وايم الله يا سيدتى ، صدقت !
لقد أرسلتنى داريا ميخائيلوفنا إليك يا سيدتى ، وقد فضلت السير على الأقدام .
فالصباح غاية فى الجلال . والمرحلة كلها لا تتعدى أربعة فرسات ^(١) فحسب !

(١) الغيرست مقياس روسى = ١.٠٦٧ من الكيلومتر.

ذهبت إلى دارك يا سيدتى ولكنك كنت في الخارج ، وأبلغنى أخوك أنك مضيت إلى الدسكرة ، إلى سميونوفكا ، وكان هو نفسه على وشك الخروج إلى الحقول ، فصحبته حتى ألقاك ، أجل هذا هو الحق الصراح ! لشد ما يبحث هذا على السرور والانسراح ! »

وكان الشاب يتحدث بلغة روسية جيدة صحيحة ، وإن كانت تشوبها لكنه أجنبية . على أنه كان من العسير أن يعرف المرء على وجه اليقين كنه هذه اللكنة . وكانت تبدو على ملامحه مسحة آسيوية : فأنفه الأقفى الطويل ، وعيناه الجاحظتان الكبيرتان الجامدتان ، وشفته الحمراءوان الغليظتان ، وجهته المائلة ، وشعره الأسود اللامع ، وكل ما فيه كان ينطق بأنه من أرومة شرقية .

غير أن الشاب كان يطلق على نفسه اسم بندالفسكى ، ويزعم أنه ولد في أوديسا ، بالرغم من أنه نشأ في مكان ما من روسيا البيضاء على نفقة أرملة ثرية محسنة . وحصلت له أرملة أخرى على وظيفة في خدمة الحكومة ، وقد جرت السيدات المتوسطات العمر على أن يشملن برعايتهن عن طيب خاطر قسطنطين ديوميدوفيتش بندالفسكى ، ذلك أنه كان يعلم كيف يجدهن وكيف يرقق قلوبهن ، وقد كان يقيم آنئذ في منزل سيدة موسرة من ملاك الأرض تدعى السيدة لاسونسكايا . كان كلاً عليها ، أو كان بالأحرى طفلياً يعيش على كرمها . وكان بندالفسكى ودوداً غاية الود ، كريماً من أصحاب الفضل ، رقيقاً جياش العاطفة ، ثم إنه كان في السر شهوانياً منغمساً في اللذات ، وكان له صوت شجى ، يعزف على البيان عزفاً لا بأس به ، وقد ألف أن يحرق بنظرات ثابتة في عيني كل من يخاطبه ، وكان أنيقاً غاية الأناقة ، يبقى عليه ملابسه مدة طويلة جداً ، ويخلق ذقنه

العريض بعناية بالغة ، ويسوى كل شعرة من شعر رأسه .
 وأنصتت إليه السيدة ليينا حتى فرغ من حديثه ، ثم التفتت إلى أخيها وقالت :
 « ياله من يوم ، لقاء يأتي في إثر لقاء ! لقد فرغت وشيكاً من حديث مع ليزنيف »
 « آه ! ليزنيف ! أكان يسوق عربية في هذه النواحي ؟ »
 « أجل ، تصور إنه كان يسوق عربية سباق ، ويرتدى نوعاً من الكنان
 الذي تصنع منه الأكياس ، وقد غطاه الغبار من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، ياله
 من رجل عجيب ! »
 « أجل ، ربما كان كذلك ، ولكنه شاب ظريف » .

وسأل بندالفسكى في لهجة تشوبها الريبة : « من ؟ السيد ليزنيف ؟ »
 فتدخل فوليتسف في الحديث قائلاً : « أجل ، ميخائيل ميخائيلوفيتش
 ليزنيف ، والآن إلى اللقاء يا أختاه ، لقد حان موعد ذهابي إلى حقولك ، فقد
 بدءوا يبذرون حب الحنطة السوداء فيها ، وسيصحبك السيد بندالفسكى إلى
 المنزل » . وما إن أتم فوليتسف كلامه حتى سار بجواده خيباً .
 وصاح بندالفسكى قائلاً : « بكل سرور » ، وقدم ذراعه إلى الغادة .
 وشبكت ذراعها في ذراعه ، وسارا في الطريق المؤدى إلى ضيعتها .

* * *

وكان من الجلى أن سير بندالفسكى والسيدة ليينا متعلقة بذراعه قد أفعم قلبه
 بالسرور ، وكان يخطو خطوات قصيرة مشرق الوجه ، بل إن عينيه اللتين كانت
 تتجلى فيهما سمة أهل الشرق قد تندتا بالدمع ، ولا بأس من القول بأن ذلك لم يكن
 شيئاً لا يتظر منه ، فقد كان من اليسير أن تثار دموعه ، ولا عليه ، فن ذا الذي

لا يبجح قلبه أن يسير مع سيدة شابة فاتنة رشيقة وذراعها في ذراعه ؟
لقد أجمع أهل ناحية « . . . آيا » كلهم على القول بأن السيدة لبينا امرأة
فاتنة . ولم يكونوا في ذلك مخطئين ؛ فقد كان أنفها وحده . أنفها الصغير الأشم
الجميل . خليقاً بأن يخرج أى إنسان عن طوره ؛ ناهيك بعينها الناعستين
العسلتين . وشعرها الذهبي الأشقر الداكن . وخديها المستديرين تزيئها نوتان .
ثم مفاتيها الأخرى . ولكن خير هذه المفاتي جميعاً كان سيماء وجهها الجميل .
وجه يوحى بالثقة والاطمئنان . لطيف . رقيق يؤثر في النفوس ويحتذب القلوب .
كانت تضحك فتبدو كالطفل . حتى لقد ظنت سيدات الناحية أن فيها شيئاً من
البراءة والسذاجة . فأى شيء يمكن أن يتمناه المرء أكثر من ذلك ؟
وسألت السيدة - بندالفسكى : « تقول إن داريا ميخائيلوفنا قد بعثت بك

إلى ؟ »

فقال وفي نطقه لثغة . إذ كان ينطق السين « ثاء » : « أجل . لقد بعثت بى
إليك السيدة لاسونسكايا . إن السيدة لاسونسكايا تود من صميم قلبها أن تتناولى
غداءك معها اليوم وترجو منك الحضور » . وكان بندالفسكى حريصاً أشد الحرص
على ألا يستعمل أى نوع من الخطاب ترفع فيه الكلفة وخاصة إذا كان يشير في
حديثه إلى سيدة . ومضى يقول : « إن السيدة لاسونسكايا تنتظر ضيفاً جديداً تود
مخلصة أن تلقيه » .

« ومن يكون ؟ »

« إنه البارون موفل من سانت بطرسبرج . وهو سيد من القائمين على مخدع
جلالة القيصر . وقد تعرفت به السيدة لاسونسكايا حديثاً في قصر الأمير جارين .

وهي تقدره أعظم التقدير فتقول إنه شاب رقيق الحاشية مهذب ، ثم إن سيدي البارون يهتم بالأدب بل . . . آه ! ياللفراشة الجميلة ! هلا تنظرين إليها . . . بل بالاقتصاد السياسي ، ولقد كتب بحثاً في موضوع غاية في العجب ويريد من سيدتي أن تدلي برأيها فيه .

« بحث في الاقتصاد السياسي ؟ »

« من حيث الأسلوب يا سيدتي - الأسلوب ، فإنك تعلمين بلا شك أن السيدة لاسونسكايا . على ما تتصف به من مواهب أخرى حجة في هذا الباب ، وقد ألف زوكوفسكي الشاعر أن يلتمس عندها الرأي ، وكذلك يفعل ذلك الذي كان يشملي فيما مضى برعايته وإحسانه . روكسولان مدياروفتش كساندريكا ، وهو رجل ولاكالرجال ، يقيم في أوديسا - ولا شك أنك سمعت بهذا الاسم ! »

« كلا البتة فإنني لم أسمع به قط »

« ألم تسمعي قط باسم هذا السيد الموقر ؟ عجباً ! لقد كنت على وشك أن أقول إن السيد كساندريكا يؤمن أيضاً إيماناً عظيماً بامتلاك السيدة لاسونسكايا ناصية اللغة الروسية . »

« هل البارون متحدث ؟ »

« كلا البتة . بل إن السيدة لاسونسكايا تقول : إنه على خلاف ذلك ، فإن المرء ليدرك لأول وهلة أنه رجل خبير العالم ، وقد تحدث عن يتهوفن بفصاحة خلبت لب الأمير العجوز نفسه ، ولا أنكر أنني كنت أود أن أسمع ذلك الحديث لأنه يتمشي مع هوايتي . أفلا تسمحين لي بأن أقدم إليك هذه الزهرة البرية - الجميلة ؟ »

وتناولت الزهرة منه ، وتركها تسقط في المشى بعد أن سارت بضع خطوات ، ولم يبق على بلوغ منزلها إلا مسيرة مائتي قدم ، وكان قد شيد منذ عهد قريب ويض بالكلس ، وراح يخال الناظرين بنوافذه العريضة المشرقة ويشوقهم إليه من خلال الأوراق الكثيفة لأشجار الزيزفون والإسفندان العتيقة .

وقال بندالفسكى ، وقد حَزَّ في نفسه ما لاقته زهرته من مصير : « ماذا عسَى أن أقول إذن للسيدة لاسونسكايا ؟ أو تتناولين الغداء معها ؟ إن السيدة لاسونسكايا تدعو أخاك أيضاً يا سيدتى . »

« أجل . سندهب إليها بلا تقصير ، كيف حال ناتاليا ألكسييفنا ؟ »
 « إن الأنسة بخير والحمد لله ، ولكننا قد تجاوزنا المنعطف الذى يؤدى إلى ضيعة السيدة لاسونسكايا ، أفلا تأذنين لى يا سيدتى بالمضى إليها ؟ »

ووقفت السيدة ليينا ، وسأله في تردد : « هل تفضل بالدخول ؟ »
 « لا شئ يسرنى أكثر من هذا ، ولكننى أخشى أن أتأخر ، فإن السيدة تريد أن تسمع تمريناً موسيقياً جديداً من وضع ثالبرج ، ولابد لى من التدرُّب عليه والاستعداد لعزفه ، وخليق بى أن أعترف بأننى أشك بأنك ستجدين متعة فى صحبتي »

« آه . كلا ! ما الذى يدعوك إلى هذا الشك . . . ؟ »
 وتند بندالفسكى . وخفض بصره فى نظرة تغنى عن البيان .
 ثم قال بعد لحظة من الصمت : « طاب صباحك يا سيدتى ! » ، وانحنى وتراجع خطوة . ودارت ألكسندره بافلوفنا على عقبيها وسارت إلى منزلها .
 وكذلك سار بندالفسكى إلى بيته . وسقط عن وجهه قناع الرقة الذى ألف

ن يصطنعه . وأصبح وجهه الآن يحمل أمارات الثقة بالنفس . وكاد يغلب عليه التجهم والعبوس ، بل إن مشيته نفسها تغيرت . فقد طالت خطوته وثقلت وطأة أقدامه . وما إن قطع نحو فيرستين . وهو يلوح بعصاه ويدبرها في خفة حتى عادت شفتاه فانفرجتا بغتة عن ابتسامة . ذلك أنه رفق بجانب الطريق فلاحة صغيرة على شيء من الملاحاة تسوق عجولها من حقل للشوفان كانت فيه . واقترب من الفتاة في مثل حرص القط وحذره . وأخذ يتحدث إليها . والتزمت الفتاة الصمت أول الأمر . واحمر وجهها خجلاً . وضحكت ضحكة مكبوتة . ثم غطت فمها بكفها وانصرفت عنه قائلة : « اذهب يا سيدى . اذهب . . . »

وهز بند الفسكى إصبعه مومناً إليها . وطلب منها أن تأتيه ببعض زهور الترنشان^(١) . وقالت الفتاة في احتشام : « فيم تريدها ؟ أو تصنع منها أكاليل ؟ اذهب . اذهب ! »

وأخذ بند الفسكى يلاطفها قائلاً : « انظرى يا فتاتى الحسناء . . . » وقاطعته الفتاة قائلة : « اغرب عنى . إن السيدين الصغيرين مقلان علينا . والتفت بند الفسكى خلفه . فرأى حقاً « فانيا » و « بتيا » ولدى لاسونسكايا يعدوان نحوه . وقد سار خلفها مؤدبهما باسيستوف . وهو شاب فى الثانية والعشرين تخرج لثوه من الجامعة . وكان باسيستوف شاباً طويل القامة . قبيح الوجه . كبير الأنف . غليظ الشفتين . له عينان كعيني الخنزير . كان عاطلاً من الحسن سَمِجاً ، إلا أنه كان رءوفاً مستقيماً . أميناً . ولم يك يعنى بهندامه أو يقص شعره . ولا يفعل

(١) زهور مركبة تنمو فى حقول القمح .

ذلك عن تخدلق ولكن عن كسل . وكان يحب الأكلة الطيبة والنومة الطيبة . وإن كان يحب أيضاً الكتاب القيم والنقاش الحاد . ويكره بندالفسكى من كل قلبه . وكان ولدا لاسونسكايا يوقران باسيستوف ولا يخشيانه قط . وكان الرجل على علاقة وثيقة ببقية أهل المنزل . ولم يكن هذا يرضى سيدته كل الرضا . بالرغم من كل ما كانت تحتج به من أنها بريئة من التحيز والهوى .

وهتف بندالفسكى : « طاب صباحكما يا ولدى العزيزين . لكم بكرتما فى نزهتكما اليوم ! » . ثم أضاف موجهاً الخطاب إلى باسيستوف : « أما أنا فقد خرجت منذ وقت طويل . ذلك أننى مولع بأن أنعم بالطبيعة »

فغمغم باسيستوف قائلاً : « لقد رأينا كيف تنعم بالطبيعة ! »
« إنك للمادى ! والله يعلم ما الذى يدور فى خلدك ! إننى أعرفك . »
وعندما كان بندالفسكى يخاطب قوماً من أمثال باسيستوف فإنه كان حرياً بأن تهبج مشاعره فينطق بحرف السين بوضوح فى شىء من الصغير .

وقال باسيستوف : « إنى لأظن أنك كنت تسأل تلك الفتاة عن الطريق »
وأخذت نظراته تتحول يميناً ويساراً . وقد أزعجه الشعور بأن بندالفسكى يتفرس فى وجهه من غير مواربة :

« فلأكرر عليك القول بأنك مادى ولا شىء غير هذا . إنك ترفض أن ترى من الأمور إلا جانبها العادى المألوف . . . »

وأصدر باسيستوف أمره فجأة قائلاً : « يا ولدى ! أتريان تلك الصفصافة التى فى المرح هناك ؟ من منكما يستطيع أن يصل إليها قبل أخيه ؟ واحد - اثنان - ثلاثة ! »

٣١

واندفع الولدان إلى شجرة الصفصاف بأسرع ما تستطيع سيقاهما حملهما .
وعدا بايستوف خلفهما .

وحدث بندالفسكى نفسه قائلاً : « فلاح » ! إنه سيفسد ذنك الطفلين . إنه
فلاح ولا شيء غير هذا ! .

ونظر بندالفسكى في غرور إلى حسن بزنه ورشاقتة . تم نفص الغبار عن كم
سترته بأصابع مبسوطة . وعدل بينقته واستأنف سيره . فلما بلغ غرفته ارتدى جلباباً
حسن الهندام وجلس إلى البيان متخذاً هيئة من اعترم أمراً .



الفصل الثاني

كان بيت داريا ميخائيلوفنا لاسونسكايا يعد من أحسن بيوت ناحية «... آيا». كان منزلاً ضخماً شيد بالحجارة، ونقلت عمارته عن رسوم صنعها راسترلى على الطراز الذى كان سائداً فى القرن الثامن عشر، وشمع بأنفه على قمة تل يجرى فى سفحه نهر من أهم أنهار روسيا الوسطى. وكانت لاسونسكايا نفسها سيدة نبيلة موسرة، وأرملة مستشار فى مجلس شورى القيصر، وكان بندالفسكى يزعم أنها تعرف أوروبا كلها، وأن أوروبا بأسرها تعرفها، إلا أنها كانت فى الحق لا يكاد يعرفها أحد فى أوروبا، ولم يكن لها شأن فى سانت بطرسبرج، بيد أن أهل موسكو جميعاً كانوا يعرفونها ويؤمنون الاجتماعات التى كانت تعقدها. كانت من علية القوم، وقد ذاع أن فيها شيئاً من غرابة الأطوار، ولم تعرف بشدة الجود، إلا أنها كانت امرأة بارعة جداً، وكانت فى شبابها بديعة الحسن حتى لقد نظم الشعراء القصائد فى مديحها، وجن الشباب غراماً بها، وغازلها مشاهير القوم، ولكن مضى على ذلك خمس وعشرون سنة أو ثلاثون لم تبق على شىء من مفاتها الماضية. ولا يمتلك

كل من يراها اليوم للمرة الأولى إلا أن يسائل نفسه : « أحق أن هذه المرأة التي لم تطعن بعد في السن - وإن بدت شاحبة متغضنة حادة الأنف - كانت يوماً غانية حسناء ؟ أحق أنها هي بعينها التي كانت تتغنى بها القيثاره . . . ؟ » ، وأخذ الناس جميعاً يعجبون بينهم وبين أنفسهم من تعرض كل شيء في هذه الدنيا للتغير . صحيح أن بندالفسكى قد وجد أن عيني السيدة لاسونسكايا لم تفقدا شيئاً من بهائهما ، ولكن بندالفسكى نفسه هو الذى قال إن أوربا كلها تعرفها !

وكانت السيدة لاسونسكايا تذهب كل صيف إلى مترها الريفى وفى صحبتها أولادها (كان لها ثلاثة أولاد : ابنة تدعى ناتاليا فى السابعة عشرة من عمرها ، وابنان أحدهما فى التاسعة والآخر فى العاشرة) ، وتفتح أبواب مترها للزائرين هنالك ، أى تستقبل فيه السادة ، وخاصة العزاب منهم ، فقد كانت لا تطيق السيدات الريفيات ، وكان يطيب لهن أن يقابلن ذلك منها بمثله ! فقد كانت لاسونسكايا فى قوطن متكبرة ، خليعة طاغية شنيعة ، وكانت فوق ذلك كله تبيع لنفسها أن تبذل فى الحديث تبذلاً ! ويا لألفاظها التي تنقزز منها النفس !

صحيح أن لاسونسكايا لم تكن تأبه بالقيود التي تفرضها حياة الريف ، وكان المرء يشعر أن فى سلوكها الذى يتميز بالبساطة والانطلاق ظلاً خفيفاً من الاحتقار تنطوى عليه جوانح تلك اللبوة الحضرية لمن حولها من المخلوقات الجاهلة التافهة . وكانت تعامل أيضاً معارفها من أهل الحضر فى ألفة غير لائقة ، بل ساخرة ، ولكنها خالية من ذلك الظل من الاحتقار .

فهل اتفق لك أيها القارئ أن لاحظت أن من يرفع الكلفة مع مرءوسيه لا تكون هذه حاله البتة مع رؤسائه ؟ فما السبب فى ذلك ؟ ولكن . . . هذه

الأستلة لا تؤدي إلى شيء .

وحفظ بندالفسكى آخر الأمر تمرين ثالبرج عن ظهر قلب . فهبط من غرفته النظيفة المشرقة إلى غرفة الاستقبال فألقى المدعوبين قد اكتمل عقدهم . وأن الاستقبال قد بدأ فعلا . وكانت ربة الدار مستلقية على أريكة عريضة وقد طوت قدميها من تحها . وأخذت تتصفح في تكاسل نشرة فرنسية جديدة . وكانت ناتاليا لاسونسكايا . والآسة بونكور المربية تجلسان بجوار النافذة وكل منهما على جانب من إطار منسج التطريز . وكانت هذه المربية سيدة عذراء في الستين من عمرها عليها الغضبون والتجاعيد . ووضعت على رأسها شعراً مستعاراً أسود مهوشاً تحت قبعة مزخرفة ملونة . وحشت أذنيها بالقطن . أما باسيستوف فكان يجلس في ركن الغرفة قرب الباب يقرأ إحدى الصحف . وقد جلس إلى جواره بتيا وفانيا يلعبان الداما . ووقف سيد أميل إلى القصر مستنداً على مدفأة ويداه مشبكتان خلف ظهره . كان شعره أشيب أشعث ووجهه أسمر وعيناه سوداوين صغيرتين حائرتين . وهذا السيد هو أفريكان سيموفيتش بيجاسوف .

وكان بيجاسوف سيداً غريب الأطوار . يعمل ضغينة لكل شيء ولكل إنسان . وخاصة النساء . ويتأفف من الصباح إلى المساء . فيبدو في تأفقه مصيئاً كل الصواب حيناً . سخيفاً بعض السخف حيناً . إلا أنه كان يتسم بالحلماسة دائماً . وكان نزقه أقرب إلى الحمق . وضحكه ولهجته . بل كيانه كله . يبدو غارقاً في لجة من الغضب . وكانت لاسونسكايا تستقبل بيجاسوف عن رضا وإقبال . ذلك أنها كانت تجد في نزواته تسلية لها . فقد كانت في الحق أدنى إلى الهزل . وكان هو مولعاً بالمبالغة إلى حد الإسراف : مثال ذلك أنه كان إذا بلغ مسامعه خبر بلية مها كان

شأنها . سواء أكانت قرية احترقت بفعل صاعقة . أم سد طاحونة تصدع بفعل المياه . أم فلاحا قطع يده . عمد دائماً إلى السؤال في لهجة تم عن عناد لا يلين : « ومن تكون ؟ » . أى من تكون المرأة التى كانت السبب في البلية . ذلك أنه يؤكد أن وراء كل بلية امرأة لا تظهر إلا إذا أنعمت النظر في الأمر إنعاماً .

وقد جثا على ركبتيه يوماً أمام سيدة غريبة عنه تماماً أو تكاد . إذ كانت تلح عليه أن يتناول شيئاً من المرطبات . وراح يتوسل إليها . والدمع يترقق في عينيه والغضب مرتسم على وجهه . أن تعفيه من تناول شيء منها مؤكداً أنه لن يدخل منزلها من بعد . وقد جفل جواد مرة على سفح تل . وكانت تعلى صهوته فثاء من الفتيات اللاتي كنَّ يقمن بغسل الملابس للسيدة لاسونسكايا وألقى بها في حفرة حتى أوشكت أن تهلك . ومن يومها وبيجاسوف لا يتحدث عن هذا الحيوان إلا بقوله : « ذلك الجواد الصغير البديع » . بل إن الأمر انتهى به إلى النظر إلى التل والحفرة كأنهما من أعظم البقاع فتنة وسحراً ! .

ولم يكن بيجاسوف قد وفق في حياته . ومن هنا أدركته هذه اللوثة . فقد اشترى من أسرة فقيرة . وتقلد أبوه عدة مناصب تافهة الشأن . ولم يكن « يفلح الخط » إلا بمشقة ، كما أنه لم يعن إلا عناية قليلة بتعليم ابنه . وحسبه أنه كان يطعمه ويكسوه . وقد دلت أمه ، ولكنها ماتت في سن مبكرة ، فأخذ بيجاسوف يتولى أمره بنفسه . فالتحق بمدرسة الناحية من تلقاء ذاته ، ثم دخل المدرسة الثانوية واكتسب معرفة باللغتين الفرنسية والألمانية بل اللاتينية ، وتخرج من المدرسة الثانوية بعد أن نجح نجاحاً باهراً ، ثم التحق بجامعة دوربات حيث ظل يكافح الفقر كفاحاً متصلاً . إلا أنه أفلح في اجتياز منهج السنوات الثلاث . ولم تكن مواهب

بيجاسوف لترتفع به فوق أوساط الناس . صحيح أن صبره ومثابرته كانا عجيبيين ، إلا أن أقوى شيء كان يخفزه هو الطموح ، وشوقه إلى الدخول في زمرة المجتمع الراقى فلا يتخلف عن الآخرين مهما كان من سوء حظه . وكان الطموح هو الذى حمله على أن يجد في التحصيل ودفعه إلى الالتحاق بجامعة دوربات ، وكان الفقر هو الذى أثار حميته وأذكى ملكتي الملاحظة والدهاء فيه . كان حديثه فريداً في بابه . فقد اصطنع في باكويرة حياته أسلوباً خاصاً في الفصاحة فيه شيء من المشاكسة وشيء من الصغار ، ولم تكن أفكاره تسمو على مألوف الناس . إلا أنه كان في مقدوره أن يصبغها بصبغة تجعله يبدو متوقد الذهن حاد الذكاء . .

وعزم بيجاسوف بعد أن نال إجازة « البكالوريوس » على أن يتخذ التعليم مهنة له . فقد أدرك أن لا أمل له في اللحاق بزملائه في أية صناعة أخرى (كان يحاول أن يختار هؤلاء من أرق الأوساط ، وكان يعرف كيف يسوسهم ، فلا يتورع عن أن ينزل إلى حد الملق والمداهنة ، وإن ظل على سته مشاغباً شكساً) . إلا أن تلك المهنة كانت - إذا شئنا الصراحة - تتطلب رجلاً من معدن أصلب من معدنه . أما بيجاسوف فقد علم نفسه بنفسه ، ولم يكن يحدوه إلى ذلك حب العلم ، ومن ثم كان علمه في الحق قليلاً جداً . وقد فشل فشلاً ذريعاً في المناظرة ، في حين أن شريكه في غرفة النوم بالجامعة الذى كان بيجاسوف يسخر منه على الدوام نجح فيها نجاحاً باهراً . وكان شريكه هذا صغير العقل جداً . ولكنه كان قد نشأ نشأة سليمة كل السلامة . قومية إلى أقصى حد ، وقد أخرج هذا الفشل بيجاسوف عن وعيه . فآلئى بمكتبه ومذكراته جميعاً إلى النار والتحق بخدمة الحكومة .

وبدا مستقبه في أول الأمر باسمياً مشرقاً ، فقد كان موظفاً بالفطرة ، وكان

النقص في كفايته يعوضه تعويضاً مجزياً بالجرأة والغرور . إلا أن تعجّله التقدم في هذه الحياة قد أوقعه في المتاعب . فخطا خطوة طائشة ألجأته إلى التقاعد . وأقام ثلاث سنوات في قرية صغيرة كان قد اشتراها ثم تزوج فجأة سيدة ريفية موسرة نصف متعلمة كان قد استهواها بأسلوبه الذي ينطوى على السخرية وعدم الاكتراث ، إلا أنه كان قد أصبح فظاً نكدأً قد نال منه ما نزل به من ظلم وإجحاف . وملّ حياته الزوجية وشمها . وهرت زوجته إلى موسكو بعد أن أقامت معه بضع سنوات . وباعت هناك ضيعتها إلى مستثمر حاذق . وكان ييجاسوف قد شيد لتوه بيتاً في هذه الضيعة . وهدت هذه الضربة الأخيرة كيانه . فشرع يقيم دعوى على زوجته ولكنه خسرها . وعاش من بعد وحيداً . وكثيراً ما كان يزور جيرانه . ولكنه كان يذمهم من وراء ظهورهم بل في مواجهتهم . وكانوا يستقبلونه بشيء من الضحك المكتوم . ولو أنهم كانوا في واقع الأمر لا يخافونه . ولم يعد إلى حمل كتاب قط . وكان يملك نحو مائة عبد من رقيق الأرض يعيشون عيشة لا بأس بها .

وما إن دخل بندالفسكى غرفة الاستقبال حتى هتفت السيدة لاسونسكايا قائلة : « آه ! قسطنطين ! هل ستأتى ألكسندرين ؟ »
 فأجاب بندالفسكى : « طلبت منى السيدة ليينا أن أعرب لك عن شكرها ، وقالت : إنه يسرها أن تلبى دعوتك » . وشرع ينحنى برقة ولطف ذات اليمين وذات اليسار ، وهو يمرّ مرّاً خفيفاً على شعره الممشط أحسن تمشيط بيده الغليظة الصغيرة البيضاء التي قلم أظفارها على هيئة المثلثات تقريباً .
 « وهل سيأتى فوليتسيف أيضاً ؟ »

« أجل . والسيد فوليتسيف »

وقالت السيدة لاسونسكايا وهى تلتفت إلى بيجاسوف : « إذن فأنت تؤكد أن

السيدات الصغيرات السن متكلفات متصنعات ! »

وزم بيجاسوف شفثيه ولواهما جانباً . واختلج مرفقه فى عصبية .

وأنشأ يقول فى تأن : « أقول » (وكان يتكلم فى بطء ووضوح حتى فى أشد

ثورات غضبه) . « أقول : إن السيدات الصغيرات بوجه عام . وأسئنى منهن

الحاضرات . . . »

فقاطعت السيدة لاسونسكايا قائلة : « وهذا لا يمنعك من أن تشملهن أيضاً

بخبكك »

فكر بيجاسوف قوله : « إن الحاضرات مستثنيات دائماً . إن كل السيدات

الصغيرات عامة متكلفات أشد التكلف . متكلفات فى الإعراب عن انفعالاتهن .

فإذا روعت سيدة شابة مثلاً أو حل بها السرور أو كربها شىء . اتخذت وضعاً

رشيقاً - هكذا » ولوى بيجاسوف جسمه على أقيح صورة وأشدها نكراً وبسط

يديه . ومضى يقول : « وعند ذلك فقط تصرخ قائلة : آه ! أو تقهقه . أو تنفجر

باكية . على أننى استطعت مرة » وابتسم بيجاسوف غمغماً ومضى يقول : « أن

أخرج بتعبير صحيح صادق لعاطفة صدرت من سيدة شابة متصنعة أشد التصنع » .

« وكيف كان هذا ؟ »

وتألفت عينا بيجاسوف وقال : « لطمتها على جنبها من الخلف بوتد من الحور

اللدن . فصرخت . وأردفت أنا قائلاً : مرحى . مرحى ! . وقد كان ذلك صوت

الطبيعة . بل كان صرخة طبيعية . وهذا هو ما فعلته ! »

وضحك كل من في الغرفة .

وهتفت السيدة لاسونسكايا : « يا للهراء الذى تشدق به يا أفريكان سيميونوفيتش ! أو تريد أن أصدق أنك ضربت فتاة على جنبها بوتد ؟ »
« أقسم أنني ضربتها بوتد ، وتد ضخم ، كلك الأوتاد التى يستخدمونها في الدفاع عن الحصون » .

وانفجرت الآنسة بونكور قائلة وهى تنظر في نجهم وعبوس إلى الأطفال وكانوا قد استغرقوا في الضحك : « ولكن ما تقوله فظيح يا سيدى ! »
وقالت السيدة لاسونسكايا : « يجب ألا تصدقيه : فأنت تعرفينه جيداً ! »
ولكن السيدة الفرنسية الحانقة ظلت تغلى مدة طويلة وهى تتمم وتغمغم .
واستأنف ييجاسوف حديثه في برود قائلاً : « ربما لا تصدقيني ، ولكني أؤكد لك أن ما قلته هو الحق بعينه . ألسنت أنا الذى أعلم ذلك ؟ قد تقولين أيضاً إنك لا تصدقين أن جارتنا السيدة شيبوزوفا ، أى إيلينا أنطونوفا ، أبلغتني شخصياً - ولا تنسى أنها أبلغتني شخصياً - أنها تسببت في قتل ابن أخيها بوسائل خبيثة ! » .
« يا لها من فكرة ! »

« اسمحي لي أن أتم حديثي . أنصتوا إليّ حتى أنهي . ثم احكوا أنتم أنفسكم . واذكروا أنني لا أريد التشهير بها . بل إنها لتروق لي - على قدر ما تروق المرأة في عيز رجل : إن منزلها خال من الكتب إلا من تقوم ، وهى لا تستطيع أن تقرأ إلا بصوت مرتفع . حتى هذا التمرين على القراءة يجعلها تنصب عرقاً . ثم تشكو من أن عينيها قد جحظتا من مآقيها . وصفوة القول : إنها امرأة وخادماتها مراحات نصرات . فما الذى يحدوني إلى التشهير بها ؟ »

وعقبت السيدة لاسونسكايا على ذلك بقولها : « ما هو ذا قد بدأ الآن ! إن أفريكان سميونوفيتش قد امتطى صهوة جواده الخشبي ولن يترجل عنه حتى يحن الليل » .

« جوادى الخشبي ! إذن فالنساء عندهن ما لا يقل عن ثلاثة جياذ خشبية، وهن لا يترجلن عنها أبداً إلا إذا أدركهن النوم »
« وما هذه الجياذ ؟ »

« أللوم . والتعنيف . والزجر ! »
« وأنشأت السيدة لاسونسكايا تقول : « أقسم يا أفريكان سميونوفيتش أن لديك سبباً قوياً جداً يعملك على أن تسخط على النساء كل هذا السخط . ولا شك أن امرأة . . . »

« أكنت تنوين أن تقولى : نالنى بأذى ؟ »
« ولم ترتبك السيدة لاسونسكايا إلا قليلا . وكانت قد تذكرت زواج ييجاسوف الذى لم يكتب له التوفيق . فاكثفت بأن أومأت برأسها .
« وقال ييجاسوف : « حقاً لقد نالنى امرأة ذات مرة بأذى بالرغم من أنها كانت رءوف رحيمة »

« ومن كانت ؟ »
« فقال ييجاسوف فى همس يشبه التمثيل « أمى ! »
« أمك ؟ وكيف يمكن أن تكون قد نالتك بأذى ؟ »
« بولادنى ! . . . »

« وقطبت السيدة لاسونسكايا حاجبها وقالت : « أخشى أن يكون الحديث

قد بدأ يتحول تحولا تتقبض له النفس ويضيق به الصدر . هلا تتفضل يا قسطنطين
فتعزف لنا تمرين ثالبرج الجديد . لعل الموسيقى تهدي من ثائرة أفريكان
سميونوفيتش ؟ ألم يروض الإله أورفيوس الوحش من الحيوان ؟ »
وجلس بندالفسكى إلى البيان وعزف المقطوعة على خير وجه . وأصغت ناتاليا
أول الأمر في انتباه . ثم استأنفت ما كانت مشغولة به .

وقالت السيدة لاسونسكايا : « شكراً . هذا بديع . وإني لأحب ثالبرج . فهو
ممتاز حقاً . فيم تفكر يا أفريكان سميونوفيتش ؟ »

فأجاب بيجاسوف و تمهل : « كنت أفكر في أن « الأنانيين » ثلاثة : أنانيون
يعيشون ويدعون غيرهم يعيش . وأنانيون يعيشون ولا يدعون غيرهم يعيش . ثم
أنانيون لا يعيشون ولا يدعون غيرهم يعيش . والنساء عامة من الفريق الثالث ! »
« إن هذا للجميل منك حقاً ! والشئ الوحيد الذى يحيرنى فيك يا أفريكان
سميونوفيتش هو إيمانك بتزوه حكمك عن الخطأ حتى لكأنك لا تخطئ أبداً »

« عجباً . حاشى ! فإنى أنا أيضا أقع فى الخطأ . إن الرجل قد يخطئ . ولكن
أتعرفين الفرق بين أخطائنا وأخطاء المرأة ؟ ألا تعرفينه ؟ الفرق هو أن الرجل قد يقول
مثلا إن اثنين واثنين خمسة أو ثلاثة ونصف ولا يقول أربعة . فى حين أن المرأة
حرية بأن تقول : إن حاصل اثنين واثنين شمعة ! »

« يلوح لى أننى سمعت منك هذا من قبل . ولكن هل لى أن أسألك عن العلاقة
التي بين مذهبك فى أنواع الأنانيين الثلاثة والموسيقى التي كنت تسمعها ؟ »
« ليس ثم علاقة . فإنى لم أكن أنصت إلى الموسيقى »

فأجابت السيدة لاسونسكايا وهي تشرح قول جريويدوف شرحاً يسيراً :

« حسناً ! أرى أن لا سبيل لتقويمك يا باتيوشكا » . وأردفت تقول : « ماذا تحب إذن إذا كنت لا تحب الموسيقى ؟ لعله الأدب »
 « أجل . أحب الأدب . ولكنى لا أحب الأدب الحديث »
 « ولماذا ؟ »

« لهذا السبب الذى سأذكره لك : فقد عبرت نهر أوكا منذ عهد قريب مع سيد فى معدية . ورسى المعدية على ضفة وعرة المرتقى . ودعت الحال إلى جر العربات إلى أعلى باليد . وكان للسيد عربة ثقيلة جداً . وبينما كان رجال المعدية يخطمون ظهورهم فى سبيل رفع العربة إلى ضفة النهر . كان السيد يئن أنينا يدعو إلى الرثاء حتى شعرت بالأسف الشديد من أجله . وعندئذ فكرت فى أن ثم مجالا لتطبيق نظام تقسيم العمل تطبيقاً جديداً . وهذا يصدق على الأدب الحديث . فغيره يحجرون الانتقال ويؤدون العمل . وهو يئن ويتوجع ! »

واقترع ثغر السيدة لاسونسكايا عن ابتسامة .
 وأردف بيجاسوف الذى لا يكل ولا يمل : « ويصفونه بأنه تصوير للحياة الحاضرة . وتجاوب عميق مع المسائل الاجتماعية . وما أشبه ذلك من العبارات . إيه ! يا لتلك الكلمات الجميلة ! »

« إن أقل ما يقال : هو أن النساء اللاتي تهاجمن لا يصطنعن الكلمات الجميلة » .

وهز بيجاسوف كتفيه وقال : « إنهن لا يصطنعنها لأنهن لا يستطعن ذلك » .
 واحمر وجه السيدة لاسونسكايا قليلاً . وقالت وهى تتكلف الابتسام : « لقد بدأت تصبح وقحاً يا أفريكان سميونوفيتش » .

وساد الغرفة سكون شامل

وسأل أحد الغلامين باسيستوف فجأة : « أين زولوتونوشا ؟ »
وتدخل بيجاسوف على عجل في الحديث وأجابه قائلاً : « في ناحية بلتاوة
يا بني ، في قلب «أوكرانيا» (وقد سره أن سيأت له الفرصة ليحول دفة الحديث
إلى وجهة أهدأ وأقل إثارة للخواطر) . ومضى يقول : « وعلى ذكر الأدب ، لو أن
عندي فضلاً من مال لغدوت من فوري شاعراً أوكرانياً »
وهفت السيدة لاسونسكايا : « تالله إني لن أكون . يا للشاعر الفحل الذي
كنت خليقاً أن تكونه ، أولك علم باللغة ؟ »
« كلا البتة ، ولا حاجة بي إلى هذا »
« لا حاجة بك إلى هذا ؟ »
« لا حاجة بي ، وما عليك إلا أن تتناولى صفحة من الورق وتكتب في أعلاها
من الوسط كلمة «مرثية» . وابدئي هكذا : «وى ، يا لحظي . يا لحظي
التعس» . أو «ناليفايكو القوزاق يجلس على قورغان» . ثم أضبي إلى هذه
العبارة : « تحت التل الأخضر . جرای . جرای فوروبای . اقفز . اقفز ! . أو
شيئا من هذه القافية . فيم لك ما تريدین ! وما عليك عندئذ إلا أن تذهبي
وتنشري قصيدتك . وسقروها الأوكراني ويعتمد ذقنه على يده . ثم ينفجر باكياً .
ذلك أنه مرهف الحس قوى العاطفة ! »
وصاح باسيستوف قائلاً : « بالله عليك ! ما هذا الذي تقوله ! إنه لسخف .
فقد عشت في أوكرانيا وأنا أحب تلك البلاد وأعرف لغتها . وقلك جرای .
جراي . فوروبای ليس إلا هراء ! »

« قد يكون ما نقوله صحيحاً ، ولكن الأوكراني سيكي على كل حال . تقول إن لهم لغة . ولكن أين هي اللغة الأوكرانية ؟ لقد طلبت مرة من أوكراني أن يترجم لي أول عبارة روسية طرأت على ذهني . فكانت ترجمته أشبه بشقشقة البيغاء . أتسمى هذه لغة ؟ لغة مستقلة بنفسها ؟ وددت أن يسحق أصدق أصدقائي في هاون فيستحيل تراباً ولا أسلم لك بهذا !

وكان من الجلي أن باسيستوف يميل إلى الماضي في الجدل .
فقالت السيدة لاسونسكايا : « دعه وشأنه فإنك بلا شك لا تتوقع أن تسمع منه إلا هذه السفسطة »

وابتسم ييجاسوف في تهكم وسخرية ، ودخل خادم وأعلن قدوم ألكسندره بافلوفنا لينينا وأخيها . ونهضت السيدة لاسونسكايا لتستقبل ضيفها .
وقالت وهي تتجه نحو ألكسندره : « كيف حالك يا ألكسندرين . إنه لجميل منك أن تأتي . كيف حالك يا سرجي بافلوفيتش » .

وبصافح سرجي بافلوفيتش فوليتسيف السيدة لاسونسكايا ، وذهب إلى ناتاليا .
وسأل ييجاسوف المضيفة : « أسمحين بأن تحبريني : هل سيحضر البارون الذي تعرفت به حديثاً إلى هنا اليوم ؟ »
« أجل سيحضر »

« تقول الشائعات : إنه متفلسف عظيم ، أو إنه في نقاش حاد بعض الشيء مع هيجل »

ولزميت المضيفة الصمت : وأجلست ألكسندره بافلوفنا على الأريكة واتخذت مجلسها بجوارها . واستأنف ييجاسوف حديثه قائلاً : « الفلسفة هي أسنى النظرات

جميعاً . وهذه النظرات السامية ستوردني مورد الهلاك ! فما الذي يستطيع الإنسان أن يراه تحته وهو محلق في هذه الآفاق السامية ؟ ثم إنك إذا أردت أن تشتري جواً فإنك بلا شك لا تتفحصه وأنت مائل فوق برج عال »
وسألها ألكسندره بافلوفنا : « أظن أن البارون كان ينوي أن يأتيك بمقال من إنشائه »

وأجابت السيدة لاسونسكايا وقد بالغت في إظهار عدم الاهتمام : « أجل . مقال عن علاقة التجارة بالصناعة في روسيا . لا تراعي ، فلن نقرأه هنا . ذلك أنني لم أدعك لهذا » ، ثم قالت بالفرنسية : « إن البارون لطيف ظريف بقدر ما هو عالم . ثم إنه يتكلم الروسية بطلاقة وفصاحة أيضاً » . وعادت تقول بالفرنسية : « إنه كالسيل الفياض وهو خليق بأن يخلب لك » .
ودمدم بيجاسوف قائلاً : « إنه يتكلم الروسية بطلاقة تستحق الإطراء على طريقة الفرنسيين ! »

وأجابت السيدة لاسونسكايا : « هلم يا أفريكان سميونوفيتش ، اهذر ودمدم حتى تهدأ ثائرتك . فإن ذلك يوائم شعرك الأشعث كل المواهمة ، على أنني يأخذني العجب من عدم حضوره » ، ثم أضافت وهي تجول بنظراتها حول الغرفة : « أفلا تعلمون ما سوف نفعل سيداتي وسادتي ؟ هلموا بنا إلى الحديقة . فلا يزال بيننا وبين الغداء ساعة أو بعض الساعة ، والجو بديع » .
ونفض الجميع وخرجوا إلى الحديقة .

وكانت حديقة السيدة لاسونسكايا تمتد حتى ضفة النهر . وقد كثرت فيها الطرق تحف بها أشجار الزيزفون العتيقة ، بلونها الذهبي الداكن ورائحتها الذكية .

وتنحسر أطراف هذه الأشجار عن فرج بدت كهالات خضر زمردية . وحفلت الحديقة أيضاً بأشجار السنت والليلق .

ومضى فوليتسيف . في صحبة ناتاليا والآنسة بونكور . إلى أكثف مكان في الحديقة . وسار في سكون إلى جوار ناتاليا ، وتبعتهما الآنسة بونكور متخلفة بضع خطوات .

وسأل فوليتسيف آخر الأمر . وهو يجذب طرفي شاربه الأصهب الجميل :
« ماذا كنت تفعلين اليوم ؟ »

وكانت ملامحه تشبه ملامح أخته شيئاً عجيباً . إلا أنها كانت أقل حياة وتعبيراً . أما عيناه الجميلتان الرقيقتان فقد كانت تعلوهما مسحة من حزن .
وأجابت ناتاليا : « أوه . لا شيء . فقد أصغيت إلى زفرات ييجاسوف . وقت ببعض أشغال التطريز على قطعة من النسيج الخشن . وقرأت كتاباً »
« وأي كتاب كنت تقرأين ؟ »

فأجابت ناتاليا في تردد : « كنت أقرأ . . . كتاباً في تاريخ الحروب الصليبية »
ورمقها فوليتسيف بنظرة . ثم قال آخر الأمر : « آه ! لا بد أنه كان كتاباً ممتعاً »
وقطع غصناً وأخذ يلوح به في الهواء . ثم سارا عشرين خطوة أخرى .
وسألها قائلاً : « من هذا البارون الذى تعرفت به أمك ؟ »
« إنه سيد من القامئين على مخدع جلاله القيصر . وقد جاء حديثاً إلى هذه الناحية . وأمى تتنّى عليه ثناءً عظيماً »

« من السهل التأثير على أمك »

فقالت ناتاليا : « هذا يدل على أن قلبها مازال شاباً »

« أجل . وسأعيد إليك فرسك عما قريب . فقد كاد تدريبها ينتهى . وإني لأود أن أعلمها كيف تشريح في العدو . وهذا ما اتتويت أن أفعله »
 « شكراً لك . ولكن القلق يساورنى في هذا الشأن . فإنك تروضها بنفسك . . . ويقولون إن من الصعب جداً . . . »
 « أنت تعلمين يا ناتاليا ألكسيفنا أننى مستعد لتلبية أقل رغبة تبدر منك . إننى مستعد . . . إننى . . . ولا يقتصر ذلك على هذه الأمور الهينة . . . »

وتهدج صوت فوليتسيف فتوقف عن الكلام .
 ورمقته ناتاليا بنظرة امتنان وعادت تقول له : « شكراً لك »
 وقال فوليتسيف بعد وقفة طويلة : « إنك تعلمين أننى لم أفعل شيئاً . . . ولكن لماذا أقول لك هذا ؟ أنت تعرفين كل شىء »

وفى تلك اللحظة دق جرس فى المنزل
 وصاحت الأنسة بونكور قائلة : « آه ! جرس الغداء . فلنعد »
 وحدثت السيدة الفرنسية العجوز نفسها وهى ترقى درج الشرفة فى أعقاب ناتاليا وفوليتسيف : « واخساراته . واخساراته أن يكون معين هذا الغلام الظريف فى الحديث ناضباً إلى هذا الحد » . ويمكن أن تترجم هذه العبارة : « إنك لظريف يا عزيزى ولكنك تبعث فى نفسى الملالة والسأم » .

ولم يأت البارون لتناول الغداء . وانتظره الجميع نصف ساعة ، وفتر الحديث الذى كان دائراً حول المائدة . ولم يفعل فوليتسيف شيئاً إلا أن يرمى ناتاليا بنظراته . وقد جلس إلى جوارها . وأخذ يملأ قدحها بالماء فى غيرة وحجاسة . وحاول بندالفسكى من غير طائل أن يروح عن جارتة ألكسندره بافلوفنا . وكاد يدوب

رقة وعذوبة ، على حين أخذ يستبد السأم بها حتى همت بأن تتشاءب .
 وجلس باستوف يدحرج كريات الحيز . وقد خلا عقله . أما ييجاسوف نفسه
 فقد التزم الصمت . ولاحظت السيدة لاسونسكايا أنه لم يكن ذلك اليوم في كامل
 أنسه . فأجابها في خشونة : « وهل كنت دائماً أبداً أنيساً ودوداً ؟ إن هذا ليس من
 طبعي . . . » ثم أضاف في تهكم لاذع : « صبراً قليلاً ، فما أنا إلا بعض الجعة .
 الجعة الروسية الرخيصة . أما السيد صديقك الذي يقوم على مخدع صاحب
 الجلالة . . . »

وصاحت السيدة لاسونسكايا قائلة : « مرحى ! إن ييجاسوف رجل غيور !
 بل هو يغار مقدماً ! »

وقطب ييجاسوف حاجبيه ولم ينبس ببنت شفة .
 ودقت الساعة معلنة الساعة ، واكتمل عقد الجماعة في غرفة الاستقبال مرة
 أخرى .

وقالت المضيفة : « أظن أنه لن يأتي »
 على أنه ترامى إلى مسمعهم كركرة عربية . ودلفت إلى الساحة عربية صغيرة ،
 ودخل خادم غرفة الاستقبال بعد بضع دقائق . وناول سيدته رسالة حملها على
 صفحة من فضة ، فقرأتها ثم رفعت عينها إلى الخادم وسألت : « أين السيد الذي
 جاء بهذه الرسالة ؟ »

« إن السيد في عربته . هل أدعوه إلى الدخول ياسيدتى ؟ »

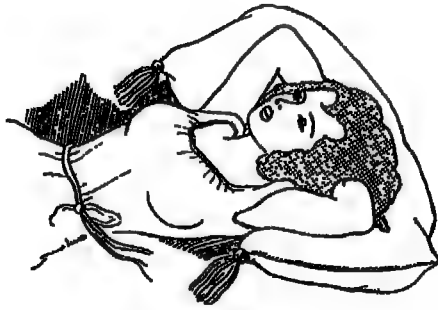
« افعل »

ونخرج الخادم

٤٩

وقالت السيدة لاسونسكايا : « يا للخجل ! تصوروا أن البارون قد تلقى أمراً بأن يعود إلى بطرسبرج تَوّاً . وقد أرسل إلى مقالته مع صديق . سيد يقال له رودين . كان البارون ينو أن يقدمه إلى ، وقد أثنى عليه الثناء المستطاب . ولكن لشد ما يبعث هذا على المضايقة والحرج ، لقد كنت أرجو أن يبقى البارون هنا رداً من الزمن . . . »

وهتف الخادم معلناً : « دميتري نيقولايفتش رودين »



الفصل الثالث

ودخل غرفة الاستقبال رجل في نحو الخامسة والثلاثين من عمره . طويل القامة مجعد الشعر ، بشرته في لون الزيتون ، وقد إحدودب ظهره قليلا ، وكان وجهه غير متسق القسمات . إلا أنه كان معبراً تبدو عليه مخايل الذكاء . أما عيناه فكانتا زرقاوين داكنتين حادتين يتجلى فيهما بريق مخضل ندى . وأنفه عريض مستقيم . وشفته قد سويتا في نسق جميل . ولم تكن ملابسه جديدة بل كانت أحكم من أن تسعه ، حتى لكأنه قد كبر عليها فلم تعد تصلح له .

ونخف الرجل إلى السيدة لاسونسكايا ، وانحنى قليلا . ثم قال لها : إنه ظل أمدأ طويلا يتوق إلى شرف التعرف بها ، وإن صديقه البارون يأسف أشد الأسف لعدم استطاعته الحضور بنفسه يستأذنها في الرحيل .

وكان صوت رودين الرفيع لا يتفق مع طول هامته وصدره العريض . وقالت السيدة لاسونسكايا : « أرجوك أن تجلس ، وإننى لجد مسرورة بمعرفتك » ثم قدمته إلى بقية الجماعة . وسألته هل هو من أهل ناحيتهم أو غريب عنها ؟ .

« وأجاب رودين وقد أمسك قبضته واضعاً لها على ركبتيه :
 « إن ضيعتي في ناحية » ت . . . آيا » . ولم يمض على هنا إلا مدة وجيزة .
 فقد جثت في عمل وأنا أقيم الآن في بلدتكم »

« في بيت من ؟ »

« في بيت الطبيب . فهو صديق الحميم منذ كنا معاً في الجامعة »
 « آه الطبيب . إنهم يثنون عليه هنا أجمل الثناء . ويقولون إنه خير بمهنته . أو
 تعرف البارون منذ أمد بعيد ؟ »

« تعرفت به في موسكو في الشتاء الماضي . وقضيت معه الآن نحواً من أسبوع »
 « إن البارون رجل بارع جداً »

« أجل ياسيدتي »

وتشملت السيدة لاسونسكايا عقدة في متدليها المعطر بماء الكولونيا .

وسأله قائلة : « أفي خدمة الحكومة أنت ؟ »

« من ؟ أنا ؟ »

« أجل »

« كلا . لقد اعتزلت الخدمة »

وعقب ذلك سكون دام برهة وجيزة . ثم استأنف الحديث الذي كانت
 تتجاذبه الجماعة .

وبدأ ييجاسوف يقول موجهاً الخطاب إلى رودين : « هلا تسمح لي بأن
 أسألك ! أو تعرف شيئاً عن مضمون المقال الذي أرسله سيدى البارون ؟ »

« أجل »

« إن المقال يتناول علاقة التجارة . . . أو قل علاقة الصناعة بالتجارة في بلادنا ، أليس هذا هو وصفك للمقال يا سيدى ؟ »

فأجابت السيدة لاسونسكايا واطعة يدها على جبينها : « بلى ، هذا هو موضوعها »

ومضى بيجاسوف قائلاً : « لاشك في أننى لا أجيد الحكم على هذه الأمور . ولكن لا مناص لى من الاعتراف بأن عنوان المقال نفسه يبدو لى - مع الترفق فى التعبير - غامضاً أشد الغموض يلتبس فهمه على الناس »
« وما الذى يجعله يبدو لك على ما وصفت ؟ »

وابتسم بيجاسوف فى سبهم وسخرية : « وألقى بنظرة من طرف عينه إلى السيدة لاسونسكايا . ثم سأل رودين ، وهو يحول إليه وجهه الشبيه بوجه الثعلب مرة أخرى : « أويبدو لك واضحاً ؟ »
« إنه يبدو لى كذلك »

« هه . . . إنك بطبيعة الحال أعلم منى بهذا »
وسألت السيدة ليبينا المضيفة قائلة : « أوتشعرين بصداع ؟ »
« كلا ، إننى لا أشعر بشيء . . . ولكن هذا من شأنه أن يثير الأعصاب »
وعاد بيجاسوف يتكلم بصوت خارج من أنفه : « أوتسمح لى بأن أسألك : هل صديقك السيد البارون موفل - أظن أن هذا هو اسمه ؟ »
« تماماً »

« ترى أيعد السيد البارون الاقتصاد السياسى مهنته ، أم تراه لا يكرس لهذا الموضوع الذى يستفرغ الجهد إلا ساعات الفراغ التى تبقى له بعد استمتاعه

بحياته الاجتماعية وأداء واجباته الرسمية ؟ »

ونظر رودين إلى بيجاسوف نظرة فاحصة .

فأجاب رودين وقد احمرَّ وجهه قليلاً : « إن البارون من المولعين بهذا الموضوع . ولكن مقاله فيه شيء كثير من الحقيقة والفائدة »

« لا أستطيع أن أناقشك في هذا لأنني لم أقرأ المقال ، ولكنني أنجراً فأسألك : ألا يختمل أن يكون مقال صديقك البارون موغل قد اقتصر على عرض المقترحات العامة أكثر من اقتصاره على الحقائق ؟ »

« إن المقال يشمل حقائق ومقترحات قائمة على حقائق »

« ليكن ما تقول ، ولكن دعني أثبتك بأن من رأيي - وأنا أستطيع أن أجاهر بهذا الرأي عند الاقتضاء لأنني قضيت ثلاث سنوات في جامعة دوربات - أن كل هذه الأمور التي يسمونها مقترحات عامة ونظريات ونظماً وما إلى ذلك - وأرجو أن تلتمس لي العذر ، فإنني قروي ولا أحب أن أتأق في الحديث - ما هي إلا عبث في عبث ، بل هي جميعاً ليست إلا سفسطة أريد بها الضحك على ذقون الناس لا أكثر ولا أقل . فلنذكروا لنا الحقائق المجردة أيها السادة ، ثم لتقفوا عندها ! »

وأجاب رودين : « حقاً ؟ ألا يجب أن نذكر أيضاً مدلول هذه الحقائق ؟ » واسترسل بيجاسوف قائلاً : « مقترحات عامة ؟ إنها كفيلة بالقضاء على :

مقترحات ، وبخوب واستنتاجات ! إن ذلك جميعاً يقوم على المعتقدات . وكل امرئ يتحدث عن معتقداته ، ويطلب لها الاحترام ، ويشير ضجة حولها

أف . أف . »

وهز بيجاسوف قبضته في الهواء ، وضحك بندالفسكي ضحكة مكتومة .

وتتم رودين : « حسن جداً ! إذن فأنت تؤكد أنه لا وجود للمعتقدات ؟ »

« نعم ليس لها وجود »

« هل هذا هو معتقدك ؟ »

« أجل »

« إذن كيف تقول : ألا وجود للمعتقدات ؟ هاك معتقداً ، ولنبدأ به »

وابتسم جميع من بالرفة وتبادلوا النظرات .

وشرع بيجاسوف يقول : « مهلا ، مهلا ، اسمح لى . . . »

وكن السيدة لاسونسكايا صفقت يديها وصاحت : « مرحى ! مرحى ! لقد

حلت المفزعة بيجاسوف ! » ، وتناولت قبعة رودين بلطف من بين يديه .

وقال بيجاسوف فى ترم وضجر : « لا يستخفك الطرب بهذه السرعة ، فليس

يكفى النطق بالمحبة فى استعلاء ، وإنما يجب على المرء أن يثبت ما يقول ويدحض

الحجة بالحجة . . . لقد خرجنا عن الموضوع الذى يدور حوله النقاش »

فقال رودين ببرود : « إن الأمر هين يسير . فأنت لا تؤمن بفائدة المقترحات

العامة ، ولا بالمعتقدات . . . »

« أجل ، فإنى لا أؤمن بشيء »

« حسن جداً ، إنك لمن الشكاك »

« لا أرى داعياً لاستعمال هذا اللفظ الذى تعارف عليه أهل العلم ، وإنى إذ

أمعن فى النظر . . . »

فتدخلت السيدة لاسونسكايا قائلة : « لا تقاطعه بعد »

وقال بندالفسكى فى هذه اللحظة محدثاً نفسه : « أمسك به ! ياله من

كلب أمين ! » ، وأشرق وجهه سروراً .

ومضى رودين يقول : « إن اللفظ يحمل المعنى الذى أريد ، وأنت تفهمه .
فلماذا لا أستخدمه ؟ إنك لا تؤمن بشيء . فلم إذن تؤمن بالحقائق ؟ »
« عجباً ! ياله من سؤال ! إننا جميعاً تؤمن بالحقائق ، وكل إنسان يعلم :
ما الحقائق ؟ إني أحكم عليها بالتجربة ، ونحواسي »
« ولكن ألا يمكن أن تخدعك حواسك ؟ أقول لك حواسك إن الشمس تدور
حول الأرض ، أم تراك تخالف كوبرنيقوس ؟ ألا تصدقه هو أيضاً ؟ »
وعادت الابتسامة تعلق شفاه الحاضرين جميعاً ، وتعلقت الأنظار جميعاً
برودين ، وكان كل فرد من الجماعة يقول فى نفسه « ها هو ذا الرجل من أهل
الحجبا »

وقال ييجاسوف : « أرى أنك ستفوز بملحتك ، وهى ملحّة لا شك عندى فى
أنها بلغت الغاية فى الأصالة والابتكار ، ولكنها خارجة عن الموضوع تماماً »
فأجاب رودين ، « ليس فى جميع ما قلته ، للأسف ، إلا شيء قليل جداً من
الابتكار ، فهو معروف للكافة منذ أمد بعيد ، وقد رددته الناس من قبل ألف مرة .
ولكن ليس هذا هو الموضوع . . . »

فسأله ييجاسوف : « وما هو إذن ؟ » ، وقد شاب صوتُه شيء من القحة .
وكان ييجاسوف قد جرى على أن يبدأ مناقشته بلهجة تم عن الفكاهة والهزل ،
ثم يتقلب فظاً وقحاً ، وينتهى به الأمر إلى الوجوم والإخلاق للصمت .
وقال رودين : « إنه ، ولا مناص لى من الاعتراف بأننى لا أستطيع أن أدفع
ما يخافنى من شعور صادق عندما أسمع رجلاً ذكياً يهاجم . . . »

واعترض بيجاسوف قائلاً : « النظم ؟ »

« أجل ، النظم أيضاً إن شئت ، فلماذا يروعك هذا اللفظ ؟ إن كل نظام يقوم على معرفة القوانين الأساسية ، بل المبادئ الجوهرية للحياة . . . »

« على أن هذه القوانين والمبادئ لا يمكن حقاً إدراكها أو الكشف عنها »

« عفواً ، فإنها ليست بطبيعة الحال في متناول كل إنسان ، ثم إن الخطأ من طبائع البشر . ولكنك بلا شك توافقني على أن نيوتن قد كشف على الأقل عن بعض هذه القوانين الأساسية ، ولا جدال في أنه كان عبقرياً ، على أن ما يكشف عنه العباقرة يعظم أكثر وأكثر إذا قرب للأذهان وأصبح في متناول الجميع ، والسعي الحديث إلى استنباط المبادئ الجوهرية من الظواهر الفردية ميزة من الميزات الأصيلة التي يتسم بها العقل البشري . . ومع كل ما حصلنا من تعليم . . . »

وقاطعه بيجاسوف وهو يثخن قائلاً : « إذن فهذا هو ما كنت تهدف إليه ! أنت رجل عملي ، ولا يعنينا الدخول في كل هذه المضغلات الخاصة بما وراء الطبيعة »

« حسن جداً ، افعل ما يحلو لك ، ولكن لا يغبين عنك هذا : إن رغبتك في أن تكون رجلاً عملياً فحسب هي في حد ذاتها نظام ، بل نظرية . . . »

فاعترضه بيجاسوف قائلاً : « لقد كنت تقول : التعليم ! شيء جميل - التعليم - يا لتعليمك الذي تباهى به من مصدر للخير الكثير ! إن تعليمك هذا لا يساوي عندي قلامة ظفر ! »

وقالت المضيفة . وقد سرت في أعماق نفسها أعظم السرور لما بدا من رزانة صاحبها الجديد ودماثة خلقه : « ما هكذا يكون النقاش يا أفريكان سميونوفيتش ! »

وراحت تهتف بالفرنسية فيما بينها وبين نفسها ، وهى ترمق وجه رودين فى اهتمام شديد ممزوج بالعطف : « هكذا يكون الرجال » ثم أردفت بالروسية : « ويجب أن أعامله معاملة كريمة »

ومضى رودين يقول بعد أن لزم السكون برهة : « ليس فى نيتى أن أدافع عن التعليم ، وما هو محتاج إلى دفاعى . إنك تكرهه ، ولكل رأي ، ثم إن الجدل فى هذا ينأى بنا كثيراً عن الموضوع ، ولكن اسمح لى أن أذكرك بالمثل القديم الذى يقول : « أى بويتير ، إنك غاضب فأنت إذن مذنب ! » ، لقد كان مرامى أن أقول : إن كل هذه المهجات على النظم والمقترحات العامة وما إليها أمر يبعث على المزيد من الأسف ، لأن الناس عامة فى هجومهم على هذه النظم ينكرون المعرفة والعلم وينكرون الإيمان بهما . ومن ثم ينكرون الإيمان بأنفسهم وبما أوتوا من قدرة . والناس فى حاجة إلى هذا الإيمان لأنهم لا يستطيعون الحياة بأحاسيسهم وحدها . ومن الخطأ أن ينفر الإنسان من رأى ويشكك فيه ، ذلك أن مذهب الشك قد اتسم دائماً بالعقم والعجز »

وتتمم بيجاسوف : « ما هذا إلا مجرد كلمات تقال . . . »
« ربما ، ولكن اسمح لى بأن أبين لك بالرغم من ذلك أننا عندما نقول : مجرد كلمات ، فإننا نحاول فى كثير من الأحيان أن نتجنب الحاجة التى تدفعنا إلى الإدلاء بشئ » أصلح من إلقاء كلمات فحسب »

وسأله بيجاسوف وهو يزم حاجبيه : « ماذا تقول ؟ »
فأجابه رودين وقد نفذ صبره على غير إرادته ، وإن كان قد ضبط مشاعره فى الحال : « لقد فهمت ما أعنى ، وهأنذا أكرر القول بأنه إذا لم يكن

للمرء اعتقاد ثابت فيما يؤمن به ولا أرض راسخة يقف عليها ، فكيف يروض عقله على أن يظل مستعداً لفهم حاجات قومه وطبائعهم ومستقبلهم ؟ وكيف يتأتى له أن يعرف ماذا ينبغي عليه أن يفعل إذا . . . »

وقال ييجاسوف في اقتضاب : « إني أترك لك الميدان » ، ثم انحنى وابتعد دون أن ينظر إلى أحد .

ورمقه رودين بنظرة ، وعلت ثغره ابتسامة فاترة ، ولم ينبس ببنت شفة . وقالت السيدة لاسونسكايا : « آه ! لقد ولى الأديبار ! ، لا عليك منه يا ديمتري » ، ثم أضافت في ابتسامة أعربت عن ودها : « عفوا ، ما اسم أسرتك »
« نيقولايفتش »

« لا عليك منه يا عزيزي ديمتري نيقولايفتش ، فما من أحد منا قد انخدع به ، وهو يريد أن يوهنا بأنه لا يرغب بعد في المناقشة مع أنه يعلم أنه لا يستطيع أن يقارعك الحجة ، تعال ، ادن مني ودعنا تتجاذب أطراف الحديث »
فاقترب رودين بكرسيه منها .

ومضت السيدة لاسونسكايا تقول : « كيف لم نلتق من قبل ؟ . إن هذا يدهشني . هل قرأت هذا الكتاب ؟ إنه لتوكفيل كما تعلم »
وناولت السيدة لاسونسكايا رودين الكرسي الفرنسية .

وأخذ رودين الكتيب الرفيع وقلب بعض صفحاته ثم وضعه على المائدة ، وقال إنه حقاً لم يقرأ هذا الأثر بالذات من آثار السيد توكفيل ، ولكنه كثيراً ما فكر في الموضوع الذي طرقة صاحبه ، ثم بدأ الحديث يدور بين الجماعة .

وقد بدا رودين أول الأمر متردداً لا يستطيع حمل نفسه على الحديث ، يتلمس الكلمات تلمساً ، ولكنه ما لبث أن استرد ناصية موضوعه وانطلق في الحديث انطلاقاً ، وما إن انقضت نصف ساعة حتى كان صوته هو الصوت الوحيد الذي يرن في الغرفة ، والتف حوله الحاضرون في دائرة ، وظل يجاسوف وحده مخبئاً في ركن من الغرفة بجوار المدفأة .

وكان رودين يتكلم ببراعة وحرارة وفطنة فيكشف عن ذخيرة من المعرفة وسعة الاطلاع ، ولم يكن أحد يتوقع أن يجد فيه ذلك الرجل الممتاز النابه ، وأما ملابسه فكانت على خلاف ذلك تماماً ، ولم يكن ثم شائعات سبقت قدومه ، وقد أخذ الكل بظهور هذا الرجل البارع بغتة ، ولا نستثنى من ذلك أهل الريف أيضاً ، وعدوه أمراً غريباً لا يمكن تعليقه ، ومن ثم أدركتهم الدهشة وزادت فتنهم به . وخاصة السيدة لاسونسكايا . فتأهت عجباً بأنها هي التي اكتشفته ، وكانت تفكر فعلاً في تقديمه إلى أرقى المجتمعات . ثم إنها كانت بالرغم من سنّها أشبه بالطفل تستجيب لأول مؤثر يحرك نفسها . أما ليينا فلم تفهم إلا القليل من أقوال رودين ، بيد أنها أخذت به وتملكها السرور ، وكذلك أخوها ، فقد بلغ به الإعجاب كل مبلغ . أما بندالفسكى فكان يرمق السيدة لاسونسكايا بعين الغيرة ، ويهتف بينه وبين نفسه : « إني لأستطيع الحصول على بلبل أحسن منه لقاء خمسمائة روبل ! »

على أن باسيستوف وناتاليا كانا أشد الحاضرين تأثراً برودين ، فقد جلس باسيستوف مبهور الأنفاس ، فاغر الفم . جاحظ العينين ، ينصت إليه كما لم ينصت إلى أحد من قبل . في حين غمرت حمرة التحجل وجه ناتاليا وازدهت

عينها وتألقتا وهي تحديق النظر في رودين لا تبغى عنه حولا .

وهمس فوليتسف في أذنها : « ما أجمل عيني الرجل ! »

« أجل ، أليس كذلك ؟ »

« ومن أسف أن تبلغ يداه من الكبر هذا المبلغ وتصطبغ عيناه بكل هذا

الاحمرار »

ولم تخر ناتاليا جواباً .

وقدم الشاي ، وجرى الحديث في موضوعات أعم ، على أن الحاضرين جميعاً كانوا يلتزمون الصمت فجأة كلما هم رودين بالكلام مما دل على مبلغ ما كان له في نفوسهم من سلطان .

وتملك المضيف رغبة مفاجئة في إغاطة بيجاسوف ، فحضت إليه وقالت له هامة : « لِمَ لا تفعل شيئاً إلا أن تهكم وتسخر ؟ حاول أن تشتبك أنت وهو مرة أخرى . » ولم يخر بيجاسوف جواباً ، فأومأت إلى رودين وقالت له وهي تشير إلى بيجاسوف : « إن ثم شيئاً آخر لا تعرفه عنه . فهو من ألد أعداء المرأة لا يني أبداً عن مهاجمتها ، فأرجوك أن تصلح من شأنه . . . »

وهبط رودين ببصره ملقياً نظرة على بيجاسوف ، أجل هبط ببصره بالمعنى الحرفي للعبارة ، ذلك أنه كان أطول منه رأساً وكفينا ، واهتز بيجاسوف أو كاد حنقاً وغيظاً ، وشحب وجهه الغضوب .

وبدا حديثه متلعثماً : « إن داريا ميخائيلوفنا مخطئة ، فإنى لا أخص بهجومى النساء وحدهن ، بل إنى لأحب البشر عامة . »

وسأله رودين : « وما الذى أوحى إليك بهذه الفكرة السيئة عن الجنس البشرى ؟ »

فعدق بيجاسوف النظر في عينيه رأساً وقال : « الأرجح أن يكون مرد ذلك إلى ما أبصره في قلبي الذى يتكشف لى فيه كل يوم مزيد من الخنثالات والنفايات . وأنا أحكم على غيرى بما أراه فى نفسى ، وقد يكون فى ذلك بعد عن الإنصاف . وقد أكون أنا أسوأ كثيراً من غيرى ، ولكن لا حيلة لى فى ذلك ، إنه حكم العادة ! »

فأجابه رودين قائلاً : « إني لأدرك ما تقول ، وأشاركك فى عاطفتك ، وأى امرئ نبيل لم يتلهف شوقاً إلى إذلال نفسه ؟ ولكن لاصلاح فى أن يبقى المرء فى مثل هذا الموقف العسير »

فقال بيجاسوف : « أشكرك شكر العاجز على شهادة النبل التى أضفيها على . إلا أننى راض كل الرضا عن موقفى مهما بلغ من عسره ، ألا سحاً له ! ، فإنى لن أسعى إلى تغييره »

« ولكن هذا معناه أنك تؤثر إشباع حب الذات فىك - وأرجو أن تغفر لى هذا التعبير - على الرغبة فى أن تحقق وجودك وأن تعيش فى عالم الحقيقة . . . » وهتف بيجاسوف : « صدقت كل الصدق ! ، فحب الذات شىء أفهمه أنا - وأنت أيضاً فيما أرجو - بل نفهمه نحن جميعاً ، فى حين أن الحقيقة . . . ما الحقيقة ؟ وأين تلك الحقيقة ؟ »

وقالت المضيفة : « لا بد لى من أن أنهك إلى أنك تكرر أقوالك » ورفع بيجاسوف كتفيه وقال : « وماذا فى ذلك ؟ إنى لأتساءل أين

الحقيقة ؟ إن الفلاسفة أنفسهم لا يعرفون ما هي : فإن كانت يقول : هذه هي الحقيقة ، وهيكل يقول : كلا ، لقد أخطأت بل هي تلك «
وسأله رودين في صوت رصين : « أتعرف ما يقول هيكل عن الحقيقة ؟ »
واندفع ييجاسوف يقول في انفعال : « أكرر لك القول بأنني لا أستطيع إدراك كنه الحقيقة ، وفي رأيي أن الحقيقة شيء لا وجود له ، أي أن الكلمة موجودة ، ولكن الحقيقة نفسها لا وجود لها » .

وصاحت السيدة لاسونسكايا ! « يا للعار ! يا للعار ، كيف يصدر منك مثل هذا القول أيها المذنب العريق ؟ لا وجود للحقيقة ! إذا كان الأمر كما تقول فما الذي يبقى للمرء حتى يعيش من أجله ؟ »

فأجابها ييجاسوف في ضيق : « إنني لأعتقد حقاً يا سيدتي أنك على كل حال سوف تؤثرين الاستغناء عن الحقيقة على الاستغناء عن طاهيك ستينان الذي برع كل البراعة في طهو المرق ، وأي نفع ترجينه من الحقيقة ؟ إنك لا تستطيعين أن تجعل منها قبة ! »

وقالت السيدة لاسونسكايا : « لا ينهض الهزل حجة . خصوصاً إذا فاحت منه رائحة القذف » .

وتتم ييجاسوف : « لا أعلم لي بشيء عن الحقيقة الفلسفية في مفهومك ، أما الحقيقة البسيطة فهي ، فيما أرى ، لا تستساغ دائماً » ثم تسلل غاضباً !
وراح رودين يتحدث عن الاعتزاز بالنفس حديثاً بارعاً . فقال : إن المرء لا يساوى شيئاً إذا خلا من هذه الصفة . ذلك أن الاعتزاز بالنفس هو رافعة أرشميدس التي تستطيع أن تخرج الأرض عن محورها . على أن الرجل في

الوقت نفسه إنما يكون رجلاً جديراً بهذا الاسم إذا استطاع أن يكبح جماح العزة والكبرياء فيه . كما يكبح الفارس جماح جواده . ويضحي بنفسه لخير الجميع . وختم حديثه بقوله : « إن العزة بالباطل هي الانتحار . وضحيته يذوى كما تذوى الشجرة العقيم ، على حين أن العزة إذا اتخذت صورة السعي الحثيث لإدراك الكمال كانت مصدر كل شيء عظيم . أجل . يجب على المرء أن يقمع غريزة حب الذات فيه حتى يهيئ لها سبيل التعبير ! »

والتفت بيجاسوف إلى باسيستوف وقال : « هلا تعيرني قلماً من الرصاص » ولم يدرك باسيستوف أول الأمر ما يرمى إليه بيجاسوف . ثم سأله أخيراً : « وفيما تطلب القلم الرصاص ؟ »

« إنى حريص على تسجيل تلك العبارة الأخيرة التي فاه بها السيد رودين . فقد أنساها إن لم أسجلها ، ولا شك أنك تسلم معي بأن الفوز بمثل هذه العبارة كالفوز المبين في لعبة (يرالاش) سواء بسواء . »

وصاح باسيستوف يقول في غيرة وحمية : « أى أفريكان سمبونوفيتش . إن ثمّ أموراً من المخجل أن يأخذها المرء مأخذ التهكم والسخرية » ثم أولى بيجاسوف ظهره .

واتجه رودين في الوقت نفسه صوب ناتاليا . فنهضت . وقد ارتسمت على وجهها الحيرة والارتباك ، ونهض فوليتسيف أيضاً وكان يجلس بجوارها . وأخذ رودين يقول في صوت ناعم رقيق كأنه أمير على سفر : « أرى بياناً . فهل تعزفين عليه ؟ »

فأجابت ناتاليا في تلعم : « أجل . . ولكنني لا أجيد العزف ، إن السيد

بندالفسكى يعزف عليه خيراً منى بكثير» .

ومد بندالفسكى وجهه إلى الأمام . وقد افتر ثغره عن ابتسامة كشفت عن أسنانه وقال : « لا تقولى هذا يا ناتاليا أليكسييفنا . فإنك بلا أدنى ريب تجيدين العزف مثلى »

وسأل رودين قائلاً : « أو تعزف قصيدة (ملك الدردار) لشوبرت ؟ »
فقلت المضيفة : « إنه يعزفها . هلا تجلس إلى البيان يا قسطنطين . أتحب الموسيقى يا ديمترى نيقولايفتش ؟ »

ومال رودين برأسه قليلاً رداً على سؤالها . ومر بيده على شعره كأنه يتهاى للسمع ، وبدأ بندالفسكى العزف .

ووقفت ناتاليا بجانب البيان فى مواجهة رودين ، وما إن انسابت أنغام اللحن الأولى حتى تم وجهه عن جمال هادئ رزين ، وكانت عيناه الزرقاوان الداكثان تهبان فى تودة ثم تستقران من حين إلى حين على ناتاليا .

وانتهى بندالفسكى من عزف المقطوعة ، ولم يعلق رودين أى تعليق . بل اتجه صوب النافذة المفتوحة . وكان الغسق الغامر العطر قد لف الحديقة بردائه الناعم . وانبعث من الأشجار الدانية أنفاس منعشة وسمانة يغشاها لألاء النجوم تتألق فى سكون يعمر القلوب بالدفاء ، وكانت هذه الليلة من ليالى الصيف نشوى تهش لها النفوس وتطرب . وحدث رودين النظر فى الحديقة وقد طواها الليل . ثم التفت إلى الجماعة قائلاً :

« لقد ذكرنى هذا النغم ، وهذه الليلة بأيام دراسى فى ألمانيا . ذكرنى بأجتماعاتنا وأغانى الحب التى كنا ننشدها بليل » .

وسألته المضيفة : « هل كنت في ألمانيا ؟ »

« قضيت سنة في هيدلبرغ ، وسنة أو نحوها في برلين »

« أو كنت تلبس لبس الطلبة ؟ لقد سمعت أن لهم في تلك البلاد طريقة غريبة في اللباس . »

« كنت أرتدى في هيدلبرغ حذاءً طويلاً بمهازين ، وسترة مزينة بالشرائط بكسرة فرسان الجيش ، وأترك شعري يسترسل حتى يبلغ كفي ، أما في برلين فالطلبة يرتدون من الملابس ما يرتديه سائر الناس . . . »

وتوسلت إليه السيدة لبيينا قائلة : « أرجوك أن تقص علينا شيئاً من حياتك وأنت طالب . . »

وكان حديث رودين في أول الأمر مخجياً للآمال بعض الشيء ، فقد خلا وصفه من الطلاوة ، ولم يكن به ميل إلى ابتعاث المرح ، على أنه سرعان ما انتقل من سرد تجاربه وهو في الخارج إلى الإدلاء بتعليقات شاملة عن أهمية التعليم والعلوم وعن الجامعات والحياة الجامعية عامة ، فرسم لذلك صورة رجة بلمسات جريئة عريضة ، وتتبع مستمعه كلماته مصغين إليه إصغاء المستغرقين ، وكان يتحدث حديث المتمكن التقدير بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب يخالطه شيء من الغموض أضفى على كلماته سحراً من لون خاص .

وانطلقت الأفكار من رأس رودين كالفيض مما عاقه عن التعبير عما يحول بخاطره في لغة محددة واضحة ، فكان يأتي بالصورة تلو الصورة ، والتشبيه في إثر التشبيه ، وكلها تتسم بالجرأة النادرة والدقة العجيبة . . كان يرتجل الكلام ارتجال المشوق المتلهف فيجىء خلواً من التلطف المعهود في المحدث المحرب المتمرس ،

ذلك أنه لم يكن يتعثر افتقاراً إلى الألفاظ ، بل كانت هذه الألفاظ تستبق إلى فيه طائعة مختارة ، حتى لقد بدا أن كل لفظ منها كان ينبعث من صميم قلبه في سر جياشاً بكل ما يفيض به الوجدان من عقيدة واقتناع . لقد كان رودين عليمًا بسر لعله أعظم الأسرار جميعاً ، ألا وهو سحر البيان ، فكان يضرب على وتر واحد من أوتار القلب فيجعل جميع أوتاره الأخرى تدق وتهتز من حيث لا تدري ، وربما كان بعض من يصغون إليه لا يدركون مغزى ما يقول ، ولكن صدورهم كانت تنفّس الصعداء ويخيل إليهم أن الحجب قد انزاحت عن عيونهم وتجلي على مرمى البصر منهم شيء متألّق لا يعرفون له اسماً ولا يستطيعون له وصفاً .

وكانت أفكار رودين جميعاً تبدو مصورة على مرآة المستقبل مما جعلها تتسم بسمة الاندفاع والشباب . كان يتكلم وهو واقف بجوار النافذة لا يحرص أحداً بنظراته ، وقد ألهمه في حديثه تجاوب الحاضرين جميعاً معه والتفاتهم إليه ، ووجود سيدات صغيرات السن ، وجمال تلك الليلة ، فانطلق في غمرة من عواطفه الجياشة المتدفقة وبلغ أقصى درجات الفصاحة ، بل الشعر . . . وكان رنين صوته ، صوته الناعم المليء بالحرارة يزيد كلماته فتنة على فتنة ، حتى لقد بدا أن روحاً علوياً كان يتحدث من خلال شفّته على غير علم منه . وقد تحدث رودين عن ذلك الشيء الذي يكسب حياة الإنسان القصيرة تلك القيمة الخالدة .

وختم حديثه بقوله : إني لأذكر أسطورة إسكندناوية تقول : إن ملكاً من الملوك كان يجلس في ليلة قارسة البرد مع رجاله المحاربين ، حول نار في مخزن ضويل مظلم ، وعلى حين غرة نفذ طائر صغير من باب مفتوح وخرج من باب آخر . ولاحظ الملك أن هذا الطائر شأنه شأن الإنسان في هذه الدنيا ، يخرج من الظلام

ويعضى لحظة عابرة في الضوء والدفء ثم يعود إلى الظلام ! فأجابه أكبر رجاله سنا :

« أيها الملك ، لن يموت الطائر في الظلام بل هو يلتمس فيه عشه
صحيح أن حياتنا قصيرة حقيرة ولكن الإنسان هو الذى يأنى بكل جليل . . . فإن إدراك المرء أنه أداة في يد تلك القوى العلوية يجب أن يصرفه عن جميع مسراته الأخرى ، فيجد في الموت نفسه حياته ، بل عشه » .

وسكت رودين عن الكلام وأرخى بصره وابتسم ابتسامة من يشعر بحيرة لا يدرى لها سبباً .

وتمت السيدة لاسونسكايا : « إنك لشاعر ! » .

ووافقها الكل على ذلك في قرارة نفوسهم ، الكل فيما عدا ييجاسوف ، فقد تناول قبعته في هدوء ، دون أن ينتظر سماع كلمة الختام من خطبة رودين المستفيضة ، ثم خرج وهمس إلى بندالفسكى الذى كان واقفاً بالقرب من الباب همساً كالفحيح ملؤه الحبث والحقد : « حسبي ! فإني ذاهب أسعى إلى معاشرة الحلقى والبلهاء ! »

ولم يتحرك أحد أقل حركة للوقوف بينه وبين الخروج ، ولم يلحظ أحد غيابه . وأقبل الخادم بالغداء ، وما إن انقضت نصف ساعة حتى كان الجميع قد غادروا الدار في عرباتهم أو على الأقدام . وأقنعت المضيفة رودين بأن يبقى عندها ليلته . أما السيدة لبيينا فقد مضت هي وأخوها في طريقهما إلى الدار . وأخذت تهتف المرة تلو المرة بعبارات التعجب الكثيرة مشيدة بذكاء رودين النادر . ووافقها فوليتسيف على أقوالها . إلا أنه لاحظ أن رودين كان يعبر عما يحول بخاطره

أحياناً تعبيراً فيه شيء من الغموض ، وأضاف على سبيل الايضاح : أى عبارات لا تفهم حق الفهم . على أن وجهه رانت عليه غشاوة وازدادت عيناه اللتان كانتا تحمقان في ركن من أركان العربة حزناً على حزن .

ونخلع بندالفسكى حاملة سراويله المطرزة بالحرير قبل أن يأوى إلى فراشه ، ثم قال بينه وبين نفسه : « إنه لشاب مندفع غاية الاندفاع » . ونظر إلى غلامه على حين بغتة نظرة صارمة وأمره بمغادرة الغرفة . ولم يغمض لباسيستوف جفن تلك الليلة ، بل لم يخلع ملابسه ، وجلس حتى الصباح يكتب خطاباً إلى صديق له في موسكو . أما ناتاليا فبالرغم من أنها خلعت ملابسه وأوت إلى فراشها فإنها لم تنم هي أيضاً لحظة واحدة ، واستلقت على الفراش مفتوحة العينين ، وأسندت رأسها بيدها ، وحملت في الظلام لا تريم ، وكانت عروقه تنبض كالحمومة ، وقد قاضت نفسها حشرات .



الفصل الرابع

ما إن انتهى رودين من ارتداء ملابسه في صباح اليوم التالي حتى جاء خادماً يحمل رسالة من السيدة لاسونسكايا تدعوه فيها إلى تناول الشاي معها في غرفتها الخاصة ، وقد وجدها رودين وحدها ، واستقبلته بود ملحوظ ، وسألته : هل قضى ليلة طيبة ؟ ثم صبت له قُدحاً من الشاي بيدها ، وسألته : أيكفيه ما حلّى به القُدح من سكر ؟ وقدمت له لفافة تبغ ، ثم عادت وأعربت له مرتين أخريين عن دهشتها من أنها لم تلقه قبل ذلك بزمان طويل . وكان رودين قد اتخذ مجلسه أول الأمر على مسافة منها ، إلا أنها أفصحت له عن رغبتها في أن يتخذ مقعده إلى جوار كرسيها ذى المسندين ، ومالت عليه قليلاً ، وراحت تسأله عن أقاربه وخططه ونواياه . وكانت السيدة لاسونسكايا تتحدث حديثاً عابراً ، وتنصت شاردة الذهن ، على أنه تبين لرودين بأجلى بيان أنها كانت تتلطف معه إلى حد الملق ، وأنها لم تكن بريئة من الغرض عندما دبرت هذا اللقاء بصبح ، وارتدت تلك الملابس البسيطة كل البساطة بل الأنيقة على الطراز الذى عرف عن السيدة ركاميه .

وسرعان ما كفت عن توجيه الأسئلة إليه ، وانصرفت عن ذلك إلى الحديث عن نفسها ، وعن أيام شبابها وعن عرفت من الناس ، واستمع رودين إلى ثرثرتها بأذن واعية . ومن عجب أنها كانت وحدها تملأ رحاب الصورة التي ترسمها جميعاً بصرف النظر عن الأشخاص الذين تحدثت عنهم ، أما الشخص الذي كانت تتحدث إليه فقد دفعت به إلى أعماق الصورة حتى توارى عن الأنظار .

ومع هذا فقد عرف رودين بأدق تفصيل ما قالته السيدة لاسونسكايا لهذا الشخص أو ذلك من وجهاء القوم ، وتبين ما كان لها من أثر في زيد وعمرو من الشعراء المجيدين . ولئن استمعت إلى السيدة لاسونسكايا لتحيل إليك أن جميع الأعيان الذين عاشوا في الربع الأخير من هذا القرن كانوا يجنون شوقاً إلى لقاءها ونيل الخطوة عندها .

وكانت ترفع الكلفة في الحديث عنهم كأنهم من أصدق أصدقائها ، ولا تتأذى حتى يستخفها الفرح بهم أو تتغنى بفضائلهم ، بل كانت تصف بعضهم بأنهم أناس غريبو الأطوار . وكانت في حديثها عن هؤلاء الأعلام تتساقط أسماؤهم من شفتيها كالهالة المتلألئة تلتف باسم هو شمسها ، بل هو اسم السيدة لاسونسكايا نفسها ، أو قل إن هذه الأسماء كانت كالرصيعة النفيسة تتوسطها جوهرة كريمة .

وكان رودين يستمع إليها ويدخن لفافات التبغ ، ولا يقول شيئاً إلا أن يدلل بين حين وآخر بملاحظة قصيرة يقطع بها حاسة هذه السيدة الثائرة وإطائها في البيان . لقد كان رودين يجيد الحديث ويجد لذة في الكلام ، بيد أنه كان لا يجيد المحادثة وإن كان مستمعاً كامل الصفات . وكان أولئك الذين لا يبعث رودين في قلوبهم الرهبة من أول الأمر يفتحون له صدورهم في ثقة واطمئنان ، يشجعهم على ذلك

ما كان ييدبه من حسن الاستعداد والإقبال على متابعة خيوط رواية يقصها شخص آخر. وكانت عنده ذخيرة من طيبة النفس ، تلك الطيبة الفريدة التي نعتها في أولئك الذين يشعرون بتفوقهم وامتيازهم .

وقلما كان يسمح لمناظره في الجدل أن يغلبه على أمره ، بل كان يفحمه بحججه المنطقية الرصينة التي لا تدفع .

وكانت السيدة لاسونسكايا تتحدث بالروسية ، فستعرض امتلاكها لنانسية لغتها الأصلية ، ولو أن حديثها كانت تتخلله المصطلحات والعبارات المأثورة الفرنسية ، وكانت تعتمد الاستشهاد بالملح الشعبية البسيطة ، ولكنها لم تكن تسوقها دائماً في الموضع المناسب ، على أن هذا الخليط العجيب من الحديث لم يقع في نفس رودين موقعاً سيئاً ، ولو أنه كان حقاً لا يلقى بالا إلى مثل هذه الأقوال إلا في النادر .

وأدرك التعب السيدة لاسونسكايا آخر الأمر ، فاستندت رأسها إلى الوسادة الخلفية لكرسيها ذى المسندين ، والتفتت إلى رودين ، ثم لزمت الصمت .
وبدأ رودين الحديث متمهلاً : « لقد أدركت الآن سبب مجيئك إلى الريف كل صيف . إنك في حاجة إلى هذه الراحة ، فهذا الذي نجده في الريف ، بعد الحياة في العاصمة ، ينعش النفس ويقوى العزم ، وإني لعلّى يقين من أنك تأنين أعظم الأنس بمفاتن الطبيعة » .

ورمقته السيدة لاسونسكايا بنظرة من طرف عينا .

« الطبيعة - أجل ، ولا ريب . . . إني مفتونة بها . . . ولكنك تعلم - أي ديمتري نيقولا يفتش - أن المرء حتى في الريف لا غنى له عن صحبة ، وهو لا يكاد

يحد هنا رفيقاً ، وحسبك أن ييجاسوف هو أذكى شخص تجده في هذه الناحية » .

« هل هو ذلك السيد العجوز الحاد الطبع الذى لقيته بالأمس ؟ » .

« هو بعينه ، فالناس حتى في الريف يرحبون ببيجاسوف نفسه » - « فهو على

الأقل يسليهم » .

فقال رودين : « إن الرجل ليس أبله ، ولكنه لا يسلك السبيل القويم . ربما

لا توافقينى على هذا القول يا سيدتى ، ولكن الإنكار ، الإنكار الكامل المجرد شيء

عقيم . . . لا جدوى منه ، أنكرى كل شيء يحسبك الناس في يسر من الحكماء .

وقد حدث هذا كثيراً من قبل ؛ ذلك أن البسطاء إنما هم على أتم استعداد للاعتقاد

بأنك أسمى من الأشياء التى تنكرين ، وهذا غير صحيح في معظم الأحيان ؛ لأنك

أولا تستطيعين أن تلمسى العيوب في كل شيء ، ثم إنك لو كنت على حق فإنك

لا تستطيعين التمسك بهذه العيوب في سبيل الفوز ، فالعقل الذى طبع على الإنكار

يصبح متبلداً عقيماً ، ذلك أن إشباع كبريائك يسلبك متعة التفكير الحق ، وتغيب

الحياة ، بل يغيب جوهرها ، عن بصرك المحدود الذى يعميه الغضب ، وينتهى بك

الأمر إلى أن تلغى كل شيء وتجعل من نفسك سخرية في عين الناس ، وإنما المحب

هو الذى يباح له النقد واللوم » .

وتمت السيدة لاسونسكايا : « ها هو ذا السيد ييجاسوف قد أهيل عليه

التراب ؛ إنك لبارع في الحكم على الناس ؛ وما كان ييجاسوف ليوافقك على

ما تقول ، فهو لا يجب إلا نفسه » .

فأجاب رودين : « وهو يتقد نفسه حتى يكون له الحق في انتقاد الآخرين » .

وضحكت السيدة لاسونسكايا قائلة : « حتى يلقى اللوم . . . ترى ما نص ذلك

القول المأثور » ، وأخذت تبحث عبثاً عن نص ذلك القول ، ثم أردفت : « على أعتاب الآخرين ، وبهذه المناسبة ما رأيك في البارون ؟ » .

« إن البارون رجل فذ ، رحيم القلب ، سليم المعرفة ، لكنه عديم الشخصية ، وسيظل طول عمره عالماً متوسط الحال ، ورجلاً متوسط الخبرة بأمور الدنيا ، أى أنه من الهواة ، وإن شئت الإفصاح والوضوح فهو إمعة ، وهذا شيء يرنى له ! » .
فقالت السيدة لاسونسكايا : « وهذا هو الرأى الذى كونه عنه . لقد قرأت رسالته . . . وهى لا تقوم - بينى وبينك - على أساس متين » .

وسكت رودين برهة ثم سألها : « ألك جيران آخرون يثيرون الاهتمام ؟ » .
ونفضت رماد لفافتها الباجيلا بإصبعها الصغيرة وقالت :

« لا وجود لغير هؤلاء تقريباً ، فالسيدة ليسينا التى رأيته بالأمس ، صديقة عزيزة علىّ ، ولكنها ليست أكثر من ذلك ، وأخوها أيضاً رجل من الأبحاد ، رجل صادق كل الصدق ، أما الأمير جارين فأنت تعرفه ، وهؤلاء هم كل جيراني تقريباً ، وثم جاران أو ثلاثة آخرون ولكنهم قليلو الشأن ، فهم إما متصنعون يملأ جوانحهم التظاهر ، وإما زاهدون انصرفوا كل الانصراف عن أمور الدنيا . وإما على خلاف ذلك قد أمعنوا في الإقدام والجرأة ، وأنت تعلم أننى لا ألقى أحداً من السيدات ، وثم جار آخر يزعمون أنه ضرب في الثقافة بسهم وافر حتى يقال إنه عالم ، ولكنه بلغ الغاية في غرابة الأطوار واستسلم لأعجب التزوات ، وإن إلكسندرين لتعرفه حق المعرفة ويبدو أنها تميل إليه ، وما أحراك ياديمتري نيقولايفتش أن تتودد إليها ، فإنها مخلوقة تهفو إليها القلوب ، وكل ما في الأمر أنها في حاجة إلى شيء من التهذيب ، وهذا حقيق بأن يعود عليها بالنفع الكبير » .

وقال رودين : « إنها امرأة فاتنة حقاً » .

« إنها لطفلة بكل معاني الكلمة ياديمتري نيقولايفتش ، بل هي كالرضيع تحمله الأذرع ، لقد كانت متزوجة ، ولكن هذا كله يشبه أن . . . لو أنني كنت رجلاً ما أحببت إلا من هن على شاكلتها » .
« حقاً ؟ »

« هذا ما كنت خليقة بأن أفعله ولاشك ، فإن مثيلاتها من النساء يمتزن على الأقل بالبراءة ، والبراءة شيء أصيل لا يقلد » .

فسألها رودين : « وهل ثم شيء غيرها يمكن تقليده ؟ » ثم ضحك ، وكان يندر أن يضحك ، فإذا ضحك علت وجهه سمة عجيبة ، فبدأ كوجه الشيوخ أو هو أقرب ، وضافت عيناه وتغضض أنفه .
ثم سألتها : « ومن ذلك الشخص الغريب الأطوار ، على ما تقولين ، الذي تميل إليه السيدة لبيينا ؟ »

« هو سيد يقال له ميخائيل ميخائيلوفتش ليزنيف ، وهو من أصحاب الأراضي في هذه الناحية » .

ورفع رودين رأسه في دهشة وقال : « ليزنيف ؟ أتقولين إنه جارك ؟ »
« أجل ، أتعرفه ؟ »

وسكت رودين لحظة ، ثم قال : « كنت أعرفه . . . منذ زمن بعيد » ، ثم أضاف وهو يشد هذب كرسيه : « وهو إن لم أك مخطئاً رجل ثرى » .
« أجل ، إنه ثرى ، وإن كان قبيح اللباس ، يتجول راكباً عربة سباق كأنه ناظر ضيعة ، ولقد حاولت أن أحمله على القدوم إلى هنا ، فهم يقولون إنه رجل

ماهر ؛ وإن لدى بعض شئون أحب أن أتدبر فيها معه . . . وأنت تعلم أنني أدير ضيعتي بنفسى » .

وأمن رودين على كلامها بإيماءة من رأسه .
وكررت السيدة لاسونسكايا قولها : « أجل بنفسى ، فإننى لا آخذ بشيء من تلك البدع الأجنبية ، ذلك أنني أمانة على عاداتنا الروسية » ، ثم أضافت تقول : « وأنا كما ترى لا أسبى التصرف » ، وأومأت بيدها فى حركة خاطفة .
وقال رودين متلطفاً : « لقد كنت أومن دائماً بأن أولئك الذين لا يسلمون بأن المرأة تدرك الأمور إدراكاً عملياً يظلمونها أشد الظلم » .

وابتسمت السيدة لاسونسكايا فى بهجة وسرور ، وتمتمت : « إنك لكريم حقاً ، ثم . . . ماذا كنت أريد أن أقول ؟ وأين بلغ بنا الحديث ؟ آه ، نعم ؛ ليزنيف : إن لى شأننا معه يخص حداً من الحدود ، لقد طلبت إليه مراراً أن يحضر ، بل إنى فى انتظار قدومه اليوم ، ولكن الله يعلم : أينحضر أم لا يحضر ؟ . . . فهو رجل غريب الأطوار كل الغرابة ! »

وأزيح ستر الباب فى هدوء ودخل رئيس الخدم ، وكان رجلاً طويل القامة أبيض الشعر أصلع الرأس ، يرتدى سترة السهرة السوداء وربطة عنق بيضاء وصداراً أبيض .

وسأله سيده : « ما الخبر ؟ » ، ثم التفتت قليلاً إلى رودين ، وأردفت فى صوت خفيض : « ألا يشبه كاننج حقاً ؟ »

وقال رئيس الخدم معلناً : « لقد جاء السيد ليزنيف ، فهل تأذنين له

بالدخول ؟ » -

وهتفت السيدة لاسونسكايا : « يا إلهي ؛ من ذكر الشيطان ظهر له ؛ دعه يدخل ! »

وانسحب رئيس الخدم .
« ياله من شخص غريب الأطوار ، لقد جاء آخر الأمر بل جاء في وقت غير مناسب ، فقد قطع علينا حديثنا » .
ونهض رودين من مقعده ، ولكن السيدة لاسونسكايا حالت بينه وبين ما يريد .

« أرجوك ! ليس ثم ما يمنعنا من مناقشة الأمر في حضورك ، فإني أود أن تختبره كما اختبرت بيجاسوف ، ذلك أنك إذا تحدثت كنت في حديثك كمن يصور بريشة ، أرجوك أن تبقى » .

وقد هم رودين أن يرفض سؤالها ولكنه أعمل فكره لحظة ثم بقي حيث هو .
ودخل الغرفة السيد ليزنيف ، الذي سبق أن قدمناه للقارئ ، وكان يرتدى السرة الرمادية نفسها التي يعلوها الغبار ويمسك بيديه اللتين لوحتهما الشمس تلك القبعة العتيقة عينها ، وانحنى في سهولة ويسر مُحيياً السيدة لاسونسكايا وانجحه صوب مائدة الشاي .

وقالت السيدة لاسونسكايا : « لقد شرفني بزيارتك أخيراً ياسيد ليزنيف ، هلا تجلس » ، ثم مضت تقول : « علمت أن كلا منكما يعرف الآخر » ، ولوحت بيدها في اتجاه رودين .

ورمق ليزنيف رودين بنظرة وعلت شفثيه ابتسامة غريبة .
وتتم وهو ينحني انحناء خفيفة : « إن لي هذا الشرف » .

وأمن رودين على قوله في صوت خفيض وأرخى بصره : « لقد كنا معاً في الجامعة »

فأجاب ليزنيف في برود : « وتقابلنا بعد ذلك أيضاً » .
ونظرت السيدة لاسونسكايا إلى الرجلين نظرة الحيرة ، ودعت ليزنيف إلى
الجلوس ففعل ، وقال : « لقد أردت مقابلتي في شأن الحد ؟ »
« أجل ، الحد ، ولكنني أردت أيضاً أن أراك ضيفاً على ألا يجمع بيننا الحوار
الوثيق . . . بل أكاد أقول القريب ؟ »

فأجاب ليزنيف : « شكراً جزيلاً ، أما بخصوص الحد فقد سويت الأمر تماماً
مع ناظر ضيعتك ، وقبلت جميع اقتراحاته » .
« علمت هذا »

« على أنه قال لي : إن الأوراق لا يمكن التوقيع عليها إلا إذا لقيتك
شخصياً » .

« أجل هذه هي السنة التي أسير عليها ، وهذه المناسبة اسمح لي أن أسألك . . .
أوقد جرى عبيدك كافة على استئجار أراضيك بإيجار ثابت ؟ »
« بالضبط »

« ومع ذلك تلح في تسوية مسألة الحدود ؟ إنه لكرم منك عظيم » .
« والتزم ليزنيف الصمت لحظة ، ثم قال : « وهكذا جئت لأفكك شخصياً » .
وابتسمت السيدة لاسونسكايا في تأفف وقالت : « إني لأدرك ما ترمي
إليه . . . ويستبين من لهجتك أنك بلا شك قد ترددت كثيراً في زيارتي » .
وأجابها ليزنيف بفتور : « إني لا أزور أحداً » .

« لا تزور أحداً ؟ ولكنك تزور ألكسندره بافلوفنا ! »

« إن أخاها من أصحابي القدامى »

« أخاها ! إنني لا أستطيع بطبيعة الحال أن أفرض صحبتي على أحد ، عفواً يا ميخائيل ميخائيلوفيتش ، اسمح لي بحكم تقدمي عليك في السن أن عليك بشيء من اللاتمة : ما الذي يدعوك إلى أن تعيش عيشة الناسك ؟ سبب ذلك أنك لا تحب متزلي ، أو أنك لا تحبني ؟ .

« أنا لا أعرفك يا سيدتي حتى أبغضك ، وبيتك بيت رائع ، لا أكلمك أنني أكره أن أحمل نفسي ما لا تطيق ، ولا يفوتك أنني لا أملك للسهرة ولا قفازاً ، ثم أنني لا أمت بصلة إلى جماعتك » .

« ولكنك تمت إليها بصلة ، تمت إليها بحسبك وتعليمك ! إنك واحد م ليس للحسب ولللتعليم دخل في هذا . . . » .

« إن على المرء أن يصاحب من هم على شاكلته ، أى متعة تجدها في

كدويوجين إلى برميله ؟ »

« ذلك أنه كان ينعم فيه بالراحة التامة ، ثم ما الذي يدعوك إلى الظن

أنجنب من هم على شاكلتي ؟ »

وعضت السيدة لاسونسكايا شفها وقالت : « هذا أمر آخر ! ولم يبق لي أبدى أسنى لأنني لم أحظ بشرف الدخول في زمرة من تشرفهم بصحبتك

وتدخل رودين في الحديث قائلاً : « يبدو لي أن السيد ليزنيف يغالى جنوحه إلى تلك العاطفة المحمودة المشكورة ألا وهي حب المرء لحرية الشخصية

ولم يعلق ليزنيف بحرف على ما قاله رودين ، واكتفى بأن رmqه بنظرة ، ثم ساد السكون لحظة .

وقال ليزنيف وهو ينهض من مقعده : « وهكذا يمكننى أن أعد موضوعنا منتهياً ، ولتأمرى ناظر ضيعتك بأن يرسل إلى الأوراق » .
« أجل يمكنك . . . ولو أنك بلغت من الحشونة ما يحملنى حقاً على أن أرفض اقتراحك » .

« عجباً ، إن الحد الجديد يعود عليك بخير أكثر بكثير مما يعود على » .
« وأنت السيدة لاسونسكايا الكلام فى هذا الموضوع بهزة من كفتها .
وسألته : « هلا تنتظر حتى تفطر معنا »
« شكراً جزيلاً ، إنى لا أتناول الفطور أبداً ، ثم إننى أتعجل العودة إلى المنزل » .

ونفضت السيدة لاسونسكايا وقالت وهى تعبر الغرفة إلى النافذة : « لن أؤخرك بل إنى لا أجزؤ على تأخيرك » .

وشرع ليزنيف ينحنى منتهياً للانصراف .
« إلى اللقاء ياسيد ليزنيف ! لا تؤاخذنى ، فقد أثقلت عليك » .
فقال ليزنيف : « حاشا » ، ثم غادر الغرفة .
وهتفت السيدة لاسونسكايا ملتفتة إلى رودين : « أرايت ؟ لقد بلغنى أنه رجل غريب الأطوار ، ولكن ما بدا منه يجاوز الحد حقاً ! » .

فقال رودين : « إنه هو وييجاسوف مريضان بالمرض نفسه ، وهو والرغبة فى أن يكونا بدعاً بين الناس . فذاك يتظاهر بأنه إبليس ، وهذا بمتهكم ساخر لا يآبه

بشيء ، وفي موقف كل منها كثير من « الأنانية » ، وكثير من الخيلاء ، وقليل من الصدق . وقليل من الحب . وهما في الحق موقفان يقومان على خطة موضوعة وتدبير مرسوم ، فالقناع الذى يشف عن عدم الاكتراث والتراخى قد اتخذ لحمل الناس على الاعتقاد بأن الرجل لا محالة ينطوى على ذخيرة من المواهب . على أن النظرة الفاحصة خليقة بأن تكشف أنه عاطل من كل موهبة » .

وعلفت السيدة لاسونسكايا على ذلك قائلة : « وهذا يصدق على الاثنين ! لقد خلقت فيصلا في الحكم على الناس ، وما من شيء يفوتك » .

فتم رودين : « أنتظنين هذا ؟ » . ومضى يقول : « ومهما يكن من شيء فإنه يجدر بي حقاً ألا أصدر حكماً على الرجل ، فقد كنت أحبه ، أحبه حب الصديق للصديق ، ولكن ما نشأ بيننا فيما بعد من سوء التفاهم . . . »

« هل تشاجرتما ؟ »

« لم تشاجر بالمعنى الصحيح ، ولكننا افترقنا ، وأخشى أن يكون فراقنا إلى الأبد » .

« ولهذا لم تكن على سجيكتك في أثناء زيارته لى ! ، لا عليك ، وجدير بى أن أشكرك على ما أنحت لى من متعة عظيمة بقضاء هذا الصباح هنا ، فقد نعمت به حقاً ، على أن الوقت يمضى بنا ، ولأتركك حراً تفعل ما تشاء حتى يحين موعد الفطور ، فلا مندوحة لى من أن أنصرف إلى شئونى ، ولاشك أن كاتب سرى الذى رأيته ، كاتب سرى قسطنطين ينتظرنى ، وإنى لأوصيك به خيراً ، فهو شاب بارع من ذوى الفضل يقدرك أعظم تقدير . طاب صباحك يا عزيزى

٨١

ديميتري نيقولايفتش ، إنك لا تدري مقدار ما أشعر به من امتنان للبارون لأنه كان
السبب في تعارفنا ! »

ومدت السيدة لاسونسكايا يدها إلى رودين ، فشد عليها ثم رفعها إلى شفتيه ،
وخرج إلى غرفة الاستقبال ومنها إلى الشرفة ، وفيها لقي ناتاليا .



الفصل الخامس

لعل ناتاليا ، ابنة السيدة لاسونسكايا . كانت تبدو للنظرة الأولى خالية من أمارات الملاحه والجمال ، فقد كانت نحيفة ، سمراء البشرة ، محدودة الظهر قليلا ، ولم يكن قد اكتمل نضجها بعد . على أن تقاطيعها كانت مليحة متناسقة بالرغم من أنها كانت أكبر مما يعهد في فتاة بلغت السابعة عشرة من عمرها ، وكان مما يسر الناظر إليها خاصة جبين ناصع ناعم قد علا حاجبين بديعين تقوسا تقوساً حتى لاح أن الصلة قد انقطعت بينهما في الوسط . كانت تتكلم قليلا ، وتنصت في شغف وحماسة ، ترنو إلى المتحدث بعين المتسائل كأنها تزن كل لفظ من ألفاظه ، وكانت في كثير من الأحيان تقف بلا حراك مستغرقة في التفكير ويداها إلى جانبيها عاطلتان من الحركة . وكان وجهها يعكس في مثل هذه اللحظات ما يعتمل في عقلها ، وقد تحير ابتسامة هينة على شفتيها فجأة ثم تختفي ، وترفع عينيها السوداوين الكبيرتين ، فتسألها الآنسة بونكور : « ما بك ؟ » . قائلة لها إنه لا يليق بفتاة في مقتبل العمر أن تبدو مستغرقة في التفكير شاردة اللب . ولم تكن ناتاليا شاردة اللب ، بل كانت

تدرس في جدّ واجتهاد ، وتقرأ وتعمل بعزم وتصميم ، وكانت مشاعرها عميقة قوية وإن كانت تخفياً ، وقد بلغ من أمرها أنها كانت حتى في طفولتها لا تصرخ إلا نادراً ، أما الآن فقلاً تنهد ، وإنما يعلو وجهها شيء من الشحوب إذا ألم بها ضيق ، وكانت أمها تعدّها فتاة مؤدبة بصيرة ، وتسميها على سبيل الدعابة : « فتاتي الرجل الصادق الأمين ! » ، ولكنها لم تكن ترى أنها من أصحاب العقول النيرة الممتازة ، وقد جرت على أن تقول : « من حسن التوفيق أن ناتاليا ثابتة الجنان ، رابطة الجأش ، فهي لا تتزعززع ، وهذا خير لها غاية الخير ، وسوف تكون سعيدة » .

ولكن السيدة لاسونسكايا كانت مخطئة ، وهيات أن تعرف أم ابنتها إلا نادراً . ولم تك ناتاليا تتق في أمها كل الثقة على الرغم مما عرفت به من البر والمعهود في الأبناء نحو الوالدين .

وقالت لها السيدة لاسونسكايا مرة : « ليس لديك ما تخفيه عني ، ولو كان عندك شيء من ذلك لأخفيته في حنايا قلبك ، فاحفظي برأسك لنفسك » . ونظرت ناتاليا إلى أمها نظرة مستقيمة وحدثت نفسها قائلة : « وأى ضرر في أن يحتفظ المرء بأفكاره لنفسه ؟ »

وعندما عثر بها رودين على الشرقة كانت ميممة صوب غرفتها بصحبة الآنسة بونكور لتضع القبعة على رأسها وتخرج إلى الحديقة ، ذلك أنها كانت قد انتهت من دروسها الصباحية ، ولم تعد تعامل معاملة الأطفال . وكانت الآنسة بونكور قد كفت منذ زمن بعيد عن تلقينها درساً في الأساطير والجغرافيا ، ولكن ناتاليا كان مفروضاً عليها أن تقرأ كل صباح - بحضور الآنسة - كتباً في التاريخ والرحلات

وغيرها من كتب الأدب التي يقصد بها التهذيب ، وكانت هذه الكتب جميعاً تختارها أمها التي كانت تزعم أن لها طريقة خاصة بها في ذلك . والحق أن كل ما كانت تفعله هي أنها كانت تميل إلى ناتاليا أي كتب تتلقاها من كتيبي فرنسي في بطرسبرج ، فيما عدا روايات دوماس الأصغر وأضرابه بطبيعة الحال ، لأن هذه الروايات كانت مما يسرها قراءته . وكانت نظرات الآنسة بونكور تزداد من خلف عويناتها صرامة وجموداً عن المؤلف إذا رأت ناتاليا تقرأ كتب التاريخ ، فقد كانت الفرنسية العجوز تؤمن بأن التاريخ كله حافل بالشائعات ، ومن عجب أنها كانت لا تعرف من عظماء الرجال الأقدمين إلا واحداً هو قبيز ، ولا تعرف من رجالات العصر الحديث إلا لويس الرابع عشر ، ثم نابليون الذي كانت تكرهه من صميم قلبها ، على أن ناتاليا كانت تقرأ كتباً لم تكن المربية العجوز لتشتبه حتى في وجودها ، كما كانت تحفظ بوشكين عن ظهر قلب .

وما إن رأت ناتاليا رودين حتى علا وجهها شيء من حمرة الخجل .
وسألها قائلاً : « أخرجت أنت في نزهة ؟ »

« نعم في الحديقة »

« أفلا تسمحين بأن أصحبك ؟ »

فنظرت ناتاليا إلى الآنسة بونكور

وأجابت العانس العجوز في خفة : « بكل تأكيد ياسيدي بكل سرور » .

وخلع رودين قبعته وتبعها إلى الحديقة .

وشعرت ناتاليا أول الأمر بالحرج ، وهي تسير مع رودين جنباً إلى جنب في طول

المشي الضيق . ولكنها سرعان ما استعادت رباطة جأشها ، وسألها عن دروسها

وعن مقدار حبها للحياة في الريف ، وكان يخالط ردودها خلجة من خلجات التهيّب . ولكن هذه الردود كانت خالية من ذلك التهيّب المثير للقلق الذي يتخذ في كثير من الأحيان دليلاً على الاحتشام ، أو قل إن هذا هو المقصود به حقاً . وكان قلبها ينبض بشدة .

وسألها رودين ، وهو ينظر إليها من طرف عينيه نظرات شملتها كلها : « ألا تجددين الحياة كثيفة في الريف ؟ »
« وكيف يمكن أن تكون كثيفة ؟ لشد ما يثلج قوادي أن نقيم هنا . إنني لجد سعيدة هنا » .

« سعيدة .. هذا شيء عظيم ، ولكنه شعور طبيعي ، فما زلت في مقتبل العمر » .

ونطق رودين هذه الكلمة الأخيرة نطقاً عجيباً - شابه شيء من الحسد أو من الرثاء - وقال : « آه ، الشباب ! إن الهدف الأخير للعلم هو أن يبلغ عن وعي ما وهب للشباب بلا مقابل » .

وتفرست ناتاليا في رودين ولم تكن قد أدركت ما يرمى إليه . ومضى يقول : « لقد قضيت هذا الصباح في حديث مع أمك ، إنها امرأة لا نظير لها بين النساء ، وقد أدركت الآن السبب في أن شعراءنا يعترفون بصداقتها » ، ثم أضاف بعد لحظة : « أو مغرمة أنت بالشعر ؟ » .

وحدثت ناتاليا نفسها قائلة : « إنه يضغني موضع الاختبار » . ثم قالت : « أجل ، إني مغرمة به جداً » .

« إن الشعر لغة الآلهة ، وأنا شخصياً أحب النثر ، على أن الشعر لا يقتصر على

القصاصد ، بل هو يخل في كل مكان ويحيط بنا من كل جانب . . . انظري إلى تلك الأشجار ، وإلى هذه السماء ، إن كل شيء ينطق بالجمال وينبض بالحياة ، وحيثما ان الجبال والحياة كان الشعر» .

واسترسل يقول : « هيا بنا نجلس هنا ، على هذه الأريكة . . . أجل ، إني لأعتقد أنك كلما ازددت إلغاً لى . . . » ، واستقرت عيناه الباسمتان على وجهها ثم أتم حديثه . « . . . غدونا صديقين ، ألا تعتقدين هذا ؟ »

وعادت ناتاليا تحدث نفسها قائلة : « إنه يعاملنى كما لو كنت تلميذة » ، ثم سأله دون أن تدري ما تقوله : هل ينوى الإقامة فى الريف طويلاً ؟ .
« ضوال الصيف والحريف ، وربما الشتاء أيضاً ، فإنى كما تعلمين لست غنياً بحال من الأحوال ، وظروفي سيئة ، ثم إننى قد تعبت من التجول بين الأماكن المختلفة ، وآن لى أن أستريح » .

وتملكت الالهشة ناتاليا ، فسألته فى خجل : « أو تعتقد حقاً أنه قد آن لك أن تستريح ؟ » .

وواجهها رودين قائلاً : « ماذا تعنين بهذا السؤال ؟ »
فأجابت فى شيء من الارتباك : « أقصد أن غيرك قد يستريح ، أما أنت . . . ، فينبغى لك أن تعمل وتحاول أن تكون نافعاً . عجيباً ، إن لم تفعل ذلك فمن يفعله غيرك ؟ . . . » .

وقاطعها رودين قائلاً : « شكراً لك على حسن ظنك ، أن يكون المرء نافعاً . . . أمر يسهل التحدث به ، ثم مريده على وجهه ، وكرر قوله : « أن يكون المرء نافعاً . . . إني لو آمنت إيماناً راسخاً بأننى أستطيع أن أكون نافعاً على وجه من

الوجوه ، أو أوتيت الثقة بنفسى فأنى لى أن أجدر القلوب المخلصة التى تتجاوب معى . . . ؟ .

وأوماً رودين بيده إيماءة اليائس ، وبدا عليه ما يبدو على القانط المقهور ، حتى إن ناتاليا لم تجد بداً من أن تسائل نفسها ، أكانت الأحاديث الحماسية الزاخرة بالأمل التى صدرت عنه فى الليلة الماضية ، أحاديثه حقاً ؟ .

وهتف ، وهو يلنى إلى الوراء يجمته التى تشبه معرفة الأسد : « بل حاشا ! فإن ذلك كله هراء ، وإنك لعلى حق ، أشكرك يا ناتاليا ألكسيفنا . أشكرك من صميم قلبى » ، ولم تدر ناتاليا قط علام يشكرها . « إن كلمة منك قد ردتنى إلى واجبى ، وهدتنى الطريق الذى يجب على أن أسلكه ، أجل . ينبى لى أن أعمل . ويجب ألا أخنى موهبتى ، إن كانت لى موهبة . يجب ألا أبدد جهدى فى الحديث وحده بل فى ثرثرة تافهة عقيم ، وكلمات لا تعدو أن تكون كلمات وحسب . . . » .

وتحدرت كلماته كالسيل ، وكان يتحدث عن خزيه من جبنه وكسله . وعن حاجته إلى العمل حديثاً بديعاً حاراً مقنعاً ، وقد أنهال على نفسه باللائمة فوق اللائمة ، قائلاً : « إن المرء إذا تحدث عما يفعل قبل أن يفعله جلب على نفسه الضرر ، وكان مثله كمثلى من يخر ثمرة على وشك النضج بدبوس . فإن فى ذلك مضية للجهد وعصير الحياة أية مضية ، وقد أقسم بأن الفكرة النبيلة خليفة بأن تجتذب القلوب . وأن أولئك الناس الذين لا يعرفون ماذا يريدون أو لا يستحقون أن يفهمهم أحد - هم وحدهم الذين لا يتحدثون من الناس إقبالا على تفهم ما يريدون .

وتحدث رودين فى ذلك حديثاً مفصلاً ، ثم ختم حديثه بشكر ناتاليا مرة

أخرى ، ثم ضغط على يدها ضغطاً أخذها به على غرة تماماً ، وقال : « يالك من مخلوقة جميلة نبيلة ! »

وقد روعت هذه الحرية الآتية بونكور ، فإنها بالرغم من السنين الأربعين الحاملة التي قضتها في روسيا كان يتعذر عليها فهم اللغة الروسية ، وإنما كانت تعجب بذلاقة لسان رودين التي تخلق القلوب ، وطلاقة حديثه الأخاذ ، مما جعله يبدو في نظرها كالمغنى الحبير بأصول الغناء أو كالممثل ، وكانت مقتنعة بأنه يتعذر على المرء أن يتوقع من قوم على شاكلة هؤلاء أن يراعوا مقتضيات الأدب والاحتشام .

ثم نهضت ، وأصلحت من شأن ثوبها بحركة مفاجئة ، وقالت لناناليا : إن الوقت قد حان ليأووا إلى المنزل ، وخاصة أن السيد فولسوف (وهذا هو الاسم الذي كانت تطلقه على فوليتسيف) قد وغد بتناول طعام الإفطار معهم . وهتفت ، وهي تنظر إلى طريق من الطرق التي تؤدي من المنزل إلى الحديقة : « عجباً ، ها هو ذا قد أقبل ! » .

والحق أن فوليتسيف كان قد ظهر على بعد قليل منهم . واقترب فوليتسيف في خطى مترددة وانحنى لهم عن بعد ، ثم التفت إلى ناناليا وعلى وجهه أمارات الألم وقال : « آه ! إنك تتزهين ! » . وأجابت ناناليا : « أجل ، وقد كنا على وشك العودة » . فقال فوليتسيف : « آه ! حسناً ، هلموا بنا إذن » ، ومضوا جميعاً صوب المنزل .

وسأل رودين فوليتسيف ، وفي صوته نبرة عجيبة يشيع فيها الود : « كيف

حال أختك ؟ » ، وكان في الليلة الماضية قد حدثه أيضاً حديثاً مفعماً بالود .
 « شكراً ، إنها بخير ، وقد تحضر إلى هنا اليوم ، أظن أنكم كنتم تتناقشون في أمر
 من الأمور عندما جئت » .

« أجل ، كنت أتحدث حديثاً غاية في الإمتاع مع ناتاليا ألكسييفنا ، ولقد
 ذكرت شيئاً أثّر فيّ أثراً بليغاً » .

ولم يسأل فوليتسيف ما عسى أن يكون هذا الشيء ، وعاد الجميع إلى منزل
 السيدة لاسونسكايا في سكون شامل .

* * *

واجتمع الضيوف مرة أخرى في غرفة الاستقبال قبل الغداء ، إلا أن ييجاسوف
 لم يحضر ، ولم يكن رودين في أحسن حالاته ، وراح يطلب من بندالفسكى أن
 يعزف شيئاً من ألحان يتهوفن . وكان فوليتسيف يحمق في الأرض في صمت
 وسكون ، ولم تترك ناتاليا جانب أمها ، وكانت تستغرق في التفكير حيناً ، وتطرز
 حيناً آخر ، ولم يستطع باسيستوف أن يتتزع نظراته المستقرة على رودين وكله انتظار
 لحكمة ينطق بها ، وهكذا انقضت ثلاث ساعات في ملل لا يخفف من وقعه شيء ،
 ولم تأت السيدة ليبينا لتناول الغداء ، أما فوليتسيف فإنه لم يلبث أن أمر بإعداد
 عربته الصغيرة بمجرد أن تركت الجماعة مائدة الطعام ، وانطلق إلى الخارج دون أن
 يودع أحداً .

لقد أثقل الحزن قلبه لأنه كان يجب ناتاليا منذ أمد بعيد ، على أنه لم يستطع أن
 يحمل نفسه على التقدم إليها طالباً يدها . لقد كانت تنظر إليه بعين العطف والرعاية
 ولكن قلبها كان خالياً لا يعكر صفوه شيء : وكان هو يرى ذلك بجلاء ووضوح .

ولم يكن يراوده أمل في أن يثير في قلبها ما يزيد من حديها عليه ، وإنما كان ينتظر الساعة التي تألفه فيها كل الألفة وتنجذب إليه بحكم العادة . وإذن ففيم كل هذا الانزعاج الذي أصابه ؟ وأى تغيير لاحظته في ذينك اليومين ؟ إن ناتاليا تعامله كما كانت تعامله من قبل بلا تغيير ولانقصان . . .

وسواء كان قد ألت به فكرة حملته على الظن بأنه لا يعرف شيئاً عن أخلاق الفتاة ، أو توهم أنها كانت غريبة عنه أكثر مما حسب ، أو كانت عقارب الغيرة قد دبت في قلبه وتسلمت عليه هواجس غامضة ، فإن ذلك لم يغير من الواقع شيئاً ، فقد كان يتألم بصرف النظر عما بذله من جهد كبير في تقليب الأمر بينه وبين نفسه . ولحق بأخته في غرفتها فوجدتها مع ليزنيف .

وسألته : « لِمَ عدت مبكراً كل هذا التبكير ؟ »

« إنني شعرت بالسأم فحسب » .

« وهل رودين هناك ؟ »

« أجل » .

وألقي فوليتسيف بقبعته واتخذ لنفسه مقعداً ، والتفتت إليه أخته في لهفة قائلة : « أرجوك أن تعاونني يا سرجي على إقناع هذا الرجل العنيد . . . » ، ثم أشارت إلى ليزنيف ، « . . . بأن رودين على حظ عظيم من المهارة والفصاحة » . وتقم فوليتسيف بشيء في صوت متخافت .

وقال ليزنيف : « أنا لا أجادل في هذا أبداً ، ولا . . . يخالجنى أقل شك في مهارة السيد رودين وفصاحته ، وكل ما أقوله إنه لا يروق لي » .

وسأله فوليتسيف : « أوقد رأيته إذن ؟ »

« رأيته هذا الصباح في منزل السيدة لاسونسكايا ، وأنت تعلم أنه الآن صاحب الخطوة الكبرى عندها ، وسوف يأتي اليوم الذي تفرق فيه عنه أيضاً - ذلك أنها لن تفرق عن بندالفسكي وحده - ومع ذلك فهو الآن صاحب الخطوة إلى أن يحل ذلك اليوم . أجل رأيته ! لقد كان يجلس عندها وهي تعرضني عليه . فتأمل ياسيدي الفاضل فيمن عندنا هنا من أشخاص غريبى الأطوار ! إننى لست حسان سباق ، ولم أعود أن أحمل على السير متبخراً أمام الناس يستعرضونى ، ولذلك غادرتها من فورى » .

« وما الذى رمى بك إلى هناك ؟ » .

« ذهبت من أجل تلك المسألة الخاصة بالحد ، ولكن هذا كله كان شيئاً نافهاً لا غناء فيه ، وكل ما فى الأمر أن نفسها ناقت لرؤية سحنة وجهى ، وإن ذلك لنزوة تملكك كما تعلم نفس سيدة عظيمة » .

وهتفت السيدة ليبينا تقول فى لهجة تفيض بالحرارة : « إن تفوقه فحسب هو الذى يثيرك ، وهذا شيء لا تستطيع أن تغفره له ، وإنى لوائقة من أن قلبه يبلغ فى كماله ما يبلغه عقله ، انظر إلى عينيه عندما . . . » .

وقاطعها ليزنيف قائلاً : « لقد بلغ من كمال الخلق ما هو حقيق بالإشادة والإطباب ! » .

« إنك تثير فى من الغضب والحق ما يحملنى على البكاء ، ويؤسفنى حقاً أن أظل فى صحبتك بدلاً من أن أذهب إلى السيدة لاسونسكايا ، إنك لا تستحق منى ذلك » ، ثم مضت تقول فى صوت باك : « ألا فلتكف عن معاكستى وحدثنى عن شبابه » .

« عن شباب رودين ؟ »

« أى نعم ، ألم تخبرنى أنك تعرفه حق المعرفة ، وأن معرفتك به ترجع إلى سنوات طويلة ؟ »

ونهض ليزنيف وأخذ يذرع الغرفة ، ثم أنشأ يقول : « أجل ، أعرفه جيداً ، أتريدين منى أن أخبرك عن شبابه ؟ حسناً جداً إذن ، لقد ولد فى ت - ف ، وكان والده من ملاك الأرض الرقيقى الحال ، ولم يلبث أبوه أن توفى وتركه وحيداً مع أمه ، وكانت من أرحم الناس قلباً ، لقد كانت تعبده ، وكان معاشها كله على الشوفان فحسب ، وقد أنفقت عليه ما كان لديها من مال . وتعلم رودين فى موسكو ، على نفقة عم من أعمامه أول الأمر ، فلما ترعرع وبلغ أشده ، واصل تعليمه على نفقة أمير ثرى صغير السن نفذ إلى قلبه بخلته ومكره - حسناً ، وإنى لأرجو عفوك ! - لقد فاز بصداقته ، ثم التحق بالجامعة ، ولقيته فيها وأصبحتا صديقين حميمين ، وسأحدثك فى وقت آخر عن حياتنا فى تلك الأيام ، أما الآن فلا أستطيع ذلك ، ثم سافر رودين إلى الخارج . . . » .

ومضى ليزنيف يذرع الغرفة ، وكانت السيدة لبيينا تتبعه بعينها .

ثم أردف يقول : « ولم يكتب رودين إلى أمه وهو فى الخارج إلا فى الأقل النادر ، ولم يزرها إلا مرة واحدة زيارة استغرقت عشرة أيام أو نحوها ، وماتت السيدة العجوز فى غيبته بين يدى بعض الغرباء ، ولم تحول نظراتها عن صورته حتى لفظت أنفاسها الأخيرة ، وكثيراً ما زرتها وأنا أقف فى ت - ف ، وكانت امرأة عجوزاً غاية فى الطيبة والكرم ، وقد ألفت أن تقدم لى مرعى الكرز ، وكانت مشغوفة بابنها ديمترى ، ويحدثك السادة معشر بخوريى أننا نحب دائماً أولئك

الذين يعجزون هم أنفسهم عن الحب ، ولكنى أعتقد أن جميع الأمهات يحبن أولادهن وخاصة إذا كانوا بعيدين عنهن .

ثم قابلت رودين فى الخارج بعد ذلك ، وقد وثقت صلتها به هناك سيدة متحذقة عجوز من مواطناتنا قبيحة قبح الجورب القديم ، وأبقاها طوع أمره مدة طويلة جداً ، ثم هجرها . . . أو على الأصح ، وأرجو عفوك ، هجرته هى . ثم هجرته أنا ، وهذه هى القصة كلها » .

والتزم ليزنيف الصمت ، ومر يده على جيبته ، ثم غاص فى مقعد مريح كما يفعل المرء إذا حل به التعب .

وبدأت السيدة ليينا حديثها قائلة : « هلا علمت ياسيد ليزنيف أنك رجل خيىث ، وأنتك لا تفضل ييجاسوف فى شىء ، وإنى لأعتقد أن كل ما قلته صحيح ، وأنتك لم تأت بشىء من عندك ، ولكن ما أقسى الأسلوب الذى اصطنعته فى روايتك هذه القصة ! ، فتصويرك للسيدة العجوز ، وتقديسها لابنها ، ولقاؤها الموت وحيدة ، ثم وصفك لتلك السيدة التى عرفها فى الخارج . . . ترى ما الذى دعاك إلى إلقاء هذا الضوء الكريه على هذه الصورة ؟ عجباً لك ! ألا فلتذكر أن حياة خير من عاش على ظهر البسيطة طراً يمكن تصويرها بمثل هذه الألوان حتى ليرتاع منها الناس أجمعين دون أن تضيف إليها شيئاً من عندك ، ولكن هذا أيضاً تجريح للناس وقذف فى حقهم ! » .

وانتصب ليزنيف واقفاً وعاد يذرع الغرفة قائلاً : « إنى لأبعد ما يكون رغبة فى إيذاء شعورك ياسيدتى ، فليس من شيمتى أن أغتاب الناس أو أشهرهم » ، ثم فكر لحظة ومضى يقول : « لعمرى إن ما قلته فيه شىء من الحق . . . إننى لم أغتب

رودين ، ولكن من يدري ؟ ، لعله تغير منذ ذلك الحين ، وربما كنت قد ظلمته .
« آه ! لقد أدركت هذا الآن . . . عدنى إذن بأنك سوف تجدد صداقتك له .
وتزداد معرفة به ، ثم أنبئني برأيك الأخير فيه . »

« كما تشائين . . . ولكن فيما سكوتك ياسرجى بافلوفتش ؟ »

« وفزع فوليتسيف ورفع رأسه كأنما أوقف من النوم لتوه .

« وماذا عساي أن أقول ؟ إننى لا أعرفه ، ثم إننى أشعر بصداع . »

وقالت أخته : « إنك لتبدو اليوم شاحب اللون حقاً ، هل أنت مريض ؟ » .

فأجاب فوليتسيف : « عندى صداع » ، ثم غادر الغرفة .

وشيعته السيدة ليينا والسيدة ليزنيف بعيونهما ، وتبادلا النظرات ، ولكنهما لم

يقولا شيئاً ، أما ماكان ينوء به قلب فوليتسيف فلم يكن سراً عليهما .



الفصل السادس

وانقضى على ذلك أكثر من شهرين . وظل رودين طوال هذه المدة ملازماً منزله السيدة لاسونسكايا لا يكاد يبتعد عنه ، ولم تكن هي تستطيع شيئاً بدونه . فقد أصبح من الضرورات عندها أن تحدثه عن نفسها وأن تنصت إلى أحاديثه ، وأراد يوماً أن يرحل معتدرا بنفاد نقوده ، فأعطته خمسمائة روبل ، ثم اقترضت مائتي روبل أخرى من فولينسيف .

وعاد بيغاسوف ليزور بيت السيدة لاسونسكايا إلالمأماً ، فقد كان وجود رودين يلغى وجوده . ولم يكن بيغاسوف هو وحده الذى يشعر بطغيان شخصية رودين .

لقد كان يقول مثلاً : « إننى لأحب ذلك الحكيم ، فهو يتكلف الحديث تكلف شخصية فى رواية تصور الحياة فى روسيا ، فيقول « أنا » ويتوقف عن الحديث فى وقار ، « أنا . . أجل أنا » ، ثم إن الكلمات التى يستعملها طويلة جداً : فإذا أنت عطست داهمك بالحديث وشرح لك شرحاً دقيقاً لِمَ عطست ؟ ولم

تسعل ؟ وإذا مدحك فعل ذلك كما لو كان يعلن ترقية رسمية ، وإذا شرع يعيب نفسه ، فعل ذلك في سرور واستمتاع حتى لتخال أنه لن يمرّو على مواجهة ضوء النهار ثانية ، ولكن شيئاً من هذا لا يحدث ، بل يبدو أن ذكره لمعاييه ينعشه كما لو كان قد تناول قدحا من الشراب الروسي اللاذع .

وكان بندالفسكى يخشى رودين ويحرص على تلمس الطريق إلى مرضاته ، أما علاقة فولينتسف برودين فكانت غريبة ، ذلك أن رودين كان يدعوه الطاهر العفيف ويمتدحه في حضوره وفي غيبته ، ولكن ذلك لم يكن يقربه من قلب فولينتسف الذى كان دائماً ينفذ صبره ويتملكه الغبط كلما شرع رودين يتغنى بمخضاله في حضرته ، وكان يحدث نفسه قائلاً ، « أترأه يحاول خداعى ؟ » ويثور في قلبه العداء له ، وكان بالرغم عنه يغار منه من أجل ناتاليا ، وكان رودين أيضاً لا يكاد يشعر بالود نحوه على الرغم من أنه كان يفيض في الترحيب به ويلتمس الطريق إلى قلبه بمدح طهره وعفته ويقترض المال منه ، وكان من العسير أن نصف حقيقة شعور الرجلين عندما كان كل منهما يشد على يد أخيه مصافحاً في صداقة وود ، وينظر إلى عينيهِ نظرة فاحصة مستطلعة .

وظل باستتوف يعظم رودين ويتعلق بالكلمات التى تخرج من شفتيه ، وكان رودين لا يوليه من عنايته إلا القليل . وقد حدث يوماً أن قضى معه الصباح بطوله يناقش مهام الحياة ومشكلاتها العويصة ، وأثار فيه حمية وغيرة عظيمين ، إلا أنه تجاهله من بعد ، والظاهر أنه لم يكن يسعى إلى النفوس الطاهرة المخلصة إلا بالقول دون الفعل ، ولم يأخذ رودين قط في مناقشته ليزيف الذى كان قد بدأ في زيارة السيدة لاسونسكايا ، ويبدو أنه كان يتجنب الاجتماع به . وكان ليزيف من

ناحيته يعامله ببرود ، وإن كان قد امتنع عن إبداء رأيه الأخير فيه مما أغضب السيدة
ليينا كثيراً ؛ فقد كانت تعجب برودين وتؤمن بليزيف .

وكان كل من في بيت لاسونسكايا يلبي نزوات رودين ، ويحييه إلى أقل رغبة
يبديها ، وكان برنامج اليوم يتوقف عليه تماماً ، فلم يكن القوم يخرجون في نزهة طلباً
للمتعة بدونه ، إلا أنه لم يكن ممن يميلون كثيراً إلى التزهات والمسررات التي تأتي
عفواً ، فكان يشترك فيها اشترك البالغين في ألعاب الأطفال ، متخذاً سمة التواضع
اللطيف يشوبه شيء من السأم . على أنه كان يهتم بجميع الأمور العملية ، فكان
يباحث السيدة لاسونسكايا في إدارتها لأعمالها وفي تنشئة أطفالها وفي مشكلاتها
المتزلية وفي شئونها عامة ، وكان ينصت إلى خططها ويناقشها في كل تفصيل من
تفصيلاتها وإن هان ، ويقترح ما يراه من وجوه الإصلاح والتجديد ، وكانت هي
تثني عليه بالكلام فحسب ، ولا تخطو بعد ذلك خطوة ، فقد كانت في المسائل
المتعلقة بالعمل تأخذ بنصح ناظر زراعتها ، وكان خادماً أو كرانياً كهلاً أعور طيب
السريرة وإن كان صاحب مكر ودهاء ، وقد ألف أن يقول وهو يبتسم ويزر عينه
الواحدة : « إن عجائز الجياد هي خير من يعمل » .

ولم يكن رودين يكثر الحديث أو يطيله مع أحد بعد السيدة لاسونسكايا
إلا الآنسة ناتاليا ، فقد كان يدفع إلى ناتاليا بالكتب سراً ، وينفض إليها مطامحه في
ثقة واطمئنان ، ويقرأ لها الصحف الأولى من مقالاته وكتبه التي يزمع نشرها ،
وكثيراً ما كانت ناتاليا تعجز عن إدراك معناها ، على أن رودين لم يكن فيما يظهر
يعنيه أن تفهم عنه أو لا تفهم ، طالما أنها كانت تصغي إليه ، ولم تكن صداقته
الوثيقة بناتاليا بالشيء الذي ترتاح له السيدة لاسونسكايا كل الارتياح ، فقد

كانت تحدث نفسها قائلة « آه ، لا بأس ، ولندعها تثرثر معه قليلا وهى فى الريف . فإن الطفلة تسليه ، وليس فى هذا من ضرير كبير ، فإنها بلا شك ستفيد منه . أما وى بطرسبرج فإن الأمر يختلف عن ذلك كل الاختلاف . . . » .

وقد أخطأت السيدة لاسونسكايا ، لأن ذلك لم يكن ثرثرة طفلة ؛ فقد كانت ناتاليا تنصت فى نهم إلى كلمات رودين وتحاول أن تتبين مرامها ، وكانت تخضع أفكارها وشكوكها لحكمه ؛ كان مشيرها وهاديا ، ولم يكن قد استيقظ فيها حتى ذلك الحين إلا رأسها ، إلا أن الرأس الصغير لا يظل يتحرك من تلقاء نفسه مدة طويلة ، فما أحلى تلك اللحظات التى كانت تقضيها ناتاليا جالسة على أريكة من أرائك الحديقة فى ظل شجرة الدردار اللطيف النسما تنصت إلى رودين وهو يقرأ لها « فاوست » لجوته ، أو يقرأ لها هوفمان أو « رسائل » بتينا ، أو يقرأ لها نوفالس ، ثم لا يلبث أن يتوقف ليشرح بعض الفقرات التى كانت فيما يبدو غامضة عليها ! وكانت ناتاليا تتكلم الألمانية بصعوبة ، كما هو شأن معظم سيداتنا الشابات ، ولكنها كانت تفهمها جيداً . وقد عمد رودين ، وهو البصير بالشعر الألمانى الخبير بالرومانتيكية عند الألمان المحيط بفلسفتهم ، إلى الانطلاق بها إلى تلك العوالم المصونة المكنونة ، فأخذت تتكشف أمام نظراتها المتطلعة جميلة يحف بها الغموض . وفاضت من بين صفحات الكتاب الذى كان رودين يحمله بين يديه صور رائعة ، وأفكار جديدة مشرقة انسابت إلى نفسها انسياب الغدير يشدو بالنغم العذب ، وومض فى قلبها الذى هزه الفرح السامى بالمشاعر العظيمة قبس النشوة المقدسة هيناً رقيقاً ، ثم لم يلبث أن غدا شعلة تنوهج .

وسألتها ناتاليا مرة ، وهى تجلس بجوار النافذة إلى منسج تطريزها « خبرنى :
أوقد عزمت على قضاء الشتاء فى بطرسبرج ؟ أليس هذا ما عولت عليه ؟ »
فأجابها رودين وقد أرخى الكتاب الذى كان يتصفحه حتى استقر على ركبتيه :
« لست أدرى شيئاً عن ذلك ، وسأفعل إذا تهيأت لى الوسيلة »
وكان يتحدث حديث من فترت همته ، فقد كان متعباً ، ولم يك قد أدى عملاً
منذ الصباح .

« ينجل إلى أنك لن تعجز عن التماس الوسيلة »
وهز رودين رأسه قائلاً : « هذا ما ينجل إليك » ، ثم التفت التفاتة ذات
مغزى ، وكانت ناتاليا تريد أن تقول شيئاً ولكنها أمسكت .
ثم بدأ رودين الحديث مشيراً صوب النافذة : « انظرى ، أترين شجرة التفاح
القائمة هناك ؟ لقد ناءت بثقل ما تحمل من ثمارها ووفرتة ، وإنها رمز للعبقريّة
الحق » .

وأجابت ناتاليا : « بل ناءت بما تحمل لأنه لم يكن لها معين » .
« إنى لأدرك ما ترمين إليه يا ناتاليا الكسيفنا ، ولكن ليس من اليسير على المرء
أن يجد له معيناً » .

« ينجل إلى أن عطف الآخرين . . إن الوحدة على كل حال . . » وتلعثمت
ناتاليا فى حديثها ، واحمر وجهها خجلاً ، ثم أردفت متعجلة : « وما الذى سوف
تفعله فى الريف فى الشتاء ؟ »

« ما الذى سوف أفعله ؟ أتم مقال الطويل ، وإنك لتذكرينه ، فهو يدور

حول الجانب المفجع في الحياة وفي الفن ، وقد أطلعتك على خطته ذلك اليوم ، بل بعثت به إليك .

« أوقد عزمت على نشره ؟ »

« كلا »

« كلا ؟ فمن أجل من إذن بذلت فيه جهدي ؟ »

« فلنقل إنه من أجلك »

وخفضت ناتاليا بصرها وقالت : « إن ذلك يكون تضحية بالغة منك »

وسأله باستوف في حياء وكان يجلس على مائدة منه : « ما موضوع المقال فيما

قلت ؟ »

وكرر رودين قوله : « الجانب المفجع في الحياة وفي الفن ، وسيقرأه أيضا السيد

باستوف ، ولكني لم أستوعب فكرتي الرئيسية بعد ، ذلك أنني لم أستطع حتى الآن

أن أستبين المدلول المفجع للحب »

وكان رودين يتحدث عن الحب حديثا منطلقاً مراراً وتكراراً ، وكانت الآنسة

بونكور تفرع بادئ الأمر عند سماعها لفظ « الحب » وترهف السمع كما يفعل جواد

الحرب العجوز عند سماعه النفي ، ثم ألقت سماعه فأصبحت تكتفي بزم شفتيها

وتتعاطى السعوط في فترات منظمة .

وقالت ناتاليا في تهيب : « يلوح لي أن الجانب المفجع في الحب هو الحب من

طرف واحد »

فأجاب رودين : « كلا البتة ! فإن ذلك هو الجانب المضحك في الحب ،

ويجب أن يوضع السؤال وضعاً يختلف عن هذا الوضع بالمرة . . يجب أن يتعمق

١٠١

المرء أكثر من هذا . . الحب ! » ثم مضى يقول « إنه لسر من أوله إلى آخره . في إقباله ونموه وزواله ، فهو يقبل تارة ثابت الخُطى على حين غرة ، مشرقاً كمطلع الصبح ، ويخبو تارة مدة طويلة ، كالنار تحت الرماد ، ليشعل في الفؤاد حين يبدو أن كل أثر له قد ضاع ، وينساب تارة إلى القلب كالأنفى ، ثم ينسل منه فجأة ، أجل ، أجل إنه لموضوع خطير ، ولكن من ذا الذى يحب في زماننا هذا ؟ ومن ذا الذى يجسر على أن يحب ؟ » .

ثم استغرق رودين فى تأملاته .

وسأل فجأة : « لِمَ لَمْ نر السيد فوليتسف منذ أمد بعيد ؟ » واصطبغت وجنتا ناتاليا بحمرة قانية وطأطأت رأسها منحنية على منسج تطريزها . وأجابت هامسة : « لست أدرى » .

وهتف رودين وقد تهاى للهوض « ياله من رجل عظيم نبيل ! لعله خير مثل للسيد الروسى الحقيقى »

ورمقته الأنسة بونكور من طرف عينيها الفرنسيتين الصغيرتين .

وراح رودين يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً ، ثم دار على عقبه فجأة وقال : « هل لاحظت ذلك فى شجرة البلوط ؟ ثم إن شجرة البلوط شجرة عظيمة لا تسقط أوراقها إلا عندما تبدأ الأوراق الجديدة فى النبت »

وأجابت ناتاليا فى تمهل : « أجل ، لقد لاحظت ذلك »

« وذلك هو عين ما يحدث للحب القديم فى قلب قوى ، فهو وإن كان قد ذوى فعلا لا يفتأ يتلبث حتى يدهمه حب جديد فيقتلعه من جذوره »
ولم تعلق ناتاليا على قوله بشئ .

وساءلت نفسها : « ترى ما الذى يعنيه ؟ »
ووقف رودين لحظة لا ينبس ببنت شفة . ثم ألقى بشعره إلى الوراء . وغادر
العرفه .

ومضت ناتاليا إلى غرفتها ، وجلست طويلا على فراشها حيرى تتأمل فى كلمات
رودين الأخيرة ، ثم شبكت يديها فجأة وأخذت تبكى بكاءً مرًا - أما لماذا
بكت . . فאלله يعلم ! بل إنها هى نفسها لم تستطع أن تعرف سبباً لانهار الدموع
فجأة من عينيها . كانت تكفكف عبراتها مرة بعد مرة ، ولكنها كانت تنهر من
جديد . كالماء يتدفق من عين طال احتباس الماء فيها .

* * *

وتحدثت السيدة لبيينا فى اليوم نفسه مع ليزنيف عن رودين ، ورفض ليزنيف
أن يستجيب لها أول الأمر ، بيد أنها كانت قد نوت أن تحمله على ذلك حملا .
وقالت له : « أرى أنك ما زلت تكره رودين كما كنت تكرهه من قبل ، وقد
امتنعت عن قصد أن أسألك فى ذلك حتى الآن ، على أنه لاشك فى أنك
استيقنت بعد : هل تغير أو لم يتغير ؟ وأنا أريد أن أقف على سبب كراهيتك له »
وتشدد ليزنيف بالقول فى لهجته الباردة : « على رسلك ، مادمت
لا تستطيعين حمل نفسك على الصبر ، ولكن لا تغضبي منى ! »

« لا بأس ، وأرجو أن تبدأ فى الحديث ! »

« دعيني أفل ما أريد . . . »

« حسناً جداً ، ولتبدأ »

وقال ليزنيف وقد شرع يجلس فى تمهل على الأريكة : « وهكذا أجد لزماً

على أن أنبتك بأننى أكره رودين فعلا ، إنه رجل بارع . . . »

« لا مناص لى من القول بذلك ! »

« إنه رجل بارع جداً ، وإن كان فى جوهره سطحى التفكير . »

« ليس هذا إلا مجرد كلام ! »

وعاد ليزنيف يقول : « إنه فى جوهره سطحى التفكير ، ولكن ليس فى هذا ضير كبير ، فكلنا هذا الرجل ، ثم إني لأخذ عليه أنه مستبد فى الصميم ، كسول ، لم ينل قسطاً كافياً من التعليم . . »

فهمت لبيينا : « رودين . . . لم ينل قسطاً كافياً من التعليم ! »

وكرر ليزنيف قوله بالنغمة نفسها : « لم ينل قسطاً كافياً من التعليم ، ذلك أنه يحب التطفل على غيره من الناس ، ويحب أن يكون له شأن ، وما إلى ذلك ، وكل هذا من الأمور الطبيعية ، أما أسوأ ما فى الأمر فهو أنه بارد كالثلج »

« بارد ؟ تلك الروح المتأججة ؟ »

« أجل ، إنه بارد كالثلج ، وهو يعلم هذا ويتظاهر بأنه متأجج العاطفة ، وكانت الحمية قد أخذت تستولى على ليزنيف شيئاً فشيئاً ، فأردف يقول : « وأسوأ ما فى الأمر أنه يلعب لعبة خطيرة ولو أنها فى الحق ليست خطيرة عليه ؛ فهو لا يخاطر بفلس أو بشرة على تلك اللعبة ، فى حين أن غيره يخاطرون فيها بأرواحهم . . »

« عم . . . عن . . . تتحدث ؟ إني لا أفهمك »

« أسوأ ما فى الأمر أنه رجل مخادع ، فقد كان من الحرى برجل بارع مثله أن يعرف قيمة كلماته ، ومع ذلك فإنه ينطق بها كما لو كانت تكلفه حقاً شيئاً ما ، وإني لأسلم بأنه محدث ماهر ، إلا أن فصاحته ليست من نوع الفصاحة التى عرف

بها الروس ، ثم إن الكلمات المنمقة تغتفر إذا صدرت من فتى ، أما بالنسبة لرجل في سنه فإن من العار أن يستمتع المرء برنين صوته هو ويتباهى بذلك ! «
« يخيل إليّ أنه يستوى لدى السامعين أن يكون المتحدث من المتباهين أولاً يكون . »

« عفواً ياسيدتى ، ليس الأمر كما ذكرت ، فقد يحدثنى أحد الناس بكلمة فتأجج منى العاطفة ، وقد يحدثنى آخر بالكلمة نفسها أو بأجمل منها فلا أكاد ألقى بسمعى إليه ، فما السرفى ذلك ؟ »

وأجابت السيدة ليينا : « أنت وحدك الذى لا تلقى بسمعى »
فقال ليزنيف : « أجل ، لا ألقى بسمعى ، ولو أن أذننى فيما يظن كبيرتان بما فيه الكفاية ، وحقيقة الأمر أن ثم كلمات تظل هى هى مجرد كلمات ، ولا يمكن أبداً أن تخرج إلى حيز الأفعال . ومع ذلك فإن هذه الكلمات نفسها قد تفتن قلباً فتياً وتلحق به الدمار »

« ولكن عمن تتحدث ؟ عمن ؟ »
« والتزم ليزنيف الصمت لحظة ثم قال : تريدن أن تعرفى عمن أتحدث ؟ أتحدث عن ناتاليا . »

« وتملك الدهول السيدة ليينا لحظة ، ثم ابتسمت ، وأنشأت تقول « يا إلهى ، ما أعجب ما يساورك دائماً من أفكار ؛ إن ناتاليا ليست إلا طفلة أو هى أكبر فيلاً ، ثم إنه لو فرض أن كان كلامك صحيحاً فكيف يذهبن بك الظن إلى أن أمها . . . »

« إن أمها امرأة تغلب عليها « الأنانية » ولا هم لها إلا نفسها ، ثم إنها مؤمنة

١٠٥

كل الإيمان بقدرتها على تنشئة الأطفال ، فلا يساورها أبداً أى قلق من ناحيتهم . . . ياللعار ! ويالها من فكرة ! وحسبها أن تنطق بكلمة أو تلقى بنظرة مهيبة حتى يستوى كل شيء فى مجراه الصحيح . وذلك هو ما تظنه هذه السيدة التى تتوهم أنها نصيرة المواهب ، وأنها أوتيت الحكمة وما إلى ذلك مما لا يعلمه إلا الله ، مع أنها فى حقيقة الأمر لا تعدو أن تكون أرملة عجوزاً حمقاء ؛ إن ناتاليا لم تعد طفلة ، وصدقينى أنها تفكر أكثر منى ومنك ، بل أعمق منى ومنك ، وإن من العار أن يلقي بفتاة فى مثل استقامتها ورقة عواطفها وحميتها فى أحضان ممثل ، بل فى أحضان عيهور ؛ على أن هذا أيضاً لا ينافى طبيعة الأشياء .

« عيهور ؛ أقول : إنه عيهور ؟ »

« أجل . وإلا فخبرنى ياسيدنى ماذا يكون وصفه فى بيت السيدة لاسونسكايا ؟ أويليق برجل أن يكون معبوداً فى بيت وصاحب الوحى فيه . يتدخل فى شئونه وفى مهاترات الأسرة ومنازعاتها ؟ »

ونظرت إليه السيدة ليبينا فى ذهول ثم قالت : « إنى لا أطمئن لك ياميخائيل ميخائيلوفتش ، فقد احمر وجهك وثارت أعصابك ، ولا شك أن وراء كل هذا شيئاً آخر . . . »

« هذا ما توقعته ؛ فإنك إذا حاولت أن تحدثنى امرأة عن وعى وإدراك بما استقر فى نفسك من يقين فإنها لا تهادأ إلا إذا انتحلت سبباً وحجة لامتت للموضوع بصلة تتدرج بهما لسؤالك : لِمَ صورت الأمر على هذا الوجه ولم تصوريه على الوجه الآخر ؟ »

وأثار ذلك غضب السيدة ليبينا فقالت : « مرحى ياسيد ليزنيف ؛ إنك الآن

في سبيك إلى أن تكون عدواً لدوداً للمرأة مثل السيد بييجاسوف ، فعلى رسلك ، ولكنني على الرغم من كل ما عرفت به من حدة الذكاء فأجد من العسير أن أصدق أنك قد توصلت إلى معرفة كل إنسان وكل شيء في مثل هذا الوقت القصير ، إن من يستمع إليك يظن أن رودين رجل من طراز طرطوف . . . »
 « العجيب في الأمر أنه لم يبلغ مبلغ طرطوف نفسه ، فقد كان طرطوف على الأقل يعرف ما يسعى إليه ، أما هذا الرجل فعلى الرغم من كل ما اتصف به من ذكاء . . . »

« ماذا تريد أن تقول عنه ؟ أفصح أيها الرجل الظالم البشع ! »
 وانتصب ليزنيف واقفاً ، وأنشأ يقول : « على رسلك يا سيدتي إنما أنت الظالمة لا أنا ، لقد ساءك مني حكمي القاسي على رودين ، ومن حق أن أقسو في الكلام عنه ، وربما أكون قد دفعت ثمناً غالياً في سبيل هذا الحق ، وإنما أنا أعرفه حق المعرفة وحسبي ما عشت معه من زمن . وإنك لتذكرين أنني وعدتك أن أقص عليك في يوم من الأيام قصة حياتنا في موسكو ، ويخيل إلى أن ذلك ما لا بد أن أفعله الآن ، فهل تصبرين على سماع قصتي ؟ »

« تكلم ، تكلم ، »

« ليكن ماتريدين »

وأخذ ليزنيف يذرع الغرفة متمهلاً راحة وجيئة ، ويقف في الحين بعد الحين ويخني رأسه ، ثم شرع يقول :

« لعلك تعلمين أنني فقدت والدي في مطلع حياتي ، ولم يكن لي من الإخوة من يكبرني منذ بلغت السابعة عشرة من عمري ، وأهت في منزل عمي بموسكو .

١٠٧

أفعل ما يحلو لي . لقد كنت شاباً في من سطحية التفكير والغرور الشيء الكثير . أحب التظاهر والمباهاة ، والتحققت بالجامعة وسلكت مسلك الطالب ، وسرعان ما وقعت في مأزق ، ولن أخبرك عن كنه هذا المأزق فإنه غير جدير بأن يروى . لقد كذبت ، وكانت كذبة فاحشة ، وانكشف أمرى ، وثبت جرمى ، وعنت علناً ، فذهلت وبكيت كما يبكي الطفل ؛ حدث هذا في غرفة صديق وبخصور كثيرين من زملائي الطلبة ، فشرعوا جميعاً يضحكون منى ، يضحكون جميعاً اللهم إلا طالباً واحداً ، كان هو ، على ما أحب أن أوجه إليه نظرك ، أشد الطلبة استهجاناً لمسلكى عندما أمعنت في كذبتى ، ولا شك أنه رثى لحالى ، ومهما يكن من شيء فقد أخذنى من ذراعى وقادنى إلى غرفته »

وسألته السيدة لبيينا : « هل كان هذا الطالب هو رودين ؟ »

« كلا لم يكن رودين ، بل كان رجلاً ينذر أن يجد المرء مثله بين الرجال . وهو الآن فى عداد الأموات ، وكان اسمه بوكورسكى . ولا أستطيع أن أصفه فى بضعة كلمات . ولو أننى شرعت أتحدث عنه قلن يطاوحنى قلبي على الحديث عن سواه . كان صافى القلب سامى النفس يمتاز بذكاء لم أصادفه فى أحد قط . وكان يقيم فى غرفة صغيرة منخفضة السقف فى قبة منزل من المنازل الخشبية ، وكان فقيراً معدماً يتحایل على العيش بإعطاء الدروس ، وكانت تمر به أوقات لا يستطيع فيها أن يقدم قدحاً من الشاي لزائريه ، أما الأريكة الوحيدة التى كانت عنده فقد تهاوت من الوسط حتى بدت فى هيئة القارب . ومع ذلك كان يزوره الكثيرون على الرغم من كل هذه المنغصات ، ونجبه الجميع . فقد كان يجذب إليه قلوب الناس كافة . وهيات أن تتصورى مقدار ما ينعم به الجالس فى غرفته الصغيرة فى لطف وأنس

يغمر قلبه بالدفع ، وهناك لقيت رودين ، وكان قد افترق لتوه عن أميره الصغير .
وسألته السيدة لبينا « وما الذى كان يمتاز به بوكورسكى هذا عن سائر
الناس ؟ »

« ليس من اليسير أن أصف لك ذلك فى كلمات ، إن طبيعته الشاعرية الصادقة
هى التى كانت تجذبنا جميعاً إليه ؛ لقد كان ظريفاً أنيساً مسلياً كالطفل على الرغم
من صفاء عقله وسعة مداركه ، وما زال يتردد فى أذنى رنين ضحكته الدالة على
الطفولة ، ولكنه كان فى الوقت نفسه ، يشعل صورة مصباح فى محراب الله ، على
حد قول شاعر حبيب من زمرتنا كانت به جنة » .

وعادت السيدة لبينا تسأله : « وكيف كان حديثه ؟ »

« كان جيد الحديث إذا تهيأت له نفسه ، لكنه لم يكن فى ذلك من المحدثين
الذين لا يشق لهم غبار ، حتى لقد كان رودين آتئذ أفصح منه بمراحل » .
وتوقف ليضيف عن الحديث وشبك ذراعيه على صدره ثم قال : « لم يكن
بوكورسكى ورودين يتفقان إلا فى القليل ، فقد كان رودين أقوى بادرة وأشد
اندفاعاً وعبارته أكثر رنيناً ، بل لعله كان أكثر حماسة وغيره ، والظاهر أنه كان
أعظم موهبة من بوكورسكى بكثير ، إلا أنه كان فى حقيقة الأمر يبدو ضئيلاً هزيلاً
إذا ما قورن ببوكورسكى ، وكان رودين بارعاً فى بسط فكرة من الأفكار ؛ فقد
كان أستاذاً فى فن الجدل ، على أن الأفكار لم تكن وليدة عقله هو ، بل كان يتحلل
أفكار الآخرين وخاصة أفكار بوكورسكى ؛ وإنك إذا نظرت إلى بوكورسكى
وجدته هادئاً ودبياً بل ضعيفاً ، إلا أنه كان مفتوناً بالنساء يحب المرح ويستطيع أن
يثبت لأى إنسان ، أما رودين فكان فيما يظهر ممثلاً بالحمية والبسالة والحيوية ؛

ولكنه كان في قرارة نفسه بارد العاطفة يكاد يكون رعيدياً حتى تخدش كبريائه فتثور حميته كلها . وقد بذل رُودين غاية ما في وسعه لكي بأسر قلوب الناس . على أنه كان يتوصل إلى ذلك بالمبادئ والأفكار العامة . وكان له - حقاً - نفوذ عظيم على الكثيرين . ومع ذلك لم يكن يجبه أحد ، ولعلني كنت الشخص الوحيد الوثيق الصلة به . ذلك أن الناس كانوا يقاسون من نيّره واستبداده ، أما بوكورسكى فقد كان الجميع يذعنون له طائعين مختارين ، ويجدر بي أن أذكر عن رودين أنه ما كان ليرفض قط أن يتحدث مع أى إنسان أو يناقشه ، ولم يكن واسع الاطلاع ، ولكن بما لا شك فيه أنه كان قد قرأ أكثر من بوكورسكى ومنا جميعاً بكثير . ثم إن عقله كان مرتباً وذاكرته عارمة . وهذا هو الشيء الذى يؤثر في الشباب بالذات . فهم يتصايحون في طلب الاستنتاجات والنتائج . النتائج بأى ثمن . ولو كانت زيفاً وبهتاناً ! والإنسان ذو الضمير الحى الذى لا يتلون ولا يتقلب لا يفعل ذلك . وحسب المرء أن ينبئ هؤلاء الشباب بأنه عاجز عن أن يقول لهم الحق كاملاً . لأنه هو نفسه لا يعرفه حتى يصموا آذانهم عنه ولا يعودوا يستمعون إليه . وكذلك لا يستطيع المرء أن يجدهم ، لأنه إذا شاء أن يفعل اقتضاه ذلك أن يكون على شيء من الإيمان بأنه يعرف هذا الحق . وهذا بعينه هو السبب الذى جعل لرودين مثل هذا السلطان العظيم علينا . ذلك أنه لم يكن على ما بينت لك وشيكاً ، عظيم الحظ من القراءة ، ولكنه قرأ كتباً فلسفية ، وقد تهيأ عقله لها إلى حد أنه كان يدرك مغزى أى شيء يقرؤه وينفذ من فوره إلى أعماق الموضوع ويفصل من كل ناحية ما يصل إليه من نتائج نيرة بارعة كاشفاً عن آفاق عقلية جديدة . والحق أن زمرتنا كانت في ذلك الوقت من الشباب الغريين ، أو قل من أنصاف المتعلمين من

الشباب . وكانت الفلسفة والفن والتعلم بل الحياة نفسها في نظرنا ليست في واقع الأمر إلا عدداً من الكلمات . أو لعلها كانت نظرات جذابة جميلة . ولكنها مبعثرة لا رابط لها ، ولم تكن ندرك أو نخس الصلة التي تربط هذه النظرات بعضها ببعض أو التاموس الأكبر الذي يسير عليه الكون . ولو أننا كنا نناقشها مناقشة مبهمة ونحاول جاهدين أن نفهمها ، وكنا إذا أصغينا إلى رودين خيل إلينا أننا قد اهتدبنا آخر الأمر إلى تلك الصلة التي كانت تراوغنا . وأن النقاب قد رفع عنها . ولعل رودين لم يكن في ذلك مبتكراً . ولكن ماذا يهمننا من هذا الأمر ؟ إنما يهمننا أن كل شيء قد ردّ إلى وضعه الطبيعي وارتبطت فجأة حلقات ما كان مبعثراً . ونهض أماننا كأنه الصرح ، وغمر الضوء كل شيء . وشاع الحق في أوصاله ولم يبق شيء بلا حس . ولم يبق شيء عارض . وساد كل شيء تدبير وجمال يتمشيان مع العقل . واتخذ كل شيء معنى واضحاً وخفياً في آن واحد . وارتبطت كل ظاهرة من ظواهر الحياة بغيرها في نهج واحد . وغشى نفوسنا لون من ألوان الحشية التي يصاب بها أهل التقى ، ومست قلوبنا هزة حلوة إذ أحسسنا بأننا أصبحنا شرايين حية للحقيقة السرمدية أو سيلا إلى غاية أكبر . . وبعد أفلا يبدو لك كل هذا سخيلاً ؟ »

فأجابت السيدة لبينا في ببطء وتمهل : « كلا ألبتة ، ولم يبدو لي كذلك ؟ إنني لا أفهم كل ما تقول ، ولكنني لا أظنه سخيلاً »
ومضى ليزنيف يقول : « لاشك في أننا ازدادنا حكمة منذ ذلك الحين . وقد يبدو لنا ذلك كله مضحكاً الآن ، ولكنني أعود فأقول : إننا كنا مدينين بالكثير لرودين في تلك الأيام ، وكان بوكورسكي بلا أدنى ريب أنبل نفساً . يث فينا

الحمية والقوة ، على أنه كانت تمر به أوقات تفرّ فيها همته ويلتزم الصمت . فقد كان سريع التأثير معتل الصحة . إلا أنه كان إذا نشر جناحيه فאלله يعلم مدى ما يبلغ في تحليقه ! لقد كان يضرب في كبد السماء ! أما رودين . ذلك الفتى الوسيم الرشيق ، فقد كان مليئاً بالصغار . بل كان قد أمعن في الثروة وأولع بالتدخل في كل صغيرة أو كبيرة وتعريف كل شيء وشرح كل شيء . والظاهر أنه لم يكن ثم حد لفضوله . فقد كان سياسياً بطبعه ! إني لأتحدث عنه كما عرفته وقتئذ . ولكنه لم يتغير مع الأسف . ثم إن مثله لا يتغير أبداً . ويصدق هذا عليه وهو في سن الخامسة والثلاثين ؛ وقل من الناس من يستطيع أن يقول عن نفسه قدر ما قلت « وقالت السيدة ليينا « اجلس ، فإنك تصيبي بالدوار بغدوك ورواحك » . وأجاب ليزنيف متلعثماً : « ذاك ديدنى ، ثم إني بعد أن تهيأت لى فرصة الدخول فى زمرة بوكورسكى ، كنت كالرجل يولد من جديد ، ولا أخفى عليك . أننى أصبحت متواضعاً ، محباً للاستطلاع ، مقبلاً على التحصيل . تملكنى نشوة ويعلوفى وقار حتى كأننى وهبت نفسى لخدمة الله ، والحق أننى عندما أفكر فى اجتماعاتنا . لا أجد مناصاً من الاعتراف بأنه كان فيها خير كثير ، بل كان فيها ما يبرز القلوب ؛ فلتتخلى اجتماعاً يعقده خمسة أو ستة من الشبان حول شمعة واحدة . ويشربون الشاى الكريه بالكعك اليابس . ألا ليتك شهدت تلك الوجوه جميعاً وسمعت الأحاديث التى كنا نتبادلها ؛ لقد كانت العيون تلمع بنار الحماسة . والحدود تتوهج والقلوب تنبض ونحن نتحدث عن الله ، وعن الحقيقة وعن مستقبل الإنسان ، وعن الشعر ، وماذا علينا لو تحدثنا أحياناً حديثاً باطلا فاستبدت بنا النشوة بلا مسوغ ولا داع ؟ كان بوكورسكى يجلس وقد وضع ساقاً على

ساق ، وأسند خده الشاحب إلى يده وتألقت عيناه ؛ وكان رودين يقف في وسط الغرفة ويتحدث ، يتحدث ببراعة فيبدو في أعين الجميع كأنه ديموستين في شبابه وقد وقف يخاطب البحر العجاج ، وكان سبوتين الشاعر الأشعث يهتف فجأة من حين إلى حين ، كما يهتف المرء وهو مستغرق في نومه ، وكان شيلر الطالب ابن القس الألماني ، شيلر الطالب الجامعي الذي يبلغ من العمر أربعين سنة قد اشتهر بالفكر العميق لإخلاقه الدائم للسكوت ، لا يفتح شفتيه ، ولا يخرج من فيه كلمة إلا بوقار عظيم يزداد باطراد ، أما سيتوف المرح ، أو قل أرسطوفان مجتمعاتنا ، فقد كان خفيض الجناح باسم الثغر ، وكان ثم تلميذان أو ثلاثة من حديثي العهد ينصتون مفتونين وقد خلبت الأحاديث ليهن ؛ وكان الليل يمر هادئاً رقيقاً كأنه يطير طيراناً . ثم يبرز الفجر فنفترق مهتاجي العاطفة سعداء محافظين على استقامتنا (ذلك أننا لم نكن نفكر في الخمر وقتئذ) يغشانا شيء من الكلال الرضى الهنيء وإني لأستطيع أن أتمثل نفسي سائراً خلال الطرقات وقد خلت من المارة أرقب النجوم بشعور من الثقة جديد كأنما هي قد زادت قريباً وأصبحت أدنى إلى الفهم . . . آه ؛ لقد كانت أياماً عجيبة ، وإني لا أومن أبداً بأنها ذهبت هباءً ! كلا إنها لم تذهب هباءً حتى بالنسبة لأولئك الذين أذلهم الحياة من بعد وكم من مرة قابلت مصادفة أولئك الرجال ، زملائي القدماء ! وقد يبدو لك أن أحدهم انخط فغداً وحشاً من الوحوش ، فإذا ذكر اسم بوكوروسكى في حضرته استيقظ في نفسه كل ما بقي فيها من عواطف نبيلة كأنك رفعت السدادة عن قنينة منسية من العطر في غرفة قدرة مظلمة .

وسكت ليزنيف ، وقد احمر وجهه « الباهت » .

١١٣

وسألته السيدة لبينا وهي تمحلق فيه مدهوشة : « ولكن لماذا ؟ بل متى تشاجرت أنت ورودين ؟ » .

« إننى لم أتشاجر معه . بل قطعت علاقتى به عندما استبانتم لى فى الخارج حقيقة أمره ، ولو أنه حدث قبل هذا فى موسكو أن تهايت لى الأسباب لمخاصمته ، ذلك أنه كان قد خدعنى خدعة دينية » .

« وما هى ؟ »

« هى هذه ، كنت ماذا عسائ أن أقول ، إننى لم أخلق للحب ولكننى كنت دائماً سريع التأثر به »

« أنت ؟ »

« أجل ، أليس هذا غريباً ؟ ولكن هذا هو ما حدث ، لقد وقعت فى حب فتاة لطيفة جداً . . . ما بالك تنظرين إلى هكذا ؟ إني لمستطيع أن أحدثك عن نفسى بشيء أكثر إثارة لعجبك من ذلك »

« أو أستطيع أن أسألك ما هو ؟ »

« إليك هذا النبأ مثلاً : لقد دأبت فى تلك الأيام التى قضيتها فى موسكو أن ألقى . . . من فيم تظنين ؟ . . . شجرة زيزفون صغيرة فى أسفل حديقتى كنت أحتضن جذعها النحيل الرشيق ، فيخيل إلى أننى أحتضن الطبيعة بأسرها . وكان قلبى يمتلئ ويزفر كأن الطبيعة تنسكب فيه حقاً ، كنت ذلك الرجل ، ولم يكن هذا كل ما فى الأمر ! ولعلك تظنين أننى ما كنت أقرض الشعر ؟ ولكن رويدك ، لقد نظمتة ، بل كتبت مأساة أقلد بها « ما نوريد » ، وكان من أشخاصها طيف تلطيخ صدره بالدم ، ولا تحسبى أن هذا الدم كان دمه بل كان دم البشرية . . .

أجل لا تعجبى . . . على أننى كنت قد بدأت أروى لك قصة حبيبى ، لقد تعرفت
بفتاة . . .

« ونسيت مواعيدك مع شجرة الزيزفون ؟ »

« نعم ، كانت الفتاة غاية فى طيبة القلب واللطف ، تتلأأ عيناها وتتألق ،
وينساب صوتها كرنين الفضة » .

وقالت السيدة لبيينا وقد افترثغرها عن ابتسامة تم عن الدعابة : « إنك لبارع
فى الوصف »

فأجابها ليزنيف : « وإنك لناقذة غاية فى القسوة . ثم إن الفتاة كانت تقيم مع
أيها ، وكان رجلاً مسناً ، ولكننى لن أدخل فى التفاصيل ، وحسبى أن أقول
لك : إنها كانت حقاً طيبة القلب جداً ، كانت تصب لك من الشاى ما يبلغ ثلاثة
أرباع القدح إذا طلبت النصف فقط ! وفى اليوم الثالث للقاءى لها أول مرة
أحسست بنار الحب تشتعل فى جسمى كله ، وفى اليوم السابع لم أقدر على إخفاء
حالى فبحث بما فى قلبى لرودين ، وهيهات أن يكتم شاب حبه بين ضلوعه ! . .
قد كنت دائماً أفضى بأسرارى إلى رودين . وكنت فى ذلك الحين تحت تأثيره
اماً ، وأنا لا أنكر أن هذا كان مفيداً لى من عدة وجوه ؛ ذلك أنه كان أول
خص عاملنى معاملة لا تنطوى على الاحتقار والازدراء ، بل حاول أن يجعل منى
حلاً . لقد كنت أعظم بوكورسكى وتغشائى رهبة من طهارة نفسه ، على حين
ن التجاوب بينى وبين رودين أقوى وأشد . وعلم رودين بأمر حى فقابل ذلك منى
سة تفوق الوصف ؛ ذلك أنه هنأنى . وضمنى إلى صدره . ولم يلبث أن بادر
شادى وتبصيرى . وبث فى أن أقدر الأهمية الكاملة لموقفى الجديد . وكنت

أستمع بأذن مرهفة واعية ؛ وهل يخفى عنك مقدار براعته في الحديث ؟ كان لكلماته وقع عجيب في نفسي . فقد ارتفع قدرى في عيني . واتخذت سمة الجد . وأمسكت عن الضحك . وإني لأذكر أنه قد بلغ من أمرى أنني ازددت حرصاً في مشيتي . فكنت أسير مترقياً كأننى أحمل في طيات نفسي آنية مملوءة بسائل نفيس أخشى عليه أن ينسكب . كنت سعيداً كل السعادة منذ علمت أنني نلت رضاها . وأراد رودين أن يلقي حبيتي ، وإني لأظن أنني ألححت في أن أقدم بنفسى كلا منها إلى الآخر»

وقاطعته السيدة لبيينا قائلة : « آه ! لقد فهمت ! فهمت كل شيء الآن ؛ إن رودين قد سرق منك حبيتك . وأنت لا تستطيع أن تصفح عنه حتى الآن إننى لمستعدة بأن أراهن بأننى على صواب »

« لو أنك راهنت لحسرت رهانك . فأنت مخطئة . إن رودين لم يسرق حبيتي . ولم يكن في نيته أن يفعل هذا . على أنه بالرغم من ذلك وضع حداً للنعم الذى كنت فيه . ولو أننى مستعد الآن أن أشكره بعد أن ثبت إلى رشدى . أما فى ذلك الوقت فقد كدت أجن ؛ إن رودين لم يكن يميل قط إلى إلحاق الأذى بى . بل إن الأمر على التقبض من ذلك تماماً ؛ ولكنه انقاد لتلك العادة الملعونة التى درج عليها . ألا وهى تقويض كل ما فى الحياة من بواعث . سواء أكانت حياته هو أم حياة غيره من الناس . شأنه فى ذلك شأن من يقضى على الفراشة بشيبتها بدبوس . فراح يكشف لنا عن خبيثة نفوسنا . ويشرح لنا علاقاتنا بالناس . وما الذى ينبغى أن يكون عليه مسلكنا . وأوصانا وصية من يفرض رأيه فرضاً بأن نحلل أفكارنا ومشاعرنا . ووفقو يمتدحنا ويتقدنا . بل شرع يرسلنا تصورى

هذا ! لقد بلبل أفكارنا بلبله كاملة ! ولم يكن في الحسبان أن أتزوج حبيبتى (فقد بقى لى شىء من العقل يحول بينى وبين ذلك) على أننا على أية حال كنا خليقين بأن نقضى معاً بضعة أشهر مجيدة على نحو ما فعل « بول وفرجينى » إلا أننا بدلا من ذلك وجدنا أنفسنا نعانى من الحيرة والتوتر أشكالا وألواناً ، ويا للمأزق الحرج الذى وقعنا فيه ! وقصارى الأمر أن رودين أقنع نفسه فى صباح يوم مشرق بأن واجب الصداقة المقدس يقتضيه بأن يزف النبا إلى أبيها ، وقد فعل .

وصاحت السيدة ليينا : « حقا ؟ »

« أجل ، ولتعلمى أنه فعل هذا بموافقى ، وكان ذلك أعجب شىء فى الموضوع . وإنى لأذكر مقدار ما أصاب عقلى من اضطراب ؛ لقد كانت الدنيا من حولى تدور وتتغير كما يحدث فى آلة التصوير المظلمة ، وبدا لى الأبيض أسود ، والأسود أبيض ، والباطل حقاً ، والوهم واجباً ، آه ! إن ذكرى ذلك تحز فى نفسى حتى الآن ! أما رودين فلم يأبه لذلك ، وهيهات أن يأبه لشىء ! فقد كان ينفلت من شباك سوء التفاهم كأنه عصفور الجنة يمرق من فوق غدير .

وسألته السيدة ليينا فى دلال ، وهى تميل برأسها الصغير جانباً وترفع حاجبيها :

« وهكذا افترقت عن حبيبتك ؟ »

« أجل افترقنا . . . وكان فراقاً مؤلماً ثقيلاً كريهاً ، سافراً ، بل مفضوحاً فى غير مقتضى ، وبكيت وبكت هى أيضاً والشيطان يعلم ماذا قال كلُّ منا للآخر ، لقد كان الأمر أشبه بقطع أنشودة معقدة ، مؤلماً ، ولكن لا حيلة فيما لا حيلة فيه ، على أن كل شىء فى العالم ينتهى إلى الخير . فقد تزوجت رجلاً جديراً بها ، وهى الآن سعيدة . »

وشرعت السيدة لبيينا تقول : « ومع ذلك تسلم بأنك لم تستطع الصفح عن رودين . . . » .

فقاطعها ليزنيف قائلاً : « وى ، لا ! ، لقد بلغ بي الأمر أن بكيت كالطفل عندما ودعته في رحيله إلى الخارج . والحق أن البذور قد رسبت في قلبي . فلما لقيته من بعد في الخارج . . . أجل لما لقيته كانت السن قد تقدمت بي . . . ورأيت رودين في صورته الحقيقية . »

« وما الذى اكتشفته فيه ؟ »

« ذلك الذى قلته لك منذ ساعة بلا زيادة ولا نقصان ، ولكن كفانا حديث عن رودين ، ولعل كل شيء ينتهى إلى الخير ، وغاية ما فى الأمر أنى أردت أن أبين لك أننى إذا قسوت فى الحكم عليه فلا يرجع ذلك إلى أننى لا أعرفه . أما ناتاليا فلن أزيد على ما قلته حرفاً ، ولكن يجب أن تعنى بأمر أخيك . »

« أخى ! لماذا ؟ »

« انظرى إليه جيداً ، ألم تلاحظى عليه شيئاً ؟ »

« وأرنحت السيدة لبيينا بصورها وغمغمت : « إنك لعلى حق . . . أجل . . . أخى . . . إنه قد تغير منذ حين . . . ولكن أتعنى حقاً . . . ؟ »

فقال ليزنيف هامساً : « صه ، أظن أنه قادم ، وصدقينى إذا قلت لك : إن ناتاليا ليست طفلة ، وإن كانت مع الأسف كالطفلة فى قلة خبرتها ونقص تجاربها ، واذكرى كلمائى ، فإن هذه الفتاة سوف تدهشنا جميعاً فى يوم من الأيام . »

« وكيف ؟ »

« ألا تعلمين أن الفتيات من أمثالها هن اللاتي يهلكن أنفسهن غرقاً ويتجرعن

السم وما إلى ذلك ؟ فلا تغترى بنظراتها الهادئة فإن من شيمتها شدة الانفعال وتأجج العاطفة »

« إيه ، هات ما عندك ! فإنك فيما يبدو لى ترق وتمضى فى الخيال ، وإنى لا أستبعد أن أبدو فى نظر شخص بارد مثلك كالبركان »
فقال ليزنيف وهو يبتسم : « أف ، أف ، أما عن الخلق فأحمد الله على أنك لا تتحلين منه بما يستحق الذكر ! » .
« أتحاول أن تكون وقحاً ؟ » .

« كلا والله ! فإن هذا لأعظم آيات المديح » .

ودخل فوليتسيف الغرفة ورمى أخته هى وليزنيف بنظرة يشوبها الشك . وكان قد ازداد غولاً فى الأيام الأخيرة ووجه كلاهما إليه الحديث فى آن واحد ، ولكنه لم يكذب يتسم لحديثها ، وبدأ على ما وصفه بيجاسوف مرة ، كالأرنب البرى الحزين ، ومع ذلك فقل أن تجد فى العالم رجلاً لا يبدو فى أتعس حالاته مرة واحدة على الأقل فى حياته ؛ لقد كان فوليتسيف يشعر بأن ناتاليا تفلت من يده . وكان فى صحبتها يبدو كأن الأرض تميد من تحت قدميه .

الفضل السابع

كان اليوم التالى يوم أحد . وقد نهضت ناتاليا من نومها متأخرة ، وكانت قد صعدت عن الكلام صدوداً فى اليوم الذى قبله ، وخجلت فى دخيلة نفسها من دموعها ، ونامت نوماً مضطرباً . وجلست ناتاليا إلى بيانها الصغير ولم يكن عليها من الثياب إلا قليل ، وعزفت بعض الأنغام فى صوت لا يكاد يسمع خشية أن توقظ الأنسة بونكور ، ثم أسندت جبهتها إلى مفاتيح البيان الباردة وظلت ساكنة وقتاً طويلاً . وراحت تفكر وتنعم التفكير لا فى رودين نفسه ، بل فيما صدر عنه من أقوال ، وكانت صورة فوليتسيف تمر بمخيلتها لماماً . كانت تعلم أنه يخبى ، ولكنها كانت تقصى صورته فى الحال . . . لقد كانت واقعة فى قبضة نوع عجيب من ثورة المشاعر .

وانقضى الشطر الأكبر من الصباح ، فارتدت ملابسها على عجل ، وهبطت الدرج ثم حيت أمها وخرجت إلى الحديقة وحدها بأسرع ما تستطيع .
وكان اليوم حاراً مشرقاً مشمساً بالرغم مما غشيه من مطر بين الفينة والفينة .

وكانت بعض السحب المسفة الغائمة تنساب سريعة عابرة السماء الصافية دون أن تحجب الشمس ، ويفيض منها على الحقول أحياناً شُبوب من المطرينهم فجأة ثم لا يلبث أن يكف ؛ وكانت قطرات المطر الكبيرة المتألقة تساقط في صوت حاد كأنها قطع من الماس ؛ وكانت الشمس تتألق من خلال غاشية المطر المنهمر ، وقد سكن العشب ، ولم يعد يتمايل بفعل الرياح . وراح يروى غلته من الماء ، وكانت أوراق الشجر التي غسلها المطر تهتز في وهن وفنور ، والطيور تغرد وتغرد بلا توقف ولا انقطاع ، ولم يكن ثم أمتع للنفس من أن تنصت إلى سقسقتها الصادرة من قلب خلى تطنى على ذلك الشُبوب العابر وخريره ، وتصاعد الغبار من الطرق المتربة واختلطت بفعل ضربات المطر المتدارك النازلة عليها ثم تنقشع السحابة وتحقق الرياح ويتألق العشب بلون من الزمرد والذهب ، وتتعانق أوراق الشجر ويشرق الضوء من خلال الغصون ، ويشيع في الجو شذا قوى . . .

ودخلت ناتاليا الحديقة وقد صفت السماء أوكادت ، وكانت الحديقة تشف عن النضارة والاطمئنان ، ذلك الاطمئنان الهنيء السعيد الذى يستجيب له قلب الإنسان فى استرخاء للذي ينبعث من العاطفة المكنونة والرغبة المبهمة . وسارت ناتاليا على طول حافة البركة مجتازة طريقاً طويلاً من الحور الفضى ، وعلى حين بغتة وقف أمامها رودين وكأن الأرض قد انشقت عنه .

وتملكها الدهشة ، ونظر هو فى وجهها .

وسألها : « هل أنت وحدك ؟ »

فأجابت ناتاليا : « أجل ، أنا وحدى . . . وإنما خرجت لأستنشق الهواء برهة ، وينبغى لى أن أعود الآن » .

« سأصحبك »

وعدل من خطوته بحيث تمشي خطوتها ، وساو إلى جوارها .

غمغم : « إنك لتبدين حزينة » .

« حقاً ؟ لقد كنت أوشك أن أقول بأنك تبدو فاطر الهمة »

« ربما كان هذا هو حالى . . . وكثيراً ما تتأبى هذه الحالة وعذرى فى ذلك

أوجه من عذرك »

« لماذا ؟ أتظن أنه لا يكون عندى أبداً ما يحزننى ؟ » .

« إن من هن فى مثل سنك حريات بأن ينعمن بالحياة » .

وسارت ناتاليا بضع خطوات فى صمت ثم قالت : « ديمترى نيقولا يفتش ! »

« نعم ؟ »

« أتذكر المقارنة التى عقدتها بالأمس تلك المقارنة الخاصة

بشجرة البلوط ؟ »

« أجل ، أذكرها حقاً ، وما شأنها ؟ »

واختلست ناتاليا النظر إليه وقالت : « لماذا بل ما الذى عنيت به بذلك ؟ »

وحنى روبردين رأسه وحملق فى الفضاء

وشرع يقول فى لهجته العجيبة المتحفظة الحافلة بالمعانى التى كانت تحمل السامع

على الظن بأنه لم يكن يزيح عن صدره إلا عشر معشار ما كان يشغل عليه :

« ناتاليا ، لعلك لاحظت أننى قلما أتحدث عن ماضى ، فإن ثم شئونها لا أمسها

أبداً ، وقلبي - ولكن من ذا الذى يجب أن يعرف ما عاناه ؟ لقد كان يحيل إلى دائماً

أن الكشف عن خباياه أمام الناس جميعاً فيه انتهاك لحرمة ، ولكننى أستطيع أن

أكون صرخاً معك . . . فإنك توحين إلى بالثقة . وأنا لا أستطيع أن أخفي عنك أنني أيضاً قد أحببت وشقيت كسائر الناس . أما متى كان هذا ؟ وكيف ؟ فإن ذلك لا يعنى أحداً ! إلا أن قلبي قد عرف الفرح كثيراً وكابد الحزن كثيراً »

والترزم رودين الصمت لحظة ثم مضى في حديثه : « إن ما قلته بالأمرس يمكن أن ينطبق علىّ إلى حد ما ، أى على موقعي الحالي ، ولكن هذا أيضاً لا يهم ، فإن ذلك الجانب من الحياة لم يعد له وجود بالنسبة إلى ، وكل ما بقى لى هو أن أضرب في طريق مغبر لفتحته الشمس ، من مرحلة إلى مرحلة في عربة خضخضاءة ، ولكن متى أستقر في مكان ؟ وهل لى أن أستقر في مكان ؟ الله وحده يعلم ! ولخير لنا أن نتحدث عنك » .

وقاطعته ناتاليا قائلة : « أيمكن يا ديمتري نيقولايفتش أن يكون السبب أنك لا تنتظر شيئاً من الحياة ؟ »

« آه ، كلا ! إننى أنتظر الكثير ، ولكنى لا أنتظره لنفسى ، ولن أنخلّى عن نشاطى وما يجلبه من سعادة ، على أننى نبذت أسباب اللهو والمتعة . إن آمالى وأحلامى لا تمت إلى سعادتى بأى سبب ، أما الحب . . . » وهز كتفيه عندما نطق بهذا اللفظ ، « . . . فلم يخلق لى ، إني غير جدير به ، ذلك أن المرأة التى تحب من حقها أن تقتضى من الرجل نفسه كلها ، وأنا لا أستطيع بعد أن أهب نفسى كلها ، ثم إن الجاذبية من شيم الشباب ، وقد تجاوزت سن الشباب بكثير ، فكيف أدير رأس أية امرأة ؟ إني لأبهل إلى الله أن يحفظ رأسى قائماً على كفى » .

وغمغمت ناتاليا : « لقد فهمت ما ترمى إليه ، إن الذى يسعى إلى غاية جلية يجب أن ينقطع عن التفكير فى نفسه ، ولكن أليست المرأة بمستطاعة أن تقدر مثل

١٢٣

هذا الرجل ؟ إني لأظن أن احتقارها للشخص « الأناني » أقرب إلى طبيعتها . فإن أولئك الشباب جميعاً ، الشباب الذين تحدثت عنهم ، « أنانيون » ، قد شغلوا بأمر أنفسهم ولو كانوا من المحبين ، وصدقني إذا قلت لك : إن المرأة ليست بمستطاعة أن تقدر التضحية فحسب ، بل هي تستطيع التضحية أيضاً » -

وتوردت وجنتا ناتاليا ولمعت عيناها ، ولم يؤثر عنها قط إلقاء مثل هذا الخطاب الحماشي الطويل قبل أن تعرف رودين .

وقال رودين وهو يبتسم متلطفاً : « لقد سمعت في أكثر من مناسبة رأيي في وظيفة المرأة ، وأنت تعلمين أن من رأيي أنه ما من أحد كان يستطيع إنقاذ فرنسا إلا جان دارك . . . ، ولكن ليس هذا بيت الصيد . فقد كنت ريد التحدث عنك ، إنك في مستهل حياتك ، والمناقشة في أمر مستقبلك خليقة بأن تكون ممتعة ومثمرة ، فأصغى إلى : إنك لتعلمين أنني صديقك ، وأنتي أعني بأمرك عناية تبلغ عناية الأخ بأخته أو تكاد ، أرجوك ألا تترى في سؤالى فضولاً أو بعداً عن الفطنة ؟ خبريني ، أو قلبك خالٍ خلواً تاماً ؟ »

وفاض وجه ناتاليا بدم الخجل حتى بلغ منابت شعرها ، ولم تنبس ببنت شفة . وتوقف رودين وتوقفت هي أيضاً ، ثم سألها : « أترك قد غضبت مني ؟ » فأجابته قائلة : « كلا ، ولكني لم أكن أنتظر هذا السؤال قط . . . » وأردف يقول : « ومع ذلك فليس ثم ما يدعوك إلى إجابتي ، فإني أعرف سرّك » .

ونظرت إليه ناتاليا في رعب .
« أجل أجل ، إنني أعرف من هو ، ولا مناص لي من القول بأنك ما كنت

بمستطعة أن تختارى رجلاً أفضل منه ، إنه لفتى ولا كالفتيان ، ولسوف يستطيع أن يقدرك ، ثم إن الحياة لم تنل منه ، وهو ذكى نقي السريرة . . وهو خليق بأن يسعدك .

« من تعنى يا ديمترى نيقولايفتش ؟ »

« كأنك لاتعلمين ! أعنى فوليتسيف طبعاً ، وى ! ألسنت مصيباً ؟ »

وأشاحت ناتاليا بوجهها ، وقد أخذت منها الحيرة كل مأخذ .

« ألاينحك ؟ أفصحى ، أفصحى ؛ فإنه لايرفع عينيه عنك ويتتبع كل حركة من حركاتك ، وهل يستطيع المرء أن يخفى حبه ؟ إن جميع الظواهر تدل على أن أمك أيضاً تؤثره . ثم إن اختيارك . . »

وقاطعته ناتاليا مادة يدها إلى شجرة قريبة لتخفى ارتباكها وقالت : « إن من العسير على حقاً أن أناقش هذا الموضوع يا ديمترى ميخائيلوفتش ، ولكنى أؤكد لك . . أنك مخطئ »

فردد رودين قولها : « هل تقولين « مخطئ » ؟ لا أظن ذلك ، فإنى أعرفك حق المعرفة وإن كنا حديثي العهد بالصدقة ، فما السرايذ فى هذا التغير العجيب الذى ألاحظه عليك ؟ إنك لست ناتاليا التى لقيتها منذ ستة أسابيع ، كلا ياناتاليا ؛ إن قلبك ليس خالياً . »

وقالت ناتاليا فى صوت خافت لا يكاد يسمع : « ربما ، ولكنك مع ذلك مخطئ » .

فسألها رودين : « وكيف ذلك ؟ »

« أرجوك أن تدعنى وشأنى ، ولا تسألنى أى سؤال ! » ثم انشنت ميممة شطر

المتزل في خُطى سريعة ، فقد أفرعها الأحاسيس التي انبعثت فجأة في قلبها .
ولحق بها رودين واستوقفها ، وقال لها جاداً : « ناتاليا ! إن هذا الحديث
لا يمكن أن ينتهى على هذه الصورة ، فإنه عظيم الأهمية بالنسبة لى أيضاً ، بربك
كيف أفهمك ؟ »

وعادت ناتاليا تقول : « دعنى وشأنى ! »
« ناتاليا ، بالله عليك ! » ، وبانت الحيرة والقلق على وجه رودين ، وشحب
لونه .

وقالت ناتاليا : « إنك تفهم كل شىء ، فينبغى لك أن تفهمنى أيضاً ! »
وانتزعت يدها من يده ومضت في طريقها لاتلوى على شىء .

وصاح رودين خلفها قائلاً : « كلمة واحدة ! »
وتوقفت ولكنها لم تلتفت إلى الورا .
« لقد سألتنى ماذا عنيت بالمقارنة التي عقدتها بالأمس ، وإنى لمخبرك ، ولا تجعلى
سوء التفاهم يدب بيننا ، لقد كنت أتكلم عن نفسى . . . وعنك » .
« عجباً ! عنى ؟ »

« نعم عنك ، وأكرر لك أننى لأحب أن يحدث بيننا خطأ في الفهم ، وإنك
لتعلمين الآن مبلغ ذلك الشعور ، أجل ، الشعور الجديد الذى كنت أنتحدث عنه
وقتشذ ، وما كنت لأجرؤ قطّ حتى اليوم . . . »

وغطت ناتاليا وجهها بيديها فجأة وركضت صوب المنزل .
واستبد الدهول بناتاليا مما بلغ إليه حديثها مع رودين من غابة مفاجئة . ومرت
بفوليتسيف وهى تركض فلم تقع عليه عيناها قطّ ، وكان يقف ساكناً بلا حراك

وظهره ممسند إلى جذع شجرة . ذلك أنه كان قد وصل إلى ضيعة السيدة لاسونسكايا قبل ذلك بربع ساعة . فوجد ربة الدار في غرفة الاستقبال . فتبادلا بضع كلمات ثم انسل إلى الخارج باحثاً عن ناتاليا . وهدته غريزة العشاق فضى إلى الحديقة لايلى على شيء . وفاجأهما في اللحظة التي كانت تنتزع فيها يدها من يد رودين . فاسودت الدنيا في عينيه . وراح يرقب ناتاليا ثم تحلى عن الشجرة وخطا بضع خطوات على غير هدى . ورفع رودين بصره فوجد فوليتسف يقف بجواره . والتقت نظراتهما . فانحنى كل منهما إلى الآخر وافترقا في سكون .

ودار في خلد كل منهما : « إن الرواية لم تتم فصولاً » .

وانطلق فوليتسف محبوب الحديقة حتى بلغ قرارها ، وغشيه شعور بالمرارة والشقاء ، وجثم على صدره حمل ثقيل ، وكان دمه يغلي أحياناً من الحزن والغضب ، وعادت السماء مرة أخرى تمطر رذاذاً ، وأوى رودين إلى غرفته . فقد كان هو أيضاً مضطرباً . وكان عقله في دوامة . ذلك أن الناس حتى غلاظ القلوب منهم تهتز مشاعرهم إذا رأوا شاباً غضباً صادقاً يكشف عما في نفسه فجأة في ثقة واطمئنان .

وجرى كل شيء على مائدة العشاء بخلاف ما ألف القوم . فقد تعذر على ناتاليا أو كاد أن تجلس على مقعدها وهى في مثل شحوب الموتى . ولم ترفع عينيهما . أما فوليتسف فقد جلس كشأنه بجوارها . وكان من حين إلى حين يعمل نفسه على توجيه ملحوظة إليها . وقد اتفق أن كان يجاسوف يتناول العشاء في منزل السيدة لاسونسكايا في ذلك اليوم . فراح يتحدث أكثر من أى شخص آخر . وقال فيما قال : إن الناس كالكلاب يمكن تصنيفهم صنفين : مقطوعى الذيل وطوال

الذيل . ثم قال إن مقطوعى الذيل إما أن يكون ذيلهم قد خلق هكذا عند مولدهم . وإما أن يكون نتيجة لحطاً ارتكبه . ومقطوعو الذيل قوم أشقياء . لا ينجحون أبداً ؛ إذ تعوزهم الثقة بأنفسهم . أما من أوى ذيلًا كئلاً طويلاً فهو الذى يخالفه الحظ . وقد يكون أسوأ أو أضعف من صاحب الذنب المقطوع . ولكنه أوى الثقة بنفسه . فإذا نشر ذيله بهر كل من رآه . وإنكم لتوافقونى على أن هذا أمر عجيب . فالذيل عضو من أعضاء الجسم لانفع فيه أبداً . فأى خير يرحى من الذيل . إلا أن كل إنسان يعرف مقدارك بذيلك ؟

ثم أردف يقول وهو يتهد : « وأنا نفسى من رهط مقطوعى الذيل . على أن الشيء الذى يذهل فى هذا الأمر هو أننى أنا الذى قطعت ذيلى يدي » . وقال رودين عرضاً : « أى أنك تريد بعبارة أخرى أن تقول ماقاله لاروشفوكو من قبلك بزم طويل : ثق بنفسك يثق بك الناس . ولست أدرى مكان الذيل فى ذلك » .

وأجاب فوليتسيف بخدة وقد ومضت عيناه : « إن كل إنسان . أجل . إن كل إنسان . له الحق فى أن يعبر عما فى نفسه كما يشاء . تتحدثون عن الاستبداد . . إنكم إذا سألتمونى الرأى فى ذلك قلت : ليس ثم استبداد أسوأ من استبداد أولئك الذين يعرفون بأهل البراعة . ألا لعنة الله عليهم ! » .

ونخم السكون على القوم جميعاً . وانعقدت ألسنتهم من جراء ثورة فوليتسيف ، ولقيت عينا رودين عينيه ولكنه لم يستطع الثبات أمامها . فأدار رأسه وابتسم ولم ينبس ببنت شفة .

وقال يجاسوف بينه وبين نفسه : « ها ! إذن فأنت مقطوع الذيل أيضاً ! »

وقفز قلب ناتاليا إلى فيها ، وحملت السيدة لاسونسكايا في فوليتسيف في حيرة
وذ هول ، وكانت أول من قطع جبل السكون ، فأخذت تصف كلباً عجيباً يملكه
صديقها الوزير « ن » .

وغادر فوليتسيف الدار بعد الغداء بقليل ، ولم يملك نفسه وهو يستأذن ناتاليا في
الانصراف من أن يقول لها : « لماذا تبدين مرتبكة كل هذا الارتباك كأنك مذنبة ؟
هيهات أن تكوني مذنبة أمام أى مخلوق ! »

ولم تدرك ناتاليا مايرمى إليه ، فاكثفت بأن شيعته بنظرة حائرة .

وقصد رودين إليها قبل تناول الشاي ، وانحنى على المائدة كما لو كان يبحث في
الجرائد ، وقال هامساً : « لقد كان الأمر كله كالحلم ، أليس كذلك ؟ لامناص لي
من مقابلتك وحدك - ولو لحظة » .

والتفت إلى الأنسة بونكور قائلاً : « هاك ، أليست هذه صحيفة الأدب التي
كنت تبحثين عنها ؟ » ، ثم انحنى مرة أخرى صوب ناتاليا وأردف يقول هامساً :
« حاول أن توافيني إلى خميلة الليلق قرب الشرفة حوالى الساعة العاشرة . . سأكون
في انتظارك » .

وأسلم رودين الميدان لبيجاسوف ، فقد كان بطل السهرة وروح عن السيدة
لاسونسكايا كثيراً . ذلك أنه قص عليها أولاً قصة جار له استكان لامراته ثلاثين
عاماً فطبع بطباع النساء حتى لقد رفع أطراف سترته يوماً وهو يجتاز وشلا في حضور
بيجاسوف كما تفعل النساء بنقباتهن ، ثم وصف سيداً آخر من سادة الريف كان في
أول أمره ماسونياً ثم غدا متطيراً ، وقرر آخر الأمر أن يكون صيرفياً ، وسأله

بيجاسوف « وماذا فعلت عندما كنت ماسونياً » فأجاب : « ما أفعله عادة : لقد أطلت ظفري أصبعي الخنصر » وازداد ضحك السيدة لاسونسكايا مرحاً وجوراً عندما شرع بيجاسوف يفصح عن آرائه في الحب . ويزعم أنه هو أيضاً قد أثار هذه العاطفة الرقيقة في النساء . بل إن سيدة ألمانية ملتهبة العاطفة قد بلغ بها الأمر أنها كانت تناديه يا « أفريكان الصغير اللذيذ » . وضحكت السيدة لاسونسكايا . ولكن بيجاسوف لم يكن يكذب . فقد كان حرياً به حقاً أن يفخر بغزواته ؛ ذلك أنه قال على سبيل التأكيد : إنه مامن شيء أسير من إيقاع امرأة . أيا كانت . في حبائل حبك . وحسبك أن تظل عشرة أيام متصلة تكرر على سمعها أن شفتيها هما الفردوس وأن عينيها هما النعيم وأن سائر النساء بالقياس إليها كالدمى المصنوعة من الخرق ! فإذا جاء اليوم الحادى عشر حدثت نفسها بأن شفتيها هما الفردوس وأن عينيها هما النعيم . ثم تقع في حبك . وهذه الأمور جائزة الحدوث . ومن يدرى ؟ لعل بيجاسوف قد أصاب شاكلة الصواب . وما إن انتصفت العاشرة حتى كان رودين قد بلغ الحميلة بالفعل . وكانت الكواكب الصغيرة قد أخذت لتوها تلوح في أعماق السماء الشاحبة . وكان الأفق الغربى لا يزال يتوهج بالضوء القرمزى . وبدت السماء هنالك أكثر تألقاً وصفاءً . وكان القمر في ربه الأول يرسل ضوءه الذهبي فينفذ من غمار شجرة التامول المهذلة . وقامت الأشجار الأخرى كأنها العالقة السود تتخللها آلاف من الفجوات الشبيهة بالعيون . أو تضرب في الجوكاهياكل الشاهقة الكثيفة . وسكت أوراق الشجر لانريم منها ورقة واحدة . فكانت قم أشجار الليلق والسنت تتصب في الجو الحار خفيفة متيقظة . والمزل يلوح عن قرب معتماً مظلماً . وقد بدت نوافذه الطويلة المضاءة كالبقع الحمراء المتوهجة . كانت أمسية

ناعمة هادئة . حتى لكأن المرء يسمع في هدأة السكون زفرة تند عن عاطفة مكبوتة .

وقف رودين وذراعه مشبكتان على صدره . وراح يرهف السمع في قلق واهتمام . وكان قلبه ينبض بشدة وقد كتم أنفاسه . وطرق أذنيه آخر الأمر وقع أقدام خفيفة سريعة ودخلت ناتاليا الحميلة .

وقفز رودين منطلقاً إليها . وأخذ يديها بين يديه . وكانتا باردتين كالثلج . وهمس في صوت مختلج : « أي ناتاليا ! لقد أردت أن أراك . . وما كنت أستطيع الانتظار حتى الغد . إذ لابد لي أن أقول لك شيئاً لم أكن أتوهمه قط . بل شيئاً لم أتبينه حتى هذا الصباح - إني أحبك ! » وارتجفت يدا ناتاليا قليلاً في يديه . وعاد يقول : « أحبك ! كيف غشى مني البصر كل هذا الوقت . فلم أتبين منذ أمد طويل أنني أحبك ! . . وأنت ؟ ! . . وأنت يانا ناتاليا ؟ » .

وحبست ناتاليا أنفاسها . وقالت أخيراً بعد جهد : « إنك لترى أنني قد أتيت » .

« أجل ولكن خبريني . . أتخبريني ؟ »

فهمست : « أعتقد . . أنني أحبك » .

وضغط رودين على يديها أكثر وأكثر . وحاول أن يجذبها إليه .

ونظرت ناتاليا حولها بسرعة وقالت : « دعني : إني مرتاعة . وأظن أن بعضهم ينصت إلينا . بالله عليك كن أكثر حرصاً : فإن فوليتسف يرتاب في أمرنا » .

« دعك منه ! وقد رأيت أنني لم أكلّف نفسي مشقة الرد عليه عصر اليوم : آه

ياناتاليا . ما أعظم سعادتي ! لن يفرق بيننا شيء الآن .

ونظرت ناتاليا في عينيه وهمست تقول : « دعني فإنه يجب على أن أذهب » .

وأنشأ رودين يقول : « لحظة واحدة . . »

« كلا . دعني . أرجوك ! »

« أتخافيني ؟ »

« كلا . ولكن يجب أن أنصرف الآن »

وسأله ناتاليا : « أتقول إنك سعيد ؟ »

« أنا ؟ إنني أسعد رجل في العالم ! أبحامرك شك في هذا ؟ » ورفعت ناتاليا

رأسها . وكان وجهها جميلاً ينطق بالتبل والشباب والعاطفة في ظلال الحميلة الخفية وفي الضوء الخافت الهابط من السماء في تلك الأمسية .

ثم قالت : « ألا تعلم أنني سأكون لك ؟ »

وصاح رودين : « يا إلهي ! »

وانقلبت ناتاليا من بين يديه وتوارت عن الأنظار . ووقف رودين لحظة

ساکناً . ثم خرج من الحميلة متمهلاً ، وكشف ضوء القمر عن وجهه في الظلام .

وكانت تداعب شفثيه ابتسامة ، وغمغم : « إني سعيد » ثم ردد هذا القول :

« أجل إني لسعيد » كأنما أراد أن يقنع نفسه بذلك ، وشد قامته . وطرح بخصلات

شعره المجدد إلى الوراء ، وراح يهز ذراعيه طرباً وسروراً ، ثم دخل الحديقة مسرعاً .

وعندئذ انفرجت شجيرات خميلة الليلق في سكون وظهر منها بندالفسكي . ثم

نظر حوله في حرص وحذر . وهز رأسه . وزم شفثيه ، ثم تتم في لهجة لها مغزاه

« أهكذا ؟ ليلفن الأمر سيدة البيت » واختفى عن الأنظار .

الفصل الثامن

وعاد فوليتسيف إلى المنزل كسير الخاضع تفيض نفسه بالغم والكآبة . وراح يرد على أخته في تبرم وإحجام . وما لبث أن اعتكف في مكتبه مما جعل السيدة ليينا تصمم على أن ترسل في طلب ليزنيف . ذلك أنها ألقت أن تعتمد عليه كلما ألت بها ملمة . وبعث إليها ليزنيف يقول إنه سيوافيها في اليوم التالي .

ولم تتغير حال فوليتسيف في صبيحة اليوم التالي . فقد كان يعتزم الخروج لبعض شأنه بعد تناول الشاي ، ولكنه عدل عن ذلك . ولزم الدار . واستلقى على أريكة . وراح يقرأ في كتاب ، ولم يكن ذلك من وكده قط . فقد كان لا يتذوق الأدب ، ولا ينحش شيئاً خشيته للشعر ، ومن أقواله المأثورة : « هذا شيء مستغلق على الأفهام كالشعر » . وآية ذلك أنه كان يستشهد دائماً بالأبيات الآتية للشاعر أيولوت :

وهل يستطيع المرء مهما بلغ حظه من العقل والتوفيق
أن يقطف زهر البانسيه المخضب بدم الحياة

إلا إذا ذهبت أيام الحزن وولت؟ هيهات !
 وكانت السيدة لبيينا تنظر إلى أخيها في قلق وإشفاق . ولكنها تجنبت أن توجه
 إليه أى سؤال . ووقفت عربة بالباب . فحدثت نفسها قائلة : « شكراً لله ، لاشك
 أنه ليزنيف » . وجاء خادم وأعلن وصول رودين ، فالتقى فوليتسيف بكتابه على
 الأرض ورفع رأسه . ثم سأل قائلاً : « من ؟ » .
 وعاد الخادم يقول : « ديمتري نيقولايفتش رودين » .
 وهب فوليتسيف واقفاً وأمر الخادم قائلاً : « دعه يدخل » ، ثم أردف وهو
 يلتفت إلى السيدة لبيينا ، « وأنت يا أختاه . هلا تخلين بيننا » .
 فسألته : « ولكن لماذا . . ؟ »
 فقاطعها وقد تجلى غضبه قائلاً : « لدى من الأسباب ما يدعوني إلى ذلك .
 وأرجوك أن تفعل ما قلته لك » .
 ودخل رودين . وكان فوليتسيف يقف في وسط الغرفة فانحنى له في برود . ولم
 يقدم له يده لمصافحته . واستهل رودين كلامه قائلاً وهو يضع قبعة على عتبة
 النافذة : « إني لوائق من أنك لم تكن تستظرنى » . وكانت شفتاه تختلجان بعض
 الاختلاج ، فقد كان قلقاً مضطرباً ، ولكنه حاول جاهداً أن يخفى قلقه .
 وأجاب فوليتسيف : « لم أكن أنتظر شخصاً يحمل رسالة منك » .
 ماحدث بيننا الليلة الماضية ، أن أنتظر شخصاً يحمل رسالة منك » .
 فقال رودين وهو يجلس : « إني لأدرك ماترمى إليه ، وأقدر صراحتك حق
 قدرها ، ولكن مافعلته أفضل من ذلك بكثير ، فقد زرتك بنفسى كما أزور رجلاً
 شريفاً » .

وقال فوليتسيف : « أفلا تتخلى عن هذه المجاملات ؟ »
 « أريد أن أشرح غرضي من الزيارة » .
 « لقد سبق أن تعارفنا ، فما الذى يحول بينك وبين زيارتي ؟ ثم إن هذه ليست
 المرة الأولى التى تشرفنى فيها بزيارتك » .
 فردد رودين قوله : « جئت لزيارتك كما يزور الرجل الشريف صاحبه . وأنا
 أريد أن أحتكم إليك . لأننى أثق فيك كل الثقة » .
 فقال فوليتسيف « أرجوك أن تدخل فى الموضوع » . وكان لا يزال واقفاً فى
 وسط الغرفة ينظر شزراً إلى رودين . ويجذب طرفى شاربه من حين إلى حين .
 « عفواً . لقد جئت أتحدث إليك فى الأمر . ما فى هذا من شك . ولكن المرء
 لا يستطيع أن يبدأ حديثه فى الحال » .
 « ولم لا ؟ » .
 « إن ثم شخصاً ثالثاً له دخل فى الأمر . . . »
 « ومن ذلك الشخص ؟ »
 « أنت تعلم من أعنى ياسر جى بافلوفتش »
 « لا أعلم ياديمىرى نيقولايفتش » .
 « إذن تريد . . . » .

فقاطعه فوليتسيف قائلاً : « تمنيت أن تكف عن اللف والدوران » . وكان
 مرجل غضبه يشتد سريعاً . وقطب رودين حاجبيه قائلاً : « على رسلك إذن . فإننا
 على انفراد . ويجدر بى أن أقول لك . . . ولو أنك ربما تكون قد (حذرت) الأمر
 فعلاً » (وهز فوليتسيف كتفيه مفصفاً عن نفاد صبره) . يجدر بى أن أقول لك إننى

أحب ناتاليا . وعندى من الأسباب ما يحتملى على الاعتقاد بأنها تحبى .
وشحب لون فوليتسف ولكنه لم ينس بينت شفة . بل ذهب إلى النافذة .
وأدار ظهره إلى رودين ومضى رودين يقول : « ولعلك تدرك أنى لو لم أكن
مقتنعا . . . » .

فقاطعه فوليتسف فى لطفة قائلا : « يا إلهى ! إننى لأشك فى ذلك أبداً . .
وأرجو لك التوفيق ! ولكن ثم شيئاً واحداً لأستطيع أن أدركه . فقل لى بحق
الشیطان : لم تحمل إلى هذه الأخبار ؟ وماجدواها بالنسبة لى ؟ وماذا يهمنى من أمر
من تحب ومن يحبك ؟ هذا ما لا أستطيع أن أدركه ! » .

وظل فوليتسف يخلق من خلال النافذة . وكان يتحدث بصوت خاوى
النبرات .

وهض رودين . وقال : « سأقول لك السبب فى اعتزامى المحيى إليك . وما
حدانى إلى الظن بأن ليس من حق أن أخفى عنك . . شعورنا المتبادل ! إنى
أحترمك غاية الاحترام ، ولذلك جئت إليك . ولم أشأ . بل لم يشأ أحدنا . أن
يخدعك باصطناع أسباب العبت والمجون . لقد كنت أعرف شعورك نحو ناتاليا . .
ولتعلمن أنى أعرف قدر نفسى حقاً . أعرف أنى أقل من أن أستحق الحلول محللك
فى قلبها . أما وقد قضت بذلك المقادير فهل ننزل إلى أساليب الخداع والمكر
والدهاء والنفاق ؟ أئحق لنا أن نعرض أنفسنا للمواقف الناجمة عن سوء الفهم ، بل
إلى مجرد احتمال وقوع مشهد كالذى وقع على مائدة الغداء بالأمس ؟ أئحق لنا هذا
ياسر جى بافلوفتش ؟ » .

وشبك فوليتسف ذراعيه على صدره . كأنه يريد أن يعقل ما تضطرم به نفسه .

ومضى رودين يقول : « أى سرجى بافلوفتش ! لقد آذيت شعورك ، وإني لمدرِك ذلك . . ولكن حاول أن تفهمنا . لم تكن أماننا وسيلة أخرى نستطيع أن نثبت بها مانكنه لك من احترام . وندلل على أننا نستطيع أيضاً أن نقدر حق التقدير ما جلبت عليه من سلامة الفطرة وشرف الطبع . ولو كنت أخطب أى رجل آخر ما كان للصراحة . الصراحة الكاملة . محل . أما معك فالصراحة تصبح واجباً . ونحن سعيديان إذ ندرك أننا وضعنا سرنا بين يديك » .

وأطلق فوليتسيف ضحكة مغتصبة . وهتف يقول : « شكراً لك على ثقتك ! ولو أنني أحب أن تعلم أنني ما كنت أود أن أشاركك في أسرارك أو أفضي إليك بأسراري . على أنك تتصرف في أسراري كأنها ملكك . وقد فهمت من حديثك أنك لا تتكلم عن نفسك فحسب . فهل لي أن أخرج من ذلك بأن الآنسة لاسونسكايا تعلم بأمر زيارتك والغرض منها ؟ » .

فأخذ رودين بعض الشيء وقال : « كلا . لم أخبر ناتاليا بنواياي ، ولكني واثق من أنها تشاركني في رأيي » .

وعاد فوليتسيف إلى الكلام بعد سكون قصير . وهو ينقر زجاج النافذة بأصابعه : « كل هذا جميل . بل جميل جداً . والحق أنك لو قللت من احترامك لي هوناً ما لكان ذلك أفضل . ولتعلم . إن شئت أن تعلم . أن احترامك هذا لا يغنيني في قليل أو كثير . ولكن . ماذا تريد مني الآن ؟ » .

« لا أريد شيئاً . . أو قل إني أريد شيئاً واحداً : أريد أن تعلم أنني لست رجلاً ماكراً أدير المكاييد . أريد منك أن تفهمني . وأرجو ألا تعود إلى الشك في إخلاصي . أريد أن نفرق . . صديقين وأن نتصافح كما كنا نفعل من قبل » .

ودنا رودين من فوليتسيف .

وقال فوليتسيف مواجهاً رودين ومترجعاً إلى الوراء : « عفواً ياسيدى . إني لمستعد أن أقر بحسن مقاصدك إقراراً لانتشوبه شائبة . فإنها مقاصد رفيعة جداً . بل هي إن شئت الحق سامية جليلة . إلا أن أمثالي من السذج يؤثرون البساطة في الأمور بلا تزويق ولاخيال ، وهم عاجزون عن أن يتابعوا وثبات عقل كبير كعقلك . فإن المخلص في نظرك يبدو لأعيننا لجوجاً مغروراً . والشئ الواضح البسيط عندك نراه نحن مهوشاً غامضاً ، إنك تفخر بأشياء نخفيها نحن ، فكيف نفهمك ؟ سألتك المَعذرة . فإني لا أستطيع أن أعدك صديقاً . ولن أمد لك يدى . قد يكون هذا صغاراً ولكننى أنا نفسى رجل صغير . »

والتقط رودين قبعته من عتبة النافذة . وقال في لهجة يشوبها الحزن : « وداع يا سرجى بافلوفتش ! لقد أخطأت في تقديرى . وإني لأسلم بأن زيارتى كانت عجيبة شيئاً ما . ولكن كنت آمل . . . » (وأنى فوليتسيف بحركة تم عن نفاذ صبره) . « لاتواخذنى . فإني لن أتحدث في الأمر بعد ، وقد تبينت من الظروف مجتمعة أنك على حق . ولعمري أنه لم يكن أمامك طريق آخر تسلكه . وداعاً . واسمح لى مرة أخرى على الأقل . بل اسمح لى للمرة الأخيرة . أن أؤكد لك صدق نواياى . إننى أثق كل الثقة في حصافتك . . . »

فصاح فوليتسيف وهو يهتز غضباً : « عجباً . كأن الأمر يحتمل المزيد ! إننى لم أفعل شيئاً لحملك على الثقة بى . وليس لك حق أو شبه حق في أن تعتمد على حصافتى ! » .

وكان رودين على وشك أن يقول شيئاً . إلا أنه أمسك . وأنى بحركة من يده

تنطوى على الاستسلام ، وانغى ثم خرج . وألقى فوليتسف بنفسه على الأريكة .
ولفت وجهه صوب الحائط ، وسمع أخته تقول بالبَاب : « أو تأذن لى
بالدخول ؟ » .

ولم يجب فوليتسف لتوه بل مريده خلصة على وجهه . وقال فى صوت يختلف
كل الاختلاف عن صوته المعهود : « كلا بالكسندره ، دعينى وحدى لحظة » .
وجاءت بعد نصف ساعة ووقفت بالبَاب .

وقالت : « لقد جاء ليزنيف ، هل تحب أن تراه ؟ » .

فأجابها : « نعم دعيه يدخل » .

ودخل ليزنيف ، وسأله وهو يجلس فى كرسى مريح قرب الأريكة :
« ما بالك ؟ أمرىض أنت ؟ » .

ورفع فوليتسف نفسه مستنداً على مرفقه . وحملق طويلا فى وجه صاحبه . ثم
أعاد على مسامعه ماجرى بينه وبين رودين بالحرف الواحد ، ولم يكن قد لَمَّحَ
لليزنيف من قبل قطّ بما يكنه من شعور نحو ناتاليا ، ولو أنه كان يوجس أن الأمر لم
يكن خافياً عليه .

وانتهى فوليتسف من سرد قصته فقال ليزنيف : « لاشك أن ذلك كان
مفاجأة يا صديقى ؛ لقد كنت أنتظر منه كثيراً من الأمور العجيبة . أما هذا . . ولكنه
حتى فى هذا منطقى مع نفسه » .

وصاح فوليتسف وقد ثارت ثائثرته : « قسماً إنها لوقاحة مابعداها وقاحة ! لقد
كدت ألقى بالرجل من النافذة ! أكان يريد التفاخر أمامى . أم أن الجبن هو الذى

حملة على ذلك ؟ وما الدافع له ؟ وكيف واته الشجاعة على أن يقصد رجلا . . . »

وطوح فوليتنسف بيد خلف مؤخر رأسه والتزم الصمت .

وقال ليزنيف في هدوء : « كلا يا صديق . ليس الأمر كما تظن . ولن تصدقني إذا قلت لك إنه فعل ما فعل بدافع حسن . والحق . . أنك لجرى بأن تعلم أن ذلك كان فرصة نبيلة شريفة واته للحديث . أو قل لإظهار فصاحته . وهذا هو الشيء الذي كان ينبغي ولا شيء سواه . الشيء الذي لا يستطيع أن يعيش بدونه ، أجل . إن لسانه عدوه . . ولكنه خادمه أيضا . . »

« هيات أن تتصور مائلي به من وقار عندما أقبل على وراح يتحدث ! » .
« لا جرم ! بل قل إنه ليزرر سترته كأنه يؤدي فريضة مقدسة ، تمتيت أن أنبذه في جزيرة قاحلة وأرقبه من خلف ركن لأرى كيف يدبر شأنه فيها . ومع ذلك فهو يستمسك بالبساطة ! »

فقال فوليتنسف : « قل لي بربك : مامعنى هذا كله ؟ أفلسفة هو أم ماذا ؟ » .
« أعتقد أنه حقاً فلسفة من وجه . وشيء يختلف تماماً عن الفلسفة من وجه آخر . فإنك لا تستطيع أن تتحاشى في براعة كل أنواع الهراء بتفسيره على ضوء الفلسفة » .

ونظر فوليتنسف إليه وقال : « ألا تظن أن الأمر كله كان كذبة ؟ » .
« كلا يا بنى . وكفانا حديث في الموضوع ، ولنشعل غليوننا ولنعد أختك . فلحديث وهى معنا أعذب والسكوت أيسر ، وستقدم لنا الشاي » .

وقال فوليتسيف : « أى والله » ، ونادى قائلاً : « أدخلى يا ألكسندره » .
ودخلت السيدة لينا ، فأمسك يدها وطبع عليها قبلة حارة .

* * *

وعاد رودين إلى الدار في حالة نفسية عجيبة مضطربة ، فقد كان غاضباً من نفسه ، وأخذ ينحى عليها باللائمة لما كان من تهوره الصبياني الذي لا يغتفر ، وقد صدق عليه ذلك القول الحق : « مامن شيء أشد إيلاًماً للمرء من اكتشافه أمر حماسة وقع فيها لتوه » .

وكان رودين نادماً . وراح يفتح من خلال أسنانه المطبقة قائلاً : « أى شيطان حملنى على الذهاب إلى ذلك السيد ؟ يالها من فكرة جنونية ! أعرض نفسى للوقاحة جهاراً نهاراً ؟ » .

وكانت تجرى في الوقت نفسه حوادث عجيبة في بيت السيدة لاسونسكايا ؛ ذلك أن ربة الدار لم تظهر طوال الصباح . ولم تدخل غرفة المائدة لتناول طعام الغداء . وقال بندالفسكى . وهو الوحيد الذى سمح له بدخول غرفتها . إنها مصابة بصداغ . ولم ير رودين أيضاً ناتاليا كثيراً . فقد بقيت في غرفتها مع الآنسة بونكور . فلما قابلته في غرفة المائدة نظرت إليه نظرة تفيض بالحزن غاص لها قلبه بين ضلوعه . إذ كان وجهها قد علتة سمة من التغير كأنما حلت بها مصيبة منذ اليوم السابق . فانتابت رودين هواجس ميمة . ونشد التسلية في صحبة باستوف . واتصل الحديث بينه وبينه . فألفاه غلاماً ممتلئاً حمية . مرحاً نشيطاً يعمر قلبه الأمل السامى والإيمان الطاهر . ثم ظهرت السيدة لاسونسكايا ساعة أو ساعتين مساءً في غرفة الاستقبال . وكانت لطيفة مع رودين . إلا أنها كانت مترفة بعض الشيء .

تبتسم حيناً . وتعبس حيناً . وتتحدث من أنفها في بطء وتمهل . وكان جل حديثها تلميحات مبهمة . وصفوة القول أنها كانت مثالا لسيدة المجتمع المهذبة الكاملة ! ويبدو أن علاقتها برودين قد شابها شيء من البرود . وحدث رودين نفسه وهو ينظر خلصة إلى رأسها الشامخ قائلاً : « ترى ما حل هذا اللغز ؟ » .

ولم تشأ المقادير أن يصبر طويلاً حتى يجد حل اللغز . فبينما كان عائداً إلى غرفته ماراً بالدلهيز المظلم وقد انتصف الليل أو كاد إذا ببعضهم يدس في يده رسالة على حين غرة . فالتفت فرأى فتاة تبتعد عنه . وقد خيل إليه أنه لمح فيها وجه خادم ناتاليا . ودخل غرفته . وصرف الخادم . ثم فتح الرسالة وقرأ السطور التالية بخط ناتاليا :

« وافنى في منتصف السابعة من صباح الغد . وليس بعد ذلك . إلى بركة أفديوخين خلف حرجة السنديان . ولا تفكر في أى موعد آخر ، وسيكون هذا لقاءنا الأخير . وفيه النهاية مالم . . تعال . فإنه ينبغي لنا أن نصل إلى قرار . . حاشية : إن لم آت فلن يرى أحدنا الآخر مرة أخرى ، وفي تلك الحالة سأكتب لك . . . » .

واستغرق رودين في التفكير . وأخذ يقلب الرسالة بين يديه . ثم وضعها تحت وسادته . وخلع ملابسه واستلقى على فراشه . ولكنه لم ينام إلا بعد وقت طويل . نام نوماً خفيفاً . ثم استيقظ ولما تبلغ الساعة الخامسة .

الفصل التاسع

كانت بركة أفديوخين التي واعدت ناتانيا رودين على اللقاء عندها . قد زالت عنها هذه الصفة منذ وقت طويل . ذلك أن القنطرة التي توصل إليها الماء كانت قد تصدعت . ومضى على تصدعها ثلاثون سنة كاملة . ثم أهملت من بعد . ولا يستطيع المرء الآن أن يتكهن بأن ثم بركة كانت في هذا الموضع إلا من قاع تلك الوهدة المنبسطة الناعم الذي كان يغطيه يوماً الغرين الزلق ، ومن بقايا القنطرة . وكان يقوم على ضفة البركة في وقت من الأوقات منزل لأحد الملوك . وقد اختفى هذا المنزل أيضاً منذ وقت طويل . وكانت تدل عليه شجرتا صنوبر ضخمتان ، لم تنقطع الريح قطّ عن الزيف والدمدمة في كآبة وحزن وهي تمر خلال غصونها العالية النحيلة الدائمة الاخضرار . وكانت الشائعات الخفية لاتزال حية بين أهل الريف يتناقلون خبر جريمة بشعة تخيلوا أنها وقعت عند جذورها . وقيل أيضاً إنه ما من شجرة تسقط من هاتين الشجرتين إلا يموت بسقوطها أحد من الناس . وإن شجرة صنوبر ثالثة كانت تقوم في ذلك الموضع أطاحت بها عاصفة فقتلت فتاة

١٤٣

صغيرة ، وكان القوم يعتقدون أن أكتاف البركة جميعاً مسكونة . كانت البقعة مقفرة موحشة ، كثبية مظلمة حتى لو واثاها يوم مشمس . وقد زاد في كآبتها ووحشتها حرجة السنديان الهرمة التي كانت تقوم في جوارها وقد ذوت أشجارها وماتت منذ وقت طويل ، وارتفعت الهياكل السمرء المتناثرة لشجر السنديان الضخم كأنها الأشباح تنقبض لها النفس وهي تطل على ماتحتها من نبات . لقد كانت هذه الهياكل المشثومة أشبه بعصبة من العجائز الأشرار اجتمعوا لتدبير مكيدة خبيثة ؛ وكان يخف بها طريق ضيق لا يطرقه الناس إلا لماماً . ولم يكن أحد يمر بركة أفديوخين إلا إذا ألجأته حاجة ملحة ، وقد تعمدت ناتاليا اختيار هذه البقعة المهجورة التي كانت تبعد نصف ميل أو نحو ذلك من منزل السيدة لاسونسكايا .

وبلغ رودين بركة أفديوخين وقد علت الشمس السماء ، إلا أن الصباح كان كثيباً تنقبض له النفس ، فقد غشيت السماء كلها غيوم كثيفة يشوبها بياض مغبر . وكانت الريح تدفعها في طريقها بسرعة ، وهي تصفر وتعوى ، وشرع رودين يروح ويغدو على القنطرة التي كان عالقاً بها نبات رأس الحمام وحشائش القريض الضاربة إلى السواد ، واثابه قلق واضطراب ، فقد كانت تلك المقابلات ، وتلك المشاعر الجديدة تنعش نفسه ، إلا أنها كانت في الوقت نفسه تشغل باله وخاصة بعد رسالة الليلة الماضية . وأحس بأن النهاية قريبة ، وشعر في قرارة نفسه بأن عزمته تخور ؛ وما كان لأحد أن يتبين ذلك وهو يراه يشبك ذراعيه على صدره في عزم صارم ويتلفت حوله . لقد صدق بيجاسوف عندما قال مرة : إن رودين صنم من أصنام الصين رأسه دائماً أثقل من جسمه . وليس يسهل على المرء إذا استعان برأسه وحده مهما بلغ من قوته ، أن يتبين مايجرى في طوايا نفسه . ولم يكن رودين ، وهو الثاقب

الفكر النافذ البصيرة ، بمسطيع أن يقول في يقين جازم : أئحب ناتاليا حقاً ؟ وهل مايعانيه في حبها يصدر عن شعور صادق ؟ وهب أنه افترق عنها فهل يقاسى من ذلك ويشق ؟ وإلا فما الذى حمّله على أن يدير رأس الفتاة المسكينة ، في حين أن واجب الإنصاف يقتضينا على الأقل أن نقول : إنه لم يتعمد أن يمثل معها دور العاشق الوهّان ؟ ولم كان يتظرها وقد تملكته رعدة خفيفة ؟ ليس لهذا السؤال إجاب واحد ، وهو : ما من أحد يحوز عليه الافتتان بقدر مايجوز على من لا قلب له .

وبينما كان رودين يروح ويغدو على القنطرة ، كانت ناتاليا تسرع الخطى إليه مجتازة الحقول وهى تضرب في العشب الندى .

وظلت خادمتها ماشا تقول لها ، وهى تلاحقها بصعوبة « يا آنسة ! يا آنسة ! سبتل قدماك ! » .

ولم تأبه ناتاليا لها ، ومضت في طريقها مسرعة .

واسترسلت ماشا تقول : « آه لو كشفوا أمرنا ! إنها لأعجوبة أننا استطعنا التسلل من المنزل ، فإذا يكون من أمرنا إذا استيقظت الآنسة بونكور ؟ أحمد الله على أن المكان ليس بعيداً غاية البعد . . » ثم أردفت تقول ، وقد أبصرت رودين على حين غرة يقف كالتمثال على القنطرة : « عجباً ! هذا هو السيد ، فما باله يقف هكذا في العراء ، لقد كان أجدر به أن يهبط إلى الوهدة » .

وتوقفت ناتاليا ، وقالت لها : انتظرى هنا يا ماشا بجوار شجرتى الصنوبر ، ثم هبطت إلى البركة ، وصعد رودين للقائها ، ولكنه توقف وقد غلبه الدهول . ذلك

أنه لم ير وجهها من قبل قط على هذه الحال . فقد قطبت جبينها وزمت شفتيها . وكانت نظراتها صارمة قاطعة .

وشرعت تقول : « إن وقتنا أضيق من أن نضيعه ياديميري نيقولايفتش . فقد جئت لأقضي معك خمس دقائق . ويحذر بي أن أنبتك بأن أمي تعرف كل شيء . فقد تجسس علينا السيد بندالفسكي أول أمس ، ونقل إليها خبر مقابلتنا . ذلك أنه جرى دائماً على أن يكون جاسوساً لأمي . وقد استدعتني البارحة إلى غرفتها . . . » . وهتف رودين : « يا إلهي ! إنه لأمر فظيع ! وماذا قالت أمك ؟ »
« لم تغضب مني ولم تنهرني ، وإنما أخذت عليّ تصرفي الأخرق على حد قولها . »
« وهل اكتفت بذلك ؟ »

« أجل ، ثم قالت : إنه لأهون عليها أن يدركني الموت سريعاً من أن تراني زوجة لك » .

« أو قالت ذلك ؟ » .

« أجل ، وأردفت تقول : إنه ليس في نيتك أبداً أن تتزوجني ، وغاية ما في الأمر أنك تغازلني لشعورك بالملل ؛ وإنها لم تكن تنتظر منك هذا ، وإنها الملومة لسماحها لي بمقابلتك كثيراً . . . وإنها كانت تعتمد على حسن إدراكي . . . وإنني قد أدهشتها كثيراً . . . وأقوال أخرى كثيرة لا أذكرها » .

وكانت ناتاليا تقول هذا كله في صوت عجيب في هدوئه واثرائه .

« وأنت يانا تاليا . . ماذا قلت لها ؟ » .

ورددت ناتاليا قوله : « ماذا قلت لها ؟ وما الذي عولت عليه الآن ؟ » .

وهتف رودين : « يا إلهي ! يا إلهي ! يا للقسوة ! أهكذا بسرعة . وبمثل

هذه الضربة المفاجئة . . ؟ أتقولين إن أملك كانت غاضبة أشد الغضب
« أجل . . أجل ، وهي تأتي أن يذكر أمامها اسمك ! »
« إنه لأمر فظيع ! إذن . فليس ثم أمل يرجى ! »
« أبداً . »

« لماذا ينال منا سوء الطالع هذا المنال ؟ بندالفسكى - ياله من وغد به
تسألينى يا ناتاليا ما عسى أن أصنع ؟ إن رأسى يدور . . ولا أستطيع التفكير
أشعر بمبلغ ماأنا فيه من تعس . ومن عجب أن تتلقى الأمر بمثل هذا الهدوء
وأجابت ناتاليا : « أنتظن أن الأمر هين على ؟ »
وأخذ رودين يذرع القنطرة . وظلت ناتاليا ترمقه بنظراتها لاترجم
وسألها آخر الأمر : « أولم توجه إليك أملك أية أسئلة ؟ »
« سألتنى : هل كنت أحبك ؟ » .
« حسناً . وبماذا أجبتها ؟ »

وسكتت ناتاليا . ثم قالت : « لم أكذب » .
وتناول رودين يدها وقال : « إنك نبيلة كريمة - دائماً ، وفى كل أمر ،
إن قلوب العذارى قد صيغت من الذهب الخالص ! أو جاهرت أملك -
تقف بشدة فى طريق زواجنا ؟ »

« أجل . لقد قلت لك : إنها مقتنعة بأنه ليس فى نيتك أن تتزو
« إذن فهى نخسبى محتالاً ، ماذا فعلت حتى أستحق هذا ؟ » . وأمسك
برأسه بين يديه . وأخذت ناتاليا تستحثه قائلة : « إننا نضيق الوقت .
نقول لايفتشس . ألا فلتذكر أننى لن أقابلك مرة أخرى . ولم آت هنا لأ

أشكر ، وأنت ترى أنني لا أبكي . وإنما جئت أطلب منك النصح .
 « ولكن أى نصح يمكننى أن أسديه إليك ياناتاليا ؟ » .
 « أى نصح ؟ إنك رجل ، لقد جئت لألقى فى قلبى الإيمان بك وسأومن بك حتى النهاية ، فأفصح عن نواياك » .
 « نواياى ! أغلب الظن أن أمك ستحول بينى وبين دخول المنزل » .
 « قد يكون هذا ، ذلك أنها قالت لى البارحة إنها ستضطر إلى قطع علاقتها بك . . ولكنك لم تجب على سؤالى » .
 « أى سؤال ؟ » .

« ماذا نحن فاعلان الآن فيما نظن ؟ »
 وردد رودين قولها : « ماذا نحن فاعلان ؟ يجب أن نستسلم طبعاً » .
 ورددت ناتاليا عبارته فى بطء وقد ابيضت شفتاها : « نستسلم ! »
 ومضى رودين يقول : « نستسلم للمقادير ، وماعسانا نستطيع غير هذا . إني لأعلم حق العلم مبلغ ما فى ذلك من مرارة وألم وشقاء لا يخطر على بال ، ولكن احكى أنت ياناتاليا - إني فقير . صحيح أنني أستطيع أن أعمل ، ولكن هي أنني كنت غنياً فكيف تواجهين غضب أمك وانقطاع صلتك بأسرتك على هذا النحو العنيف ؟ كلا ياناتاليا ! هذا أمر لا يصح التفكير فيه ، والظاهر أننا لم نخلق لنعيش معاً ، والسعادة التى كنت أحلم بها ليست من نصيبى ! » .
 وأخفت ناتاليا وجهها فجأة بين يديها ، وانفجرت باكية فخف إليها رودين .
 وصاح فى حرارة : « ناتاليا ! عزيزتى ناتاليا ! بربك لا تبكى . ولا تعذبى قوادى ، وهدنى من روعك . . »

ورفعت ناتاليا رأسها وقالت ، وعيناها تقدرحان شرراً من خلال عبراتها :
تقول لى هدنى من روعك ، إننى لا أبكى لما توهمت . . إنه ليس ذلك . بل
بى يؤلمنى أننى كنت مخدوعة فيك ، وى ! لقد جئت أطلب منك النصيحة لى
مثل هذه الظروف . فإذا وجدت منك ؟ وجدت أن أول مابادرتنى به هو أن
ستسلم ! وإذن . فهذا هو أسلوبك فى تطبيق جميع آرائك عن الحرية والتضحية
التي

وأخذ صوتها ينحفت رويداً رويداً حتى تلاشى .
وراح رودين يقول فى لهجة تم عن الحيرة والارتباك : « ولكن اذكرى
يا ناتاليا . . أننى لا أنكث بوعده أقطعه على نفسى . . وإنما . . »
ومضت ناتاليا تقول وقد تزودت بزاد من القوة جديد : « لقد سألتنى بماذا
أجبت أمى عندما قالت لى إنه لأهون عليها أن يدركنى الموت سريعاً من أن توافق
على زواجنا . لقد قلت لها : إنه لأهون على أن يدركنى الموت سريعاً من أن أتزوج
أحداً سواك ، وأنت تقول . . استسلمى ! إذن فقد كانت على حق . . وغاية ما فى
الأمر أنك توددت إلى لأن السأم كان قد نال منك . . »

وقال رودين : « أقسم لك يانا ناتاليا ، أؤكد لك . . » ، بيد أنها لم تستمع
إليه .

« لماذا لم تصدىنى ؟ ولماذا أنت نفسك . . أم أنك قدرت أنه لن تكون ثم
عقبات ؟ إننى لأخجل أن أتحدث فى هذا الأمر . . ولكن كل شىء قد انتهى
الآن » .

فقال رودين : « يجب أن تهدنى من روعك يانا ناتاليا ، يجب أن نضع رأسينا معاً

وتدبر ما نستطيع أن نفعله . . . » .

وقاطعته ناناليا قائلة : « ما أكثر ما تحدثت عن تضحية المرء بنفسه ، ولكن هلا علمت أنك لو قلت لى اليوم ، بل فى هذه اللحظة « إنى أحبك ، ولكنى لأستطيع الزواج منك فإننى لأعلم ما يخفيه الغد . أعطى يدك واتبعنى » . لكنت تبعتك ، لقد كنت مستعدة لكل شىء ! ولكن شتان بين الأقوال والأفعال ، وأنت الآن تلوح بغصن الزيتون كما فعلت تماماً أول أمس فى أثناء العشاء فى حضرة فوليتسيف ! » .

واندفع الدم إلى وجه رودين . فقد أثر جيشان عاطفهما فى نفسه تأثيراً عظيماً .
إلا أن كلماتها الأخيرة جرحت كبريائه .

وأنشأ يقول : « إنك منهوكة القوى الآن ياناناليا ، وأنت لاتدركين مبلغ قسوتك فى إيلاى . وأرجو أن تنصفينى فى الوقت المناسب ، وستفهمين عندئذ كم تحملت فى سبيل التخلّى عن سعادة لم تكن لتفرض على فيما قلت أى التزام ، إن هدوء نفسك لأعلى عندى من أى شىء فى هذه الدنيا . وما أحرانى أن أكون أخط الناس طراً لو أننى انتهزت الفرصة . . . » .

وقاطعته ناناليا قائلة : « لعلك . . لعلك على صواب ، أما أنا فأهذى . لا أعرف ، ولكنى كنت أومن بك حتى اليوم ، أومن بكل كلمة تقولها ، فأرجو أن تزن كلماتك فى المستقبل . ولا تلق الكلام على علته . فإننى حين قلت لك إننى أحبك كنت أعرف معنى هذه العبارة ، لقد كنت مستعدة لأى شىء . . ولم يبق لى الآن إلا أن أشكرك على الدرس الذى ألقته على . وأن أستودعك الله » .
« كفى بالله ياناناليا . أتوسل إليك . إننى لم أفعل شيئاً أستحق من أجله

ازدراءك . وأقسم لك على هذا . ولتحاولى أن تضعى نفسك فى موضعى . فإنى
مستول عنك وعن نفسى . ولو أننى لم أكن أحبك أخلص الحب وأعظمه -
رباه ! - لكنك قد عرضت عليك أن تهربى معى . أما أملك فإنها كانت خليقة أن
تصفح عنك إن عاجلاً أو آجلاً . ثم . . ولكن قبل أن أفكر فى سعادتى . . .
وكبح جراح نفسه . فقد أزعجته نظرة ناتاليا وهى تتفرس فيه دون أن يهتر لها
جفن .

وقالت : « إنك تبذل قصارى جهدك لتثبت لى أنك رجل شريف .
وأنا لا أشك فى هذا . فإنك لست من طراز أولئك الذين يدبرون الخطط . ولكن
أهذا الذى كنت أريد أن أقنع به نفسى ؟ ألهذا جئت إلى هنا ؟ » .
« لم أتخيل قط يا ناتاليا . . » .

« آه ! لقد كشفت الآن عن خبيثة نفسك . أجل . إنك لم تتخيل قط أن
ينتهى الأمر إلى ما انتهى إليه . ذلك أنك لم تكن تعرفى . ولكن لا تزعم . إنك
لا تخبى . وأنا لا أفرض نفسى على أحد » .
وهتف رودين : « إنى أحبك ! » .

وشدت ناتاليا قامتها وقالت : « ربما . ولكن كيف يكون هذا الحب ؟ إنى
لأذكر جميع كلماتك يا ديمترى نيقولايفتش . ألا تذكر أنك قلت لى : لا يقوم
الحب إلا إذا تساوى الطرفان فى كل شىء ؟ إنك لأرفع منى كثيراً . ولست
مثلك . . لقد حق على العقاب . ولسوف تقبل على أمور أجدر بك منى بكثير .
ولن أنسى هذا اليوم . أستودعك الله . . » .

« ناتاليا . أذاهبة أنت ؟ أوحق علينا أن نفرق على هذا النحو ؟ » .

ومد يديه إليها . فتوقفت . وبدأ أن صوته المبتهل قد أوهن من عزيمتها .
وتكلمت آخر الأمر فقالت : « كلا . فأني أشعر بأن شيئاً قد انتزع من أعماق
نفسى . لقد جئت وتحدثت إليك كالحمومة . ويجدر بى أن أثوب إلى رشدى . إن
ذلك لا يمكن أن يكون . وهذا هو ماقلته أنت . يا إلهى . لقد ودعت فى محبلى وأنا
مقبلة فى طريقى إليك . بيتى وماضى كله . ثم ماذا حدث ؟ ومن لقيت هنا ؟ لقيت
قلباً ضعيفاً . وما الذى جعلك تحسب أننى لن أقوى على احمال الفرقة بقطع ما بينى
وبين أسرتى ؟ » إن أملك تأبى زواجنا . . إنه لأمر فظيع ! » . وهذا هو كل ما سمعته
منك . فهل أنت صادق مع نفسك ؟ هل هذا هو شأنك يا ديمترى نيقولايفتش ؟
كلا وداعاً . . أواه . لو كنت تحبى لشعرت بخبك الآن . وفى هذه اللحظة . .
كلا . كلا . وداعاً ! » .

ودارت على عقبيها وانطلقت صوب ماشا التى كانت بدافع من قلقها قد دأبت
منذ وقت طويل على أن تبدى لها من الإشارات ما يفصح عن هذا القلق .
وصاح رودين من وراء ناتاليا : « إنك أنت الجبانة ولست أنا ! » .
ولم تعره ناتاليا من بعد التفاتاً . ومضت إلى المنزل لاتلوى على شيء مجتازة
الحقول . وعادت إلى مخدعها دون أن يقع لها حادث . ولكنها ما إن اجتازت عتبة
الباب حتى خارت قواها وغشى عليها بين ذراعى ماشا .
وتلكأ رودين عند القنطرة طويلاً . واستيقظ آخر الأمر من سباته . وشق
طريقه فى بطء إلى الممر . واجتازه فى غير عجلة . لقد كان يشعر بذلّ وقلق
عظيمين . وحدث نفسه قائلاً : « يالها من فتاة ! ثم هى لم تتجاوز الثامنة عشرة !
كلا لم أكن أعرفها . ما أعجبها من فتاة ! وبالقوة إرادتها ! إنها على حق . فهى

خليقة يحب أفضل من الحب الذى كنت أشعر به نحوها » ، ثم ساءل نفسه :
« أشعر به ؟ ألا أشعر به بعد ؟ وهكذا انتهى كل شيء إلى زوال ! يا لفضالى فى
عينها ! » .

وطرق أذنى رودين جلجلة خفيفة صادرة من عربة سباق . فرفع عينيه ورأى
ليزيف يسوق جواده الأثير خبياً مقبلاً نحوه . وانحنى كل منهما للآخر فى سكون .
ومالبت رودين أن هجر الطريق الذى كان يسير فيه كأنما طرأت عليه فكرة
مفاجئة . وغدَّ السير ميمماً صوب منزل السيدة لاسونسكايا .
وتركه ليزيف يمر . ثم شبعه بنظراته . وأعمل الفكر لحظة . ثم لوى عنان
جواده . وانطلق إلى منزل فوليتسيف . حيث كان قد قضى ليلته بالأمس . فوجد
فوليتسيف نائماً . وأمر الخدم بالألا يوقظوه . وجلس فى الشرفة ، وأشعل غليوناً فى
انتظار الشاى .



الفصل العاشر

استيقظ فوليتسيف في الساعة العاشرة أو نحوها . واشتدت دهشته إذ علم أن ليزنيف يجلس في الشرفة . فأرسل إليه يقول إنه سيلقاه في غرفته .
وسأله : « ما الخبر ؟ لقد كنت تنوى أن تعود إلى دارك » .
« لقد كان ذلك في نيتي . ولكنني صادفت رودين في طريق . وكان يحتاج الحقل وحده . وقد بدا مضطرباً غاية الاضطراب حتى إنني قررت العودة » .
« أتريد أن تقول إنك عدت لأنك صادفت رودين ؟ » .
« لست أعرف وايم الحق لم عدت ؟ ، ولعلني ذكرتلك فأحببت أن ألقاك مرة أخرى . ولم يكن ثمة ما يحملني على العودة سريعاً إلى داري » .
وابتسم فوليتسيف ابتسامة مريرة وقال : « أجل . فإنك تستطيع أن تفكر الآن في رودين دون أن تفكر في » . ثم نادى بصوت مرتفع : « أنتم يامن هناك ، إلينا بشيء من الشاي ! » .
وأخذ الصديقان يشربان الشاي . وشرع ليزنيف يتحدث في أمور تتصل

بالعمل . أو قل في طريقة جديدة لتغطية أسقف الأنبار بالورق . . .
وقفز فوليتسيف بغتة من كرسيه المريح . وضرب المائدة بقوة جلجلت الأقداح
والصحاف .

وهتف : « كلا ! لم أعد أحتمل هذا ! سأخذى ذلك الرجل الماهر وأتركه
يقتلنى . أو أودع رأسه الملىء بالعلم رصاصة ! »

وتتم ليزنيف : « وى . على رسلك . على رسلك ! كيف ترفع عقيرتك
هكذا ؟ لقد جعلت الغليون يسقط من فمى . ماذا دهاك ؟ » .

« لأطيق سماع اسمه . فإن سماعى له يجعل دمى يغلى في عروقى » .

فعنفه ليزنيف . وهو يلتقط غليونه من الأرض . قائلا : « مهلا . مهلا
يا صديق . يجب أن تخجل من نفسك . كفى ! وليذهب إلى الجحيم » .

ومضى فوليتسيف يقول . وهو يذرع الغرفة : « لقد أهاننى ذلك الرجل . أجل
لقد أهاننى . وإنك لتسلم بهذا ! كنت أول الأمر في حيرة من أمرى . فقد أخذنى
على غرة ولم أك أتوقع قط ما حدث ! ولكنى سأثبت له أننى لست ممن يعبث بهم .
سأقتل ذلك الفيلسوف الملعون كما لو كنت أقتل حجلا » .

« لشد ما يعود عليك هذا بالخير ! . ناهيك بوقع ذلك في نفس أختك !
لاشك أنك واقع تحت رحمة آلام نفسية عنيفة أعجزتك عن التفكير في أختك ؛
ولكن ما رأيك في الطرف الآخر ؟ أنتظن أنك تصلح الأمور بقتل غريمك
الفيلسوف ؟ » .

وألقي فوليتسيف بنفسه في كرسى مريح . قائلا : « إذن سأرحل إلى مكان ما ،
إن قلبى ليدوب هنا . ولست أدرى ماذا أفعل بنفسى ؟ » .

١٥٥

« تقول إنك سترحل ، إذن فهذا شيء آخر . بل هو الشيء الذى يجب أن تفعله . أتدرى ما أعنيه ؟ لنرحل معاً . . إلى القوقاز . أو نكتفى بالسفر إلى أوكرانيا . ونأكل « الجالوشكى » الذى اشتهر القوم به هناك ، لقد وفقت كثيراً فى فكرتك هذه ! » .

« وأترك أختى وحيدة لايونس وحشها أحد ؟ » .

« ولم لاتأتى السيدة ليينا معنا ؟ لعمري ليكونن هذا خيراً ما نفعل ! ولو جاءت لسهرت عليها . وجعلت العناية بها شغلى الشاغل ، ولن ينقصها من ثم شيء ؛ وحسى كلمة تفصح عن موافقتها فأرتب لها كل ليلة من يشدو بأناشيد الحب تحت نافذتها . وأنضح الخوذى بالعطر . وأغرس الزهور على طول الطريق . أما أنت وأنا يا صديقى - فسكون كمن ولد من جديد ، ولسوف ننعم بالكثير ، ونثوب وقد سمن كرشانا فلا نعود نصلح للحب أبداً » .

« كل همك أن تمرح » .

« أنا لا أمرح بخال ، وإنما كانت فكرتك هذه شيئاً رائعاً » .

« كلا ! فإنها ليست إلا عبثاً وهراء ! سأناضل ، أريد أن أناضله ! » .

« تعود إلى الشطط مرة أخرى ! إنك اليوم فى حالة من الخلق لم أعهدا فىك

من قبل إلا نادراً ! » .

ودخل خادم وفى يده خطاب .

وسأله ليؤنّف : « من الخطاب ؟ » .

« من ديمتري نيقولايفتش رودين ، أتى به خادم من خدم السيدة

لاسونسكايا » .

وردد فوليتسيف القول : « من رودين ؟ ولن ؟ » .

« لك ياسيدى »

« لى ؟ على به ! » .

وأمسك فوليتسيف الخطاب وفضه على عجل ، ومر مروراً سريعاً على محتوياته . وكان ليزنيف يرقبه عن كعب . وغشى ملامح فوليتسيف ذهول عجيب يكاد يبلغ مبلغ الفرح ، وأرخى يديه .

وسأله ليزنيف : « وما الذى جاء فى الخطاب ؟ » .

فقال فوليتسيف فى صوت أجش : « اقرأه » ، وناوله الخطاب .

وأخذ ليزنيف يقرؤه ، وهذا ماكتبه رودين :

عزيزى سرجى بافلوفتش :

إنى لراحل اليوم عن منزل السيدة لاسونسكايا ، راحل فى ضوء ماحدث بالأمس . ولا أستطيع أن أشرح لك بالدقة الأسباب التى تحملنى على ذلك . إلا أننى أشعر بأنه ينبغى على أن أنبئك برحيلى ، إنك تبغضنى ، بل تعدنى رجلاً سيئ السمعة ، وليس فى نيتى أن أبرئ نفسى ، فالزمن كفيل بهذا ، وعندى أنه ليس خليقاً بالمرء ولا هو بمجديه أن يحاول أن يثبت لشخص من أصحاب الهوى بطلان أهوائه ، ذلك أن من يفهمنى يعذرنى ، ومن لا يفهمنى أو لا يستطيع أن يفهمنى - لن يحرك لومه منى ساكناً ؛ لقد كنت مخدوعاً فيك ، ولسوف تظل فى نظرى الرجل النبيل الشريف ، ولكنى حسبتك قادراً على الارتفاع عن البيئة التى تنتمى إليها ، وكنت فى ذلك مخطئاً ، وأسفاه . فإن هذه ليست هى المرة الأولى . ولن تكون الأخيرة ، أجل ، إنى راحل ، وأتمنى لك السعادة والهناء ، وأرجو أن تعلم أن

رغبتي تلك كانت بريئة كل البراءة من الهوى ، وأرجو أيضاً أن تكون ناعم البال الآن ، ولعلك تغير رأيك في عندما يأتي الأوان ، لست أدري : أنلتني مرة أخرى ؟ ، ولكني سأظل دائماً .

المخلص الذي يكن لك الاحترام

د . د .

حاشية : سأرد لك مائتي الروبل التي اقترضتها منك عندما أصل إلى قريتي في ناحية « ت - آيا » وأرجوك ألا تذكر شيئاً من أمر هذا الخطاب للسيدة لاسونسكايا .

حاشية أخرى : لي مطلب آخر لا مطلب لي بعده . لكنه من الأهمية بمكان : أما وإني راحل الآن فرجائي إليك ألا تذكر أبداً لئاتاليا لاسونسكايا خبر زيارتي لك .

وما إن فرغ ليزنيف من تلاوة الخطاب حتى سأله فوليتسيف : « والآن ، ما رأيك في هذا ؟ » .

وهتف ليزنيف : « وما عسى المرء أن يقول ؟ حسبه أن يصيح قائلاً : « الله . الله ! » كما يفعل المشاركة ويضع إصبعه في فمه كالمشده ، إنه راحل ، وأنا أقول إلى غير رجعة ، ولكن الشيء العجيب أنه ظن أن الواجب يقتضيه أن يكتب هذا الخطاب إليك ، وأن الواجب يقتضيه أيضاً أن يأتي ليراك . إن كل خطوة بخطوة هؤلاء السادة لواجب من الواجبات » ثم أضاف ليزنيف وهو يشير إلى الحاشية بابتسامة ساخرة : « إن عليهم دائماً واجباً يقضونه . أو ديناً يوفون به » .
وصاح فوليتسيف : « بالعبارات التي يسوقها سوفا ! لقد كان مخدوعاً في .

فقد حسب أننى سأرتفع عن بيثة من البيئات أو شيئاً من هذا القبيل ! يا إلهى !
باللهراء ! إنه لأقبح من الشعر ؛ »

ولم يجب ليزنيف ، ولكن كان فى عينيه بريق .
وانتصب فوليتسف واقفاً وقال : « أريد أن أزور السيدة لاسونسكايا ، يجب
أن أتبين معنى هذا كله » .

« مهلا يا صديقى ، أفسح له الوقت حتى يرحل ؛ ما بالك تريد أن تسرع إليه
مرة أخرى ؟ إنه على وشك الرحيل ، فماذا تود أكثر من هذا ؟ لخير لك أن تأوى إلى
فراشك وتناول قسطاً من النوم ، فإنك بلا شك قد تقلبت فى فراشك طول الليل .
ولكن أمورك أخذت تتكشف الآن » .

« ما الذى حملك على هذا الظن ؟ » .
« وى ! هذا ما يدولى ، ويحسن بك حقاً أن تغفو قليلا . أما أنا فسأذهب
لأجلس مع أختك » .

فقال فوليتسف وهو يجذب أطراف سترته : « ليست لى أقل رغبة فى النوم !
ولماذا أنام ؟ سأسرع إلى الحقول أتفقددها » .

« فكرة لأبأس بها ؛ اركب جوادك يا صديقى ، اركب جوادك واخرج ، وألق
نظرة فاحصة على تلك الحقول » .

ومضى ليزنيف إلى جناح السيدة ليينا .
ووجدها ليزنيف فى غرفة الاستقبال ، فحيته مرحبة ، فقد كان يسرها دائماً أن
تراه ، إلا أن القلق ظل مرتسماً على وجهها ، فقد أزعجتها زيارة رودين بالأمس .
وسألت ليزنيف : « هل رأيت أخى ؟ كيف حاله اليوم ؟ »

« إنه بخير ، وقد خرج ليلقي نظرة على الحقول » .
 والتزمت السيدة لبيينا الصمت لحظة . ثم شرعت تقول وهي تحديق ملياً في
 أطراف منديلها : « هلا أخبرتي ! أو تعلم الغرض من . . . ؟ » .
 وقاطعها ليزيف قائلاً : « من زيارة رودين ؟ أجل ، لقد جاء مودعاً » .
 ورفعت السيدة لبيينا رأسها وقالت : « ماذا تقول ؟ مودعاً ؟ »
 « أجل . ألم يبلغك الخبر ؟ إنه سيرك السيدة لاسونسكايا » .
 « أراحل هو ؟ » .
 « إلى غير رجعة ، وهذا على الأقل مايزعمه هو » .
 « ولكني لأفهم بعد كل هذا . . . » .
 « وى . ذلك شيء آخر ! إنه لأمر غير مفهوم . ولكنه الواقع فعلاً ، وما من
 ريب في أن شيئاً حدث بينهما . لقد أفرط في شد الوتر . . فانقطع ! » .
 وأنشأت تقول : « إنني لأفهمك يا ميخائيل ميخائيلوفتش . ويبدو لي أنك
 تسخر مني » .
 « لا والله ! أقول لك إنه راحل . بل إنه ليخطر معارفه برحيله كتابة . وليس
 هذا في رأي بعضهم بالأمر السيئ ، إلا أن رحيله قلب رأساً على عقب خطة رائعة
 كنت أناقش فيها أخاك » .
 « خطة . أى خطة ؟ » .
 « هي هذه . لقد اقترحت على أخيك أن يسافر في رحلة نسرى بها عن أنفسنا .
 ونأخذك معنا . وقد تعهدت بأن أسهر على راحتك . . . » .
 وقالت السيدة لبيينا في سخرية وتهكم : « ما أبدع هذا ! في مقدورى أن

أَتَحِيلُ كَيْفَ يَكُونُ سَهْرُكَ عَلَى رَاحَتِي ، وَى ، لَسَوْفَ تَضِيقُ عَلَى الْإِنْفَاسِ حَتَّى أَقْضَى .

« تَقُولِينَ هَذَا لِأَنَّكَ لَا تَعْرِفِينَ ، وَنَحْسِبِينَ دُمِيَّةً ، دُمِيَّةً مِنَ الْحَشَبِ . أَفَلَا تَعْلَمِينَ أَنَّنِي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَذُوبَ كَمَا يَذُوبُ السُّكَّرُ ، وَأَنْ أَقْضِيَ أَيَّاماً بِطَوْلِهَا جَانِئاً عَلَى رُكْبَتِي ؟ » . « أَسْلَمَ لَكَ بِأَنْ هَذَا الْمَشْهَدُ لَا أَحِبُّ أَنْ يَفُوتَنِي » .
وَانْتَصَبَ لِزَيْنِفٍ وَاقِفاً عَلَى حَيْنِ غُرَّةٍ وَقَالَ : « إِذْنُ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَتَزَوَّجَنِي ، فَلَا يَفُوتُكَ هَذَا الْمَشْهَدُ » .

وَصَبَغَ دَمَ الْحُجَلِ وَجْهَ السَّيِّدَةِ لَيْبِنَا حَتَّى بَلَغَ مَنَابِتَ شَعْرِهَا وَتَمَتَّتْ فِي حَيْرَةٍ وَارْتَبَاكَ : « مَاذَا قُلْتَ ؟ » .

وَأَجَابَ لَيْزَيْنِفُ : « لَقَدْ قُلْتَ مَا تَرْتَدُّدُ عَلَى أَطْرَافِ لِسَانِي مِنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ ، بَلْ مَا عَجَزْتُ عَنْ أَنْ أَقُولَهُ أَلْفَ مَرَّةٍ ، لَقَدْ انْطَلَقَ لِسَانِي أَخيراً ، وَلَكِ أَنْ تَفْعَلِي بِهَذَا الْأَمْرَ مَا شِئْتَ ، وَلَكِنِّي لَا أُرِيدُ إِحْرَاجَكَ وَلَأُتْرِكَ الْآنَ ، وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تَكُونِي زَوْجَتِي . . إِنِّي لَذَاهِبٌ ! فَإِنْ كُنْتَ لَا تَشْتَمُزِينَ مِنْ هَذِهِ الْفِكْرَةِ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَرْسَلِي فِي طَلْبِي ، وَسَأَفْهَمُ . . » .

وَهَمَّتِ السَّيِّدَةُ لَيْبِنَا كَأَنَّهَا تَرِيدُ أَنْ تَحُولَ بَيْنَ لَيْزَيْنِفٍ وَالرَّحِيلِ ، إِلَّا أَنَّهُ انْصَرَفَ عَلَى عَجَلٍ ، وَدَخَلَ الْحَدِيقَةَ عَارِي الرَّأْسِ ، وَمَالَ عَلَى بَابِهَا وَحَمَلَقَ فِي الْفُضَاءِ .
وَطَرَقَ سَمْعُهُ صَوْتَ خَادِمٍ يَقُولُ مِنْ خَلْفِهِ : « سَيِّدِي لَيْزَيْنِفُ ، إِنْ سَيِّدَتِي تَرِيدُ أَنْ تَرَكَ ، أَرْجُوكِ ، إِنَّهَا تَرِيدُ أَنْ تَرَكَ » .

وَدَارَ لَيْزَيْنِفُ عَلَى عَقْبِهِ ، وَأَخَذَ رَأْسَ الْخَادِمِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَطَبَعَ قَبْلَةً عَلَى جَبِينِهَا .
دَهَشَتْ لَهَا كَثِيراً . ثُمَّ صَعَدَ لِلْقَاءِ السَّيِّدَةِ لَيْبِنَا .

الفصل الحادى عشر

وعاد رودين إلى الدار بعد لقائه ليزنيف مباشرة . واعتكف في غرفته ، ثم كتب خطابين : أحدهما إلى فوليتسيف (وقد مر بالقارئ) والآخر إلى ناتاليا ، وقد استغرق في كتابة الخطاب الأخير وقتاً طويلاً جداً يحذف ويبدل كثيراً من عباراته ، ثم بذل عناية في نسخه على ورقة من كراسة الخطابات الأنيقة ، وطواه في أقل حجم ممكن ووضع في جيبه ، وشرع يروح ويدنو في الغرفة وقد غشيت وجهه مسحة من الحزن ، ثم جلس في كرسي مريح بجوار النافذة ، وأسند ذقنه بيده ، وسالت دموعه في هدوء من رموش عينيه . . . ثم نهض وزرر أزرار سترته ، ونادى الخادم وطلب منه أن يسأل السيدة لا سونسكايا هل يستطيع أن يلقاها ؟ وسرعان ما عاد الخادم ينقل إليه أن سيدته في انتظاره ، فحضى رودين إليها . واستقبلته في مكتبها ، كما فعلت في المرة الأولى منذ شهرين ، إلا أنها لم تكن وحدها هذه المرة ، فقد كان بندالفسكى يجلس معها كما ألفناه متواضعاً متألّقاً أنيقاً متكلفاً .

ورحبت السيدة لاسونسكايا برودين فى أدب ، وانحنى لها رودين متأدباً ، إلا أن نظرة واحدة إلى وجهيهما الباسمين كانت تكنى أى دارس للطبيعة البشرية أن يعلم بأن شيئاً مكدرأ يعز على الإفصاح قد وقع بينهما ؛ وكان رودين يعلم أن السيدة لاسونسكايا غاضبة منه ، وكانت السيدة لاسونسكايا تشبه فى أنه على علم بما حدث فعلاً .

لقد أزعجتها كثيراً وشاية بندالفسكى ، وأحبت فى صدرها شعور السيدة العظيمة ، إذ كيف اجترأ رودين ، ذلك الرجل الفقير الذى لا لقب له ولا حسب والذى لم ينه صيته بين الناس بعد على مواعدة ابنتها . . . ابنة داريا ميخائيلوفنا لاسونسكايا .

وقالت تناقش هذا الأمر : « هب أنه رجل بارع بل عبقرى ! فما قيمة ذلك ؟ أمعناه أن كل إنسان يستطيع أن يأمل أن يصبح زوجاً لابنتى ؟ » ووافقها بندالفسكى وقتئذ بقوله : « لم أصدق عيني وقتاً طويلاً ، ألا ما أقبح أن يجهل المرء قدره ! »

وصبت السيدة لاسونسكايا فى سورة غيظها جام غضبها على ناتاليا . وطلبت من رودين أن يجلس ، فلبى الأمر ، ولم يكن رودين كمهدنا به . رب ندار أويكاد ، أوحى ذلك الصاحب القديم ، بل أصبح ضعيفاً ، ضعيفاً لا يستأهل الترحيب أبداً ، حدث كل هذا فى مثل وميض البرق ، كالماء يستحيل بغتة إلى ثلج صلد .

وأنشأ رودين يقول : « لقد جئت أشكرك يا سيدتى على كرم ضيافتك ، فقد تلقيت أنباء من قريتي الصغيرة تحم على الرحيل اليوم بلا إبطاء »

١٦٣

وحدثت السيدة لاسونسكايا ملياً في رودين . وقالت تحدث نفسها : « لقد سبقني ، وإني لأحسب أنه قد تكهن بكل شيء ، وهذا يكفيني مثونة شرح الأمر على ما فيه من إيلا م وخيراً فعل ، بارك الله في القوم البارعين » .
ثم جاهرت بالقول : « حقاً ؟ وأسفاه ! ولكن لا بد مما ليس منه بد . وسأطلع إلى لقاءك في موسكو هذا الشتاء ، فإننا لا نلبث أن نعود إلى المدينة » .
« لست واثقاً يا سيدتي من أني أستطيع الذهاب إلى موسكو ، ولكن إذا تهيأت لي الوسيلة فستكون زيارتك فرضاً على »
وأخذ بندالفسكي يتحدث نفسه أيضاً قائلاً : « ها يا صديقي ! لقد كنت منذ برهة السيد المتحكم هنا ، فما بالك تتحدث الآن هكذا ؟ »
وقال بندالفسكي في صوته المترن المعهود : « لا شك أنك تلقيت أنباء سيئة من قريتك ! »

فأجاب رودين في جفاء : « أجل »
« ربما كان المحصول رديئاً ؟ »
« كلا - ليس الأمر كما تقول » ، ثم أردف : « صديقني يا سيدتي ، لن أنسى الوقت الذي قضيته في دارك »
« وأنا أيضاً سأذكر تعارفنا دائماً بالابتهاج والسرور . . . ومتى ترحل ؟ . »
« اليوم ، بعد الغداء »
« بهذه السرعة ! على رسلك ، وإني لأتمنى لك رحلة سعيدة ، أجل . وإذا لم تعقك أعمالك كثيراً فربما أدركتنا هنا »
فقال رودين وهو ينهض : « لسوف يتعذر على أن أعود » ثم أردف يقول :

« عفواً ، ولكننى لست فى مركز يسمح لى بأن أفيك فى هذه اللحظة ما على من دين ، ولكننى ما إن أبلغ قريتى . . . »

فقاطعت قائلة : « وى ! وى يا ديمترى نيقولايفتش ، لا تذكر ذلك ، وبهذه المناسبة ما الساعة ؟ »

وأخرج بندالفسكى من جيب صدره ساعة ذهبية صغيرة طليت بالميناء ونظر فيها . وهو يميل فى عناية خده المتورد على بنقته البيضاء الجامدة .

وقال : « الساعة الثانية والدقيقة الثالثة والثلاثون »

فهمت السيدة لاسونسكايا : « يجب أن أبذل ملابسى ، إلى اللقاء يا ديمترى نيقولايفتش ! »

وغادر رودين الغرفة ، وكان الحديث كله الذى دار بينه وبين السيدة لاسونسكايا يتسم بطابع خاص أشبه بمراة الممثلين على أداء أدوارهم . وتبادل الساسة فى المؤتمرات عبارات معدة من قبل .

لقد تعلم الآن بالتجربة كيف أن عليه القوم لا يلفظون المرء فحسب ، بل يتركونه يسقط إذا انتهت حاجتهم إليه ، كما يفعلون بالقفاز بعد الرقص ، أو بالورق الذى يغلف قطعة من الحلوى ، أو بتذكرة « يا نصيب » لم تربح .

وحزم متاعه على عجل ، وأخذ ينتظر ساعة رحيله بصبر نافذ ، وقد استبدت الدهشة بكل من فى المنزل عندما علموا بنيته ، وكان الخدم أنفسهم ينظرون إليه نظرات الحيرة والارتباك ؛ ولم يحاول باستتوف أن يخفى ألمه . وكان من الجلى أن ناتاليا تحاشاه ، فقد أمسكت عن أن تقابل نظراتها نظراته ، إلا أنه أفلح فى دس خطابه فى يدها ، وكررت السيدة لاسونسكايا فى أثناء الغداء رجاءها فى أن

تراه قبل أن يرحل إلى موسكو ، إلا أن رودين لم يجب ؛ وحاول بندالفسكى أن يحره إلى الحديث معه ، وتملكت رودين أكثر من مرة رغبة قوية في أن ينقض عليه ويلكم وجهه المتورد الذى يفيض صحة وعافية ؛ وظلت الأنسة بونكور تصوب إلى رودين نظرات تنطق بالمكر والخبث ، نظرات يستطيع المرء أحياناً أن يلمح لها شيئاً فى عيني كلب الصيد العجوز الحبير ، وقد بدا أنها تحدث نفسها قائلة : « أف ! لقد دارت عليك الدوائر الآن . »

ودقت الساعة السادسة آخر الأمر ، ودرجت إلى الباب عربة السفر التى سيستقلها رودين ، وراح يودع الموجودين على عجل ، وكان حزيناً مغموماً ، فما كان يتوقع قط أن يبرح الدار على هذا النحو الذى كان كالطرد أو هو أشبه ، وأخذ يتحدث نفسه قائلاً : « باللموقف البديع ! ما الذى جعلنى أدفع الأمور إلى غايتها ؟ إيه ! لا بد مما ليس منه بد ! » كان هذا ما يحول بفكره عندما شرع ينحنى فى كل ناحية محيياً المجتمعين وعلى شفثيه ابتسامة مختصة ، ثم نظر إلى ناتاليا نظرة أخيرة حارت لها عزيمته ؛ فقد شاع اللوم فى نظرة الوداع الحزينة التى لاحت فى عينيها . وهبط الدرج مسرعاً ، وقفز إلى عربة السفر ، وتطوع باستئوف بمرافقته إلى أول محطة ، وركب العربة معه . وقال رودين عندما غادرت العربة فناء البيت وخرجت إلى الطريق الواسع يحف به شجر الشربين : « أتذكر ما قاله دون كيخوته لتابعه وهو يغادر بلاط الدوقة ؟ قال : (الحرية نعمة من أغلى النعم التى أفاها الله على الإنسان ؛ سعيد من يعطيه الله كسرة خبز لا يدين بالفضل فيها لأحد إلا الله وحده) ، وإنى لأشعر الآن بما كان يشعر به دون كيخوته وقتئذٍ ، وأرجو الله يا عزيزى باستئوف أن تنعم أنت أيضاً بهذا الشعور فى يوم من الأيام . »

وتأثر باستتوف ، فضغط على يد رودين ، وأخذ قلب الشاب الأمين ينبض بقوة في صدره المتأرجح ، وظل رودين يتحدث طوال الطريق إلى المحطة عن كرامة الإنسان وعن معنى الحرية الحق ، وقد شاعت الحرارة في حديثه كما شاع النبل والصدق ، وحانت ساعة الفراق ، فأطلق باستتوف لعواطفه العنان ، وألقى بنفسه على رودين وراح يتحب ، وانهمرت الدموع من عيني رودين أيضاً ، على أنه لم يكن يندب فراقه لباستتوف ، بل كانت دموعه دموع الغرور والخيلاء .
وأوت ناتاليا إلى غرفتها ، وقرأت خطاب رودين .
وقد كتب إليها يقول :

« عزيزتي ناتاليا : لقد عزمت على الرحيل ، ولم يكن لي حيلة في ذلك . عزمت على الرحيل قبل أن يطلب مني أن أغادر الدار ، وسيضع رحيلي كل شيء في نصابه ، ولن يفتقدني أحد . فما الذي يدعوه إلى ذلك ؟ وهذه هي الحقيقة ، ولكن ، ما الذي يدفعني إلى الكتابة إليك ؟ »

« إني أفارقك ، وقد يكون ذلك إلى الأبد ، ولسوف يخز في نفسي أن تظني بي من السوء فوق ما أستحق ، وهذا هو ما حملني على الكتابة إليك . ولست أريد أن أبرر موقعي . أو ألوم أحداً إلا نفسي ، وأود أن أبين لك مسلكتي بأحسن ما أستطيع ؛ لقد كانت حوادث الأيام القليلة الماضية أشد ما يكون مبالغته وأبعد ما تكون توقعاً ، ولاشك أن لقاءنا اليوم سيكون درساً لن أنساه . لقد كنت على حق ، وكنت أنا واهماً عندما ظننت أنني عرفتك ! لقد بلوت صنوف الناس جميعاً طوال حياتي ، وصادقت الكثير من النساء والفتيات ، ولكنك كنت أول من صادقت في حياتي كلها شرف نفس وطهارة قلب ، فأذهلتني صفاتك عن أن أفيك

حقك . لقد انجذب إليك قلبي من أول لقاء - ولعلك لاحظت ذلك . وقضيت ساعات معك - على أنني لم أعرفك ، ولست بمستطيع أن أقول حقاً إنني حاولت أن أعرفك . . . ومع ذلك فقد خيل إلى أنني وقعت في حبال حبك ! وأنا الآن ألقى الجزاء على ما أجزمت .

« لقد أحببت امرأة من قبل وبادلتني الحب ، وكان شعوري نحوها معقداً ، وكذلك كان شعورها نحوي ؛ ولم يكن ذلك عن افتعال بل كان طبيعياً . لأن طبيعتها كانت بعيدة عن البساطة ، ولم أتبين حقيقة الأمر وقتئذ ، ولم أتبينه عندما واجهته ، وأنا الآن على بينة منه ، ولكن بعد فوات الوقت ، ولأترك الماضي فلا أعود إليه . لقد كان من الممكن أن يلتئم شمل حياتنا . وهيات أن يكون ذلك الآن ؛ كيف أثبت لك أنني كنت خليقاً بأن أحبك حباً صادقاً ، حباً ينبع من القلب لا من الخيال ، في حين أنني أنا نفسي لا أستطيع أن أتبين : هل كان في مقدوري أن أحبك مثل هذا الحب ؟

« لقد سخت على الطبيعة بالنعم ، وأجزلت لي العطاء ، وأنا أعلم ذلك ، ولن أحاول أن أتكلف معك تكلف من يصطنع الحياء الكاذب وخاصة الآن . في لحظة يفيض فيها قلبي بالمرارة والذلة ، أجل ، لقد سخت على الطبيعة بالنعم ، ولكنني سأقضي دون أن أحقق شيئاً جديراً بمواهي ، أو أترك أي أثر ينفع الناس . وستذهب جميع كنوزي بديداً ، ولن أرى ثمرة ما أزرع ، وإنه لينقصني . . . ولست أدري تماماً ما ينقصي . . لعل ما ينقصي هو ذلك الشيء الذي يستحيل على المرء بدونه أن يحرك قلوب الرجال أو يفوز بقلب امرأة ، أما السيطرة على العقل وحده فأمر مشكوك فيه ولا جدوى منه ؛ إن مصري مصير عجيب بل هو مضحك

أويكاد ، أحاول أن أبذل نفسى قلباً وروحاً ، أبذل نفسى جميعاً صادقاً مخلصاً . . . فأجدنى عاجزاً عن ذلك ، وسينتهى بى الأمر إلى أن أبذل نفسى فى سبيل قضية سخيفة ربما لا أكون مؤمناً بها . يا إلهى ! ما أعجب أن يكون المرء دائماً على التأهب لتحقيق شىء وقد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره !

« لم أتحدث قط بهذا الحديث إلى أحد من قبل ، وهذا هو اعترافى حسي ما تحدثت به عن نفسى ، فى أحب أن أتحدث عنك وأن أسدى إليك بعض النصيح . فليست أصلح لشيء غير هذا . . . إنك مازلت شابة ، فلا تلي إلا نداء قلبك مهما بلغ بك العمر ، ولا تدعى لعقلك أو أى شخص آخر سلطاناً عليك ، وصدقني أنه كلما ضاقت دائرة حياتك وزاد حظها من البساطة . كان ذلك خيراً لك ، وليس الأمر أمر التماس نواح جديدة فى الحياة ، بل إنه لأحرى بك أن تدعيها تجرى فى مجراها رخيصة ميسرة على مراحل معلومة ، (طوبى لمن يظل شاباً فى شبابه . . .) ولكننى أرى أن نصيحتي تصدق على أكثر مما تصدق عليك بكثير .

« والحق يا ناتاليا أننى فى أسوأ حال ، فما خدعت نفسى قط عن طبيعة الشعور الذى أثرته فى أمك ، ولكننى كنت أرجو أن أجد على الأقل مأوى إلى حين . . . أما الآن فلا مناص لى من أن أهتم على وجهى مرة أخرى شريداً بلا مأوى ، ومن لى بمن يعوضنى عن حديثك ومحضرك ونظراتك الحكيمة المتوقدة ؟ إن اللوم فى ذلك على وحدى ، ولكنك تسلمين بلا شك أن الزمن قد تعمد أن يسخر منا . . . لقد كنت منذ أسبوع واحد لا يكاد يخامرني شك فى أننى أحبك ، وحدث فى أول من أمس عندما كنا فى الحديقة أن قلت لى . . . ولكن أى فائدة ترجى من تذكرك بما

قلت ؟ . . . واليوم أرحل . أرحل والعار يكسوفى . بعد أن أفصحت لك عن حقيقة أمرى إفصاحاً حَزَّ في نفسى حَزًّا ، أرحل ولا أمل لى فى المستقبل . . . وأنت غير مدركة لمقدار ما أجمت فى حقك . إنه ليعتربنى أحياناً نوبات من الصراحة الحمقاء ، والثروة المطلقة . . . ولكن ما الذى يجعلنى أثير ذلك ؟ إننى راحل . راحل إلى الأبد .

(وكان رودين قد وصف لنا تاليا فى هذا المقام زيارته لفوليتسيف . إلا أنه بما هذه الفقرة بعد روية وتدبر وأضاف الحاشية الثانية على خطابه إلى فوليتسيف) .
« سأظل وحيداً فى هذه الدنيا مكرساً نفسى لأمر أجدر بى كثيراً من ذلك . كما قلت هذا الصباح فى تهكمك اللاذع ، وأسفاه ! لو أننى استطعت أن أكرس حياتى حقاً لهذه الأمور وأتغلب على كسلى فى النهاية ولكن لا ! سأظل ذلك المخلوق الفاتر الهمة الذى كته دائماً . . . ما إن تصادفنى أول عقبة حتى أصاب بخيبة مرة . . . وهذا الحادث الذى وقع لى معك قد أثبت لى ذلك بأجلى بيان ، لو أننى كنت على الأقل قد ضحيت بخيى فى سبيل عملى المقبل ، بل فى سبيل تحقيق رسالتى ! ولكن كلا ! إنما كنت أخشى المسؤولية تلقى على كفى . وأنا غير جدير بك حقاً لهذا السبب وحده . إننى لا أستحق أن تتزعى نفسك من بيتك فى سببى . ولكن ، لعل ذلك كان أفضل ، وأخيراً ، ربما خرجت من هذه المحنة أظهر مما كنت وأشد عزمًا .

« وإنى لأتمنى لك السعادة كاملة ، وأستودعك الله ! اذكرينى أحياناً . . . وأرجو أن تسمعى عنى مرة أخرى » .

وتركت ناتاليا يدها التى أمسكت بها خطاب رودين تسقط فى حجرها .
 وجلست ساكنة وقتاً طويلاً . وعيناها مثبتتان إلى الأرض ؛ وقد كان هذا الخطاب
 أفصح لديها من أى برهان ؛ فقد تبيّن لها منه كم كانت محقة عندما هتفت على
 البديهة وهى تفرق عنه ذلك الصباح قائلة إنه لا يجبها ؛ ولكن هيات أن يكون فى
 هذا غزاء لنفسها ؛ لقد كانت تجلس ساكنة بلا حراك ، وقد خيل إليها أن أمواجاً
 حالكة قد غمرتها فى هدوء . فأخذت تفرق وقد ذهب منها الحس وفارقها الحياة .
 إن المرء ليألم دائماً متى تكشف له الأوهام أول مرة ، فإذا كان صادق الشعور
 لا يلتبس الغزاء فى التمويه على نفسه ولا يعرف التغافل ولا التهوريل . عجز عن
 احتمال ذلك أوكاد .

وذكرت ناتاليا طفولتها . وكيف كانت تخرج فى نزهة مساءً ، فتشنى دائماً صوب
 الجانب المضى من السماء حيث كانت الشمس الغاربة تزهو بلونها الوردى ،
 وتتسكب الظلام وتشيع بوجهها عنه . لقد بدت الحياة الآن مظلمة فى عينيها
 وأدارت ظهرها للضوء .

واغرورقت عينا ناتاليا بالدموع . والدموع لا تأتى دائماً بالفرج . بل هى تروح
 عن النفس وتشفيها مما بها إذا واثت بعد طول احتباس ، واستعصت أول الأمر على
 الجهد . ثم راحت تنهمر فى تكاثر رغبة عذبة ، وهكذا يخف الألم المبرح
 الصامت . على أن ثمّ عبرات باردة ، عبرات تند من العين فى حق وضعيفة .
 ويعتصرها من القلب قطرة قطرة ما ناء به من حزن شديد مقيم ؛ وهذه العبرات
 لا تأتى بغزاء ولا نفرج كرباً . والحاجة الملحة هى التى تستدر هذه الدموع . ومن لم
 يذرفها لا يكن قد عرف الشقاء حقاً ؛ وقد عرفت ناتاليا تلك الدموع فى يومها

هذا ، وانقضى على ذلك ساعتان . ثم تمالكت ناتاليا نفسها ونهضت . وكفكت عبراتها وأشعلت شمعة أحرقت على لها خطاب رودين . ثم فتحت مجلداً لبوشكين حيثما اتفق . وقرأت السطور الأولى التي وقعت عليها عينها (وكانت كثيراً ما تفزع إلى بوشكين على هذا النحو كلما شاءت أن تستطلع ما تحبها لها المقادير) . وهذا هو ما قرأته :

إن من ذاق طعم الحب
تلازمه أشباح الأيام الخوالي
فلا يجد الهناء في شيء
وتصبح ذكرياته كلدغ الأفاعي
وينش الندم قلبه

ووقفت ساكنة لحظة تتأمل خيالها في المرأة وقد افترثرها عن ابتسامة باردة .
ثم أومأت برأسها وهبطت إلى غرفة الاستقبال .

وما إن لمحت السيدة لاسونسكايا ناتاليا حتى أخذتها إلى مكتبها وأجلستها بجانبها . وربت برفق خد ابنتها ، وراحت تفرس في وجه الفتاة . بنظرات غلب عليها حب الاستطلاع ؛ فقد كانت السيدة لاسونسكايا تشعر بالحيرة في قرارة نفسها ، وخيل إليها فجأة أنها لم تكن تعرف ابنتها حق المعرفة . فلما أخبرها بندالفسكي بلقاء ناتاليا لرودين ، لم يرعها أن ترتكب ابنتها ناتاليا العاقلة الحكيمة مثل هذا الفعل بقدر مدهشت له . واستدعت السيدة لاسونسكايا ابنتها . وأخذت تنهرها بصوت مولول لا يصدر عن سيدة مهذبة بل لا يليق بسيدة تثقف

بالثقافة الأوربية ، فتملكتها الحيرة بل انتابها الفزع من إجابات ناتاليا الحازمة ونظراتها الثابتة وإيماءاتها المستقيمة .

وقد أزاح رحيل رودين المفاجئ بل الخير ، حملاً ثقيلاً عن صدرها ، وكانت تتوقع أن تجد من ابنتها دموعاً تفيض ونوبات عصبية حادة . . . إلا أن ظهور ناتاليا بمظهر الممالكة لنفسها قد بلبل أفكارها مرة أخرى .

فأنشأت تقول : « حسناً يا بني ، كيف حالك اليوم ؟ » ونظرت ناتاليا إلى أمها

« لقد رحل . . . حبيبك ، أتعلمين لماذا عجل بالرحيل ؟ »

فقالت ناتاليا في صوت خافت : « أماه ! أعدك بأنك إن أمسكت ولم تعرضي له بالحديث فلن تسمعي مني كلمة عنه »

« إذن فأنت تسلمين بجرمك في حق ؟ »

وحنت ناتاليا رأسها ورددت قائلة : « لن تسمعي مني كلمة عنه »

فقالت أمها وهي تبسم : « سأخلك بكلمتك فأني أثق فيك » واذكري ماذا كان من أمرك أول أمس . . . ولكن فلأمسك ولا أزد ، فقد انتهى الأمر ودفن وانقضى . أليس كذلك ؟ وهأتندى قد ثبت إلى رشذك . لقد كنت بلبت أفكارى وحيرتني أشد الحيرة ، تعالى ، أعطني قبلة يا فتاتي الأرية ! » ورفعت ناتاليا يد أمها إلى شفتيها . وقبلت السيدة لاسونسكايا رأس ابنتها الحانية .

« انتصحي بنصحي دائماً » ، ثم أردفت تقول : « ولا تنسى أبداً أنك من أسرة لاسونسكايا ، وأنك ابنتي ، وستوايتك السعادة » ولأتركك لشأنك الآن .

١٧٣

وانصرفت ناتاليا في سكون ، وشيعتها المرأة الكهلة بنظراتها ثم حدثت نفسها قائلة : « إنها تتزع مترعى ، وسيكون من اليسير التأثير عليها هي أيضاً . ولكن لن يهجرها الكثيرون كما هجروني » واستغرقت السيدة لا سونسكايا في ذكريات الماضي البعيد الذى عفى عليه الزمن .

ثم أرسلت في طلب الآنسة بونكور . واعتكفت معها وقتاً طويلاً ، ثم صرفتها واستدعت بندالفسكى ، ذلك أنها كانت قد عقدت العزم على أن تكشف عن السبب الحقيقى الذى حمل رودين على الرحيل . وطيب بندالفسكى نفسها تماماً . فقد كان لا ينجب في ذلك أبداً .

وجاء فوليتسيف هو وأخته في اليوم التالى لتناول الغداء . وكانت السيدة لا سونسكايا تلقاه بالبشر دائماً . إلا أنها هشت له هذه المرة وبشت أكثر مما كانت تفعل . وكانت ناتاليا تشعر بشقاء ناءت عن حمله . ولكن فوليتسيف كان كثير الاحترام لها . وكان يحدثها في حياء شديد . حتى إنها لم تملك نفسها من الشعور بعرفان الجميل .

وانقضى اليوم في هدوء أقرب إلى الملالة والسأم . إلا أن القوم شعروا عندما انفرط عقدهم بأنهم عادوا إلى نهجهم القديم الذى ألفوه . وهذا قول فيه مبالغة . أجل . لقد عادوا جميعاً إلى نهجهم القديم . اللهم إلا ناتاليا فقد جرت نفسها جراً إلى فراشها . بعد لأى وطول عناء . وحيدة . متعبة . شقية . وألقت بنفسها ووجهها على الوسائد . فقد بدت الحياة في عيناها مريرة كل المرارة ، قبيحة أعظم القبح . خسيصة كأشد ما تكون الحسة . وبدأ لها حبا وشقاؤها . بل كيانها كله مجحلاً بالخزى حتى لقد هان عليها الموت في تلك اللحظة . . . وكان الغد لا يزال

يحمل لها في طياته كثيراً من ليالى الحزن . وكثيراً من ليالى السهاد . بل يحمل لها الألم الممض تشقى به نفس معذبة ؛ ولكنها كانت في مستقبل العمر . لم تكده حياتها تبدأ . وما أخرى الحياة أن تعود عاجلاً أو آجلاً إلى سابق عهدها . ومهما يكن من أمر الحُصائب التى تحل بالمرء . فإنه لا مناص له من أن يأكل - وليغفرلى القارئ ماى هذا التعبير من ابتذال - يأكل فى يومه أو فى غده على الأكثر . وهذا هو العزاء الاول .

لقد كانت ناتاليا تتألم كثيراً ، تتألم للمرة الأولى . . . إلا أن الآلام الأولى كالحب الأول ، لا تتكرر . ولنحمد الله على ذلك .



الفصل الثاني عشر

ومضت ستان أو نحوهما . وى با كورة شهر مايو . كانت السيدة ليزنفا - ولم يعد اسمها السيدة ليينا - جالسة فى شرفة منزلها . وقد انقضى على زواجها أكثر من سنة . كانت لا تزال كعهدنا بها فاتنة ساحرة ، ولو أن جسمها كان قد ازداد امتلاء فى الأيام الأخيرة . وكانت تتمشى أمام الشرفة التى يؤدى درجها إلى الحديقة مرصع حملت بين ذراعيها طفلاً متورداً الوجنت ارتدى عباءة بيضاء ، وقلنسوة عليها كرة من زغب أبيض ، وكانت أمه تنظر إليه فى لهفة ، ولم يكن الطفل يبكى ، بل كان يمص إبهامه فى جد ورصانة . ويتطلع حوله فى هدوء ، وقد ظهرت عليه أمارات تبشر بأنه سيكون ابناً جديراً بأبيه ميخائيل ميخائيلوفتش ليزنيف .

وكان صديقنا القديم بيجاسوف يجلس فى الشرفة بجوار السيدة ليزنفا ، وقد علا رأسه المشيب بشكل ملحوظ منذ رأيناه آخر مرة ، وازداد ظهره انحناءً ، واشتد هزاله ، وكان إذا تحدث هس هسيساً ، ذلك أنه قد فقد شيئاً من أسنانه الأمامية . وكان المهسيس يزيد أحاديثه غلا وحفيظة . ولم يستطع الزمن أن يكسر من حدة

فظاظته . إلا أن مُلَحَّه كانت باردة ، كما كان يردد ما يقوله في أكثر الأحيان فلا يأتي بمجديد .

وكان ليزنيف غائباً عن الدار ترتقب عودته في موعد تناول الشاي ، وكانت الشمس قد غربت ، وامتد على طول الأفق خط امتزج فيه اللون الذهبي الشاحب باللون الأصفر الليموني . وكان ثمَّ خطان في الجانب المقابل له . أسفلها أزرق باهت وأعلاهما أرجواني ضارب إلى الحمرة . وكانت الغيوم الصغيرة الخفيفة تدوب في كبد السماء ، وكل شيء يبشر بحلول فترة يهدأ فيها الجو ويستقر . وشرع يجاسوف يضحك فجأة .

فسألته السيدة ليزنيفا : « ماذا دهالك ؟ »

« لاشيء . . . لقد سمعت بالأمس فلاحاً ينهى زوجته عن الثرثرة قائلاً لها : « كُفِّي عن الصَّريِر ! » ولشد ما أعجبنى هذا منه ، وإني لأتساءل حقاً فيم تستطيع المرأة أن تتحدث ؟ وإنك لتعلمين أنني أَسْتُنِي دائماً من يكنَّ حاضرات . لقد كان أجدادنا أبرع منا وأمهر ، ذلك أن الغادة الجميلة في حكاياتهم الخرافية تجلس دائماً بجوار النافذة وقد علا جبينها نجم وضاء ، ولكنها لم تكن تنطق بخرف واحد ، وهذا ما يجب أن يكون عليه حالها ، والآن أترك الحكم لك ! لقد حدث منذ أيام أن قالت زوجة كبير الأعيان في ناحيتنا إن نزعني لا تروقها ! فكان قولها هذا أشبه برصاصة انطلقت من مسدس فأصابني في مقتل ! لعمرى ، نزعني ! ألم يكن من الخير لها ولغيرها لو أن الطبيعة كانت كريمة فحرمتها استعمال لسانها ! »

« مازلت على عهدى بك يا أفريكان سميونوفتش . تحمل علينا نحن النساء المسكينات . ألا تعلم أن ذلك حقاً هو بليتك ؟ إني لأرئى لك »

« بليتي ؟ لعمري ماذا تقصدين ؟ إني لأقول لك أولاً إنما البلايا في هذه الدنيا ثلاث : الإقامة في غرف باردة شتاء . وارتداء الأحذية الضيقة صيفاً ، وقضاء الليل في غرفة واحدة مع رضيع يصرخ ولاتستطيعين أن تستخدمى معه المسحوق القاتل للحشرات ، وأقول لك ثانياً ، إذا سمحت ، إننى الآن أرق الرجال حاشية بل إننى لفريد في الحسن . وتلك هى شيمتى في الوقت الحاضر . »
 « يالها من شيمة غراء حقاً ! عجباً ، لقد شككت لى منك بالأمس فقط إلينا أنطونوفنا »

« أوقد بدر منها هذا ؟ وهل لى أن أسألك : ماذا قالت لك عى ؟ »
 « قالت لى : إنك قضيت الصباح كله تجيب على أسئلتها بقولك : ماذا ؟ ماذا ؟ فى صوت أشبه بالصراخ والعويل »
 وضحك بيجاسوف وقال : « ألا فلتعترفى بأن ذلك كان فكرة مليحة »
 « فكرة مذهشة جداً . أيصح لك أن تكون فقطاً مع امرأة ؟ »
 « ماذا ! أتخسبن إيلينا أنطونوفنا امرأة ؟ »
 « فإذا تكون إذن ؟ » .

« طبله بلاشك ، طبله عادية كتلك التى تقرعها بالعصا . . »
 فقاطعته راغبة فى الانتقال إلى موضوع آخر وقالت « أى نعم ! علمت أنك خليف بالتهته »

« علام ؟ »

« على كسبك قضيتك . وستظل مروج جلينوف ملك يدك »
 فأجاب بيجاسوف مكتئباً : « أجل . ستظل ملك يدى »

« لقد ظل اهتمامك معلقاً بها سنين . ومع ذلك تبدو الآن غير راض »
 فقال يجاسوف متمهلاً : « لا أخفى عليك أنه ما من شيء أكثر سوءاً وأشد
 إقلاقاً للبال من فرحة تتأخر عن أوانها كثيراً فإن ذلك يقلل نصيبك من المتعة .
 ويحرمك تلك الميزة الحلوة . . . ميزة الشكوى وصب اللعنات على حظك السيئ »
 واكتفت السيدة ليزنيفا بأن هزت كتفها ثم نادى : « أيتها الموضع . أظن أن
 الوقت قد حان لكي يأوى ميشا إلى فراشه فعلى به »

شغلت بابنها . ودلف يجاسوف إلى الركن الآخر من الشرفة وهو يتمتم .
 وظهر ليزنيف بغتة يسوق عربة سباقه على بعد يسير من الشرفة . في الطريق
 الذى يحف بالحديقة . وكان ثمّ كلبان ضخمان من كلاب البيت يركضان أمام
 حصانه . أحدهما أصفر والآخر أشهب . وكان وب الدارق قد اقتنهما حديثاً . وكانا
 يتعاركان دائماً . ولكنها كانا صديقين حميمين . وجاء كلب هجين أشعث عجوز
 من خلال الباب وفتح فمه كأنما يريد أن ينبج ولكنه تئأب . وقفل راجعاً وهو يهز
 ديله في تودد .

« صاح ليزنيف من بعيد يقول لزوجته : « انظري يا ألكسندرة بمن جئتك ؟ »

ولم تبين السيدة ليزنيفا للوهلة الأولى الرجل الجالس خلف زوجها

ثم هتفت آخر الأمر : « آه ! السيد باسستوف ! »

وأجابها ليزنيف : « هو بعينه وفي جعبته أخبار عجيبة غاية العجب ستسمعنها

بعد لحظة »

ودخل بعربته الفناء .

وبعد لحظات ظهر في الشرفة ومعه باسستوف

وصاح وهو يضم زوجته إلى صدره : « وافرحتاه إن سرجى سيتزوج ! »
« من ؟ »

« ناتاليا طبعاً . لقد جاء صديقنا هذا بتلك الأنباء من موسكو . وثمّ خطاب لك أيضاً » . ثم أردف وهو يختطف ابنه : « أسمع هذا يا ميشا ؟ إن خالك سيتزوج . ياله من فاطر الهمة فتوراً لا صلاح له ! ألا تقدر على شيء إلا أن تقطب ما بين حاجيك ! »

وتجاسرت الموضع فقالت : « إنه نعان »

وقال باستتوف وهو يمضى إلى السيدة ليزنيفا : « أجل لقد جئت اليوم من موسكو نزولاً على رغبة السيدة لاسونسكايا لأراجع حساب الضيعة ، وهالك الخطاب »

وفتحت السيدة ليزنيفا في عجلة خطاب أخيها . ولم يكن يشتمل إلا على بضعة أسطر . أنبأ بها أخته في نشوة الفرح الأولى التي تملكته أنه خطب ناتاليا . وحصل على موافقتها وموافقة أمها ، ثم وعدّها بأن يكتب في إسهاب أكثر بالبريد القادم ، وأرسل تحياته وقبلاته إلى الجميع . وكان من الجلى أنه كتب خطابه في شيء من الدهول .

وقدم الشاي ، وأجلس باستتوف في مقعده . وانهاالت عليه الأسئلة ، وقد استخف الفرح الجميع ، حتى ييجاسوف . لسماع الأخبار التي حملها باستتوف . وسأله ليزنيف عرضاً : « أفلا تخبرني عن الشائعات التي بلغتنا عن رجل اسمه السيد كورشاجين ، فإني أظن أنها كاذبة ؟ »

(وكان كورشاجين شاباً وسيماً . وفارساً من فرسان الطبقة العليا ، ممعناً في

الغطسة والزهو . وكان يسير في مهابة وجلال ، حتى بدا أنه ليس من طينة البشر قط ، وإنما هو أقرب إلى تمثال يصور شخصه هو . وقد اكتسب الناس فأقاموه) وأجاب باستتوف وعلى شفته ابتسامة : « ليس الأمر كما تقول على وجه الدقة ، ولكن السيدة لا سونسكايا كانت تعطف عليه أشد العطف ، إلا أن الأنسة ناتاليا لم تكن لتحتمل رؤيته . »

وقاطعه بيجاسوف : « وى ! إننى أعرف الرجل . يا إلهى ! إنه لغى . بل هو مثال الغباوة ! ولو كان الناس جميعاً على شاكلته ما رضيت أن أحيأ إلا إذا أعطيت كوماً من الذهب ! »

وقال باستتوف : « ربما كان القول ما قلت ، ولكنه مع ذلك شخص بارز في المجتمع »

وصاحت السيدة ليزنيا : « لا عليك . دع الرجل وشأنه . آه . ما أسعدنى يا أخى ! وهل ناتاليا سعيدة مستبشرة ؟ »

« أجل . إنها هادئة كشأنها دائماً . وأنت بها عليمه . ولكن يلوح أنها راضية » وانقضى المساء فى حديث تمتع ينعش النفس . ثم جلس القوم لتناول العشاء . وقال ليزنيف لباستتوف . وهو يصب له شيئاً من الخمر :

« ألا قل لى : هل سمعت شيئاً عن رودين ؟ »

« لم أسمع عنه شيئاً منذ زمن طويل ، وكان قد جاء إلى موسكو فى الشتاء الماضى وقضى مدة قصيرة فيها . ثم ذهب إلى سميرسك فى صحبة أسرة من الأسر . وظللنا نراسل زمناً ، وقد أخبرنى فى خطابه الأخير أنه سيعادر سميرسك . ولم يفصح عن وجهته . ولم أسمع منذ ذلك الحين شيئاً عنه . »

وقال ييجاسوف : « إنه لقادر على أن يعى بأمر نفسه . وإني لأتصور أنه جالس يعط في مكان ما . فإن ذلك السيد يستطيع دائماً أن يجد اثنين أو ثلاثة من المعجبين ينصتون إليه فاغرين أفواههم ويقرضونه بعض المال ، ولتذكر كلمتي هذه ! إن الأمر سينتهي به إلى الموت في حجر مهجور مثل تساريفو كوكشايك أو شوخلوما بين ذراعي عانس عجوز مستطارة اللب تظن أنه أعظم عباقرة هذا العالم »

وقال باستوف في صوت خافت ثم عن استنكاره : « إنك تقسو غاية القسوة في حديثك عنه » .

فأجاب ييجاسوف : « كلا ثم كلا . فأني أتوخي في حديثي غاية الإنصاف . ومن رأيي أنه لا يعدو أن يكون طفيلياً »

ثم التفت إلى ليزنيف ومضى يقول : « لقد نسيت أن أخبرك بأني تعرفت بتار لاخوف الذي كان رودين في صحبته عندما كان في الخارج ، وى ، وى ! إن ما رواه لى عنه من أخبار لأبعد من أن يتصورها خيالك . بل هي أغرب من أن توصف ! ما أعجب أن ينقلب جميع أصدقاء رودين وأشياعه أعداء له بمرور الزمن »

وقاطعه باستوف في حرارة : « أخرجني من هذه الزمرة »

« أنت ؟ إنك تختلف عنهم . ولم أكن أتحدث عنك »

وسأله السيدة ليزنيفا : « وما الذي أنباك تار لاخوف من أمره ؟ »

قال لى الكثير . ولا أستطيع أن أذكره كله ، ولكن أحسن ما سمعت عنه هذه النادرة : كان رودين ينضج دائماً - وهذا شأن جميع السادة الذين على غرارهِ .

أما غيرهم فحسبهم أن يأكلوا ويناموا ، وهم حين يأكلون أو ينامون ينضبجون .
 أليس الأمر كذلك يا سيد باستوف ؟ : (ولم يخر باستوف جواباً) . وهكذا ظل
 رودين يتضج حتى انتهى فلسفياً إلى نتيجة هي أن الوقت غدا ملائماً للحب ، فأخذ
 يتطلع إلى هدف جدير بالنتيجة المدهشة التي انتهى إليها . وابتسم له الحظ فتعرف
 بصانعة أزياء فرنسية غاية في الحسن ، ولأذكر بهذه المناسبة أن وقائع هذه القصة
 حدثت في بلدة ألمانية على نهر الراين وشرع رودين يزورها ويعيها الكتب على
 اختلافها ويحدثها عن الطبيعة وعن هيجل ، ولكن ماجدوى هذا في نظر صانعة
 أزياء ؟ وظنت الفتاة من أرباب الفلك ، على أنك تعلم أنه ليس بالفقير الدميم . وقد
 نال الحظوة عندها بحكم أنه أجنبي روسي . ودبر آخر الأمر موعداً معها ، موعداً
 توافرت له جميع أسباب الخيال في جندول على صفحة الراين . ووافقت
 الفرنسية ، وارتدت أفخر ما ترتديه أيام الأحد من ثياب ، وخرجت معه في
 الجندول ، وليثا فيه ساعتين كاملتين . فكيف قضى كل هذا الوقت فيما تظن ؟ لقد
 كان يربت رأس المرأة ويحدق حالماً في السماء ، وردد على مسامعها عدة مرات أنه
 يشعر نحوها بحنان الأب ، وعادت الفرنسية إلى دارها حانقة غاضبة . ثم قصت
 القصة بخدافيها على تارلاخوف من بعد ، وهذا هو طراز ذلك السيد ! »
 وضحك ييجاسوف .

وانتهرت السيدة ليزيفا قائلة : « يالك من رجل جبلت على الاستهانة بكل
 شيء ! وإني لأزداد على الأيام اقتناعاً بأن شائني رودين أنفسهم لا يجدون فيه شيئاً
 قبيحاً »

« لا يجدون شيئاً قبيحاً ! يا إلهي ! وما قولك في تطفله على الناس ، وما درج

ليه من اقتراض المال ؟ لاشك أنه لم يعفك أنت أيضاً من ذلك يا ميخائيل
ميخائيلوفتش ؟ »

وأنشأ ليزنيف يقول وقد علت وجهه سيماء الجد : « إنك لتعلم يا أفريكان
ميونوفتش ، كما تعلم زوجتى ، أننى كنت بصفة خاصة لأميل إلى رودين فى
لأيام الأخيرة . بل الحق أننى كثيراً ما أخذت عليه أشياء . ولهذا كله . . . وهنا
لأليزنيف الأقداح بالشمبانيا ومضى يقول « . . . إني أقترح بعد أن شربنا نخب
خينا العزيز وخطيبته أن نشرب الآن نخب ديمترى رودين »

وحملق فيه كل من السيدة ليزنيفا وييجاسوف وقد أخذتها الدهشة ، واعتدل
استتوف فى جلسته ، وقد جحظت عيناه وطفح وجهه فرحاً وبشراً .
ومضى ليزنيف يقول : « إننى أعرفه حق المعرفة ، وأنا لا أغمض عيني عن
عيوبه . فهى تتجلى وتتجسم لأنه هو نفسه ليس رجلاً تافهاً » .

وهتف باستتوف : « إن رودين رجل عبقرى ! »

ووافق ليزنيف قائلاً : « قد يكون فيه قبس من عبقرية ، أما الرجل فى ذاته فإن
سته أنه ليس مكتمل الرجولة . . . ولكن هذا يخرج بنا عن موضوعنا ، ذلك أننى
أحب أن أتحدث عن صفاته الطيبة النادرة ، فهو من أهل الحماسة والغيرة . وخذ
عنى أنا الرجل البارد الطبع ، أن هذه الصفة لا تُقَوَّم بمال فى أيامنا هذه ، فقد
غدونا جميعاً من المفكرين الأحرار لا نبالى شيئاً ولا يحرركنا شيء ، وهذا أمر
لا يطاق ، لقد أخذتنا سنة من النوم فتحجرنا ، وأخلق بنا أن نعرف بفضل كل من
يحرركنا ويبعث الحرارة فىنا ولو لحظة فحسب ! لقد آن أوان ذلك وحل ! وإنك
لتذكرين يا ألكسندرة أننى كنت أناقشه مرة وإياك فاتهمته بالبرود وكنت فى ذلك

مصيباً ومخطئاً في وقت معاً ، فالبرود في دمه ، وليس هذا خطؤه هو ، ولكنه ليس في رأسه ، وليس رودين بممثل ، كما ألفت أن أدعوه ، ولا هو بالدجال أو الوغد . فهو يعيش على حساب الناس لا لأنه رجل ماكر داهية بل لأنه طفل . . . أجل وأغلب الظن أنه سيموت في مكان ما شقياً فقيراً ، ولكن أيتق لنا من أجل هذا أن نرجمه بالحجارة ؟ إنه لن يحقق عملاً بيديه هو لا شيء إلا أنه رجل بارد الدم لا قوام له ، ولكن من ذا الذي يتق له القول بأنه لا يرجي منه نفع ، أو أنه لم يكن نافعاً فعلاً ، أو أن كلماته لم تلق كثيراً من البذور الصالحة في نفوس الشباب الذين لم تحرمهم الطبيعة ، كما حرمته ، القدرة على العمل ، والقدرة على تنفيذ نواياهم ؟ وى ! إننى أنا نفسى مدين له بهذا ، وألكسندرة نفسها تعلم ما كان لرودين عندى من شأن في أيام شبابه وإنى لأذكر أيضاً أننى قلت إن كلمات رودين لا يمكن أن تؤثر في نفوس الرجال ولكننى كنت أتحدث عن رجال من طرازى وفي السن التى أنا عليها الآن . رجال عركوا الحياة وعرفوا حلولها ومرها . فإن نعمة نائية واحدة تشوب حديث رجل لكافية أن تفسد في نظرنا مجرى الحديث واتساقه . إلا أن أذن الشباب ، وما أسعدهم بهذا ، ليست مرفقة إلى هذا الحد ، ولاهى سريعة التأثير بهذا المقدار . فإذا راق لهم الحديث في جوهره فما الذى يعينهم من نعمته ؟ ذلك أنهم يجدونها بلاشك في أعماقهم .

وصاح باستتوف قائلاً : « مرحى ! مرحى ! ما أصوب قولك ! أما عن أثر رودين في النفوس فأنى أقسم لك أن الرجل لا يعلم كيف يشرك فحسب ، بل يعلم أيضاً كيف يطلقك من عقالك ويظل هذا حالك ؛ إنه يقتلعك من جذورك ويشعل النار فيك ! »

ومضى ليزنيف يقول وهو يلتفت إلى بيجاسوف : « أوقد سمعت ؟ وأى دليل بعد هذا تريد ؟ إنك تهاجم الفلسفة ، ولا تجد في حديثك عنها من الكلمات المعينة ما يشفي الغليل منها ، وأنا شخصياً لا أحفل بها كثيراً ، وفهمي لها أقل من اهتمامي بأمرها ، ولكن الفلسفة ليست هي السبب في متاعبنا الكبرى ، فالشعوذة الفلسفية والمهذبان الفلسفي لا يحوزان على الروسى ، فهو أوسع إدراكاً من أن يتأثر بهما ، ولكن لا يمكننا أن نسمح بوصف كل شوق صادق إلى الحق والمنطق أنه من الفلسفة ، ومصيبة رودين أنه لا يعرف روسيا ، ولا شك أنها مصيبة عظيمة ، إن روسيا يمكن أن تستغنى عن أى واحد فينا ، ولكن ليس منا من هو في غنى عنها ، والويل لمن يظن أنه يستطيع ذلك ، والويل كل الويل لمن يعمل بدونها ! ، فذهب من يتخذ العالم كله وطناً له هراء في هراء ، والآخذ بهذا المذهب رجل تافه ، بل هو أتفه من التفاهة ، ولا وجود لفن ، ولا حق ، ولا حياة ، بل لا وجود لشيء خارج الوطنية ، ومالنا نذهب بعيداً ووجه الإنسان في خير صوره له سيماء خاصة به ، وإنما الوجه المسيح هو الذى لا سيماء له تعرف ، ولكنى أعود فأقول إن هذا ليس خطأ يحاسب عليه رودين ، بل هو حظه ، حظه العاثر الشقى ، وليس لنا أن نلومه على ذلك . وإنما لنبعد عن جوهر الموضوع كثيراً لو أننا سعينا إلى معرفة الأسباب التى جعلت رودين يظهر بيننا . وأخرى بنا أن نقر له بالفضل على الخير الذى نلمسه فيه ، وذلك أيسر من أن نظلمه ، وقد كنا له من الظالمين ، وليس من شأننا أن نفتص منه ، ومامن حاجة تدعونا إلى هذا ، لقد اقتص هو من نفسه قصاصاً أشد كثيراً مما يستحق . نسأل الله أن تذهب المصيبة بما فيه من شرو تبقى على ما فيه من خير ! إني لأشرب نخب رودين ؛ أشرب نخب رفيق أجمل سنين مرت

بحيافى ، أشرب نخب الشباب ، وآماله وجهاده وإيمانه وصدقه ، نخب كل ما كان يجعل قلوبنا تنبض ونحن فى العشرين بأسرع مما تنبض الآن . . نخب « ماهو إلى ذلك خير من أى شىء تعلمناه أو نتعلمه فى هذه الحياة . . . أشرب نخب تلك الأيام الغر ، وأشرب نخب رودين ! »

وقرع الجميع كتوسهم بكأس ليزنيف ، وأوشك باستوف أن يحطم كأسه من فرط حماسه ، ثم شربه جرعة واحدة ، وضغطت السيدة ليزنيفا على يد زوجها . وقال ييجاسوف : « ماكنت أحسب قط أنك قادر على كل هذه الفصاحة ، عجباً إنك لتبلغ فى ذلك مبلغ رودين ، وحتى أنا قد هيجت أشجافى ! » وأجاب ليزنيف فى لهجة تشوبها خشونة : « لست من الفصاحة فى شىء ، وإنى لأظن أنه يكاد يكون فى حكم المستحيل أن أستطيع تهيج أشجانك ، ولكن كفانا الحديث عن رودين ، ولنتقل إلى موضوع آخر » ثم أردف وهو يلتفت إلى باستوف « أمازال .. ما اسمه ؟ .. بندالفسكى يقيم مع السيدة لاسونسكايا ؟ »
« أى نعم لقد حصلت له على منصب مرتبه كبير جداً »

وابتسم ليزنيف فى تهكم وسخرية قائلاً : « هاكم رجالا لن يموت فقيراً ، وإنى أراهن على ذلك »

وانتهى العشاء وانصرف الضيفان ، وأصبحت السيدة ليزنيفا وحدها مع زوجها ، فنظرت إليه والابتسامه تداعب شفثيه ، وتمتمت تقول وهى تربت جبينه فى عجة وود :

« لقد كنت رائعاً اليوم يا حبيبى ؛ لشد ماكنت بارعاً نبيلاً فى حديثك عن رودين ؛ ولكن لا تنكر أنك بالغت قليلاً فى تحمسك فى الدفاع عنه ، كما كنت

تبالغ من قبل في تمسكك للنيل منه »

« لا أستطيع النيل من رجل نبا به الدهر ، وقد كنت في تلك الأيام أخشى أن يدير رأسك » .

وقالت له زوجته بأسلوبها الساذج : « كلا ، فقد كان يبدو لي دائماً أكثر علماً مما أطيق ، وكنت أخشاه ولا أدري ما أقول في حضوره ، نعم ، ثم ألم يكن قبيحاً من بيجاسوف أن يسخر اليوم من رودين ؟ » .

فقال ليزنيف : « بيغاسوف ! إنما انسقت في الدفاع عن رودين لأن بيغاسوف كان موجوداً ، لقد اجتراً فوصم رودين بأنه طفيلي ؛ وعندى أن بيغاسوف أسوأ منه مائة مرة ، إنه رجل أوفى ما يكفيه من أسباب المعاش ، ويسخر من كل إنسان ، ولكن انظري كيف يصانع عليه القوم وذوى البأس منهم ! أتعلمين أن بيغاسوف ، ذلك الذى يسىء إلى كل شيء وكل إنسان نجث بالغ ، ويحمل على الفلسفة وعلى النساء ، كانت تمتد يده للرشوة وهو فى خدمة الحكومة . . . وعلى أى صورة ؟ أجل ، هذه حقيقة » .

وهتفت زوجته : « ما كنت أظن فيه ذلك قط ! ما كنت أتوقع هذا منه ! » ، ثم سكنت لحظة ومضت تقول : « هناك أمر كنت أريد أن أسألك عنه . . . »
« وما هو »

« أتظن أن أخى سيحظى بالسعادة مع ناتاليا ؟ »

« حسناً . . . أغلب الظن أن يتم له ذلك . . . لعمري ولتكونن هى صاحبة الكلمة العليا ، وليس ثم ما يدعونا إلى تجاهل هذه الحقيقة ، فهى أمهر منه وأبرع ،

يبد أنه رجل ولا كالرجال ، وهو يحبها من صميم قلبه ، وماذا يطلب المرء أكثر من هذا ؟ . . .

وما لنا نذهب بعيداً ، ألسنا متحابين ترفرف علينا السعادة ؟ » فابتسمت وضغطت على يده .

وفي اليوم الذى كانت الحوادث التى قصصناها عليك تجرى فى منزل السيدة ليزنيفا ، كانت عربة حقيرة غطيت بالحصير ، يجرها ثلاثة جياذ من جياذ الفلاحين تضرب متناقلة فى قبض الظهيرة مصعدةً تبتاز طريقاً بناحية روسية نائية ، وقد جلس فلاح أشيب الشعر محنى الظهر يرتدى معطفاً مهلهلاً فى مقعد الحوذى ووضع ساقيه جانباً على « سوء اس » العربة ، ولم ينقطع قط عن لطم الجياذ بالعنان المصنوع من الخبال ولف سوطه الصغير القصير ، وجلس تحت سقف العربة رجل طويل القامة يرتدى قبة مستدقة الطرف وعباءة قديمة مغبرة ، وقد استوى على حقيبته الصغيرة الهزيلة ، كان الرجل هو رودين ، وقد جلس منكس الرأس ، وشد قبة قبعته على عينه ، وبدا أنه لا يحس إطلاقاً بتأرجح العربة تأرجحاً عجيباً راح يقذف به من جانب إلى آخر كأنما كان فى غفوة ثم اعتدل فى جلسته آخر الأمر .

وسأل الفلاح الذى كان يعتلى مقعد الحوذى : « ترى هل نصل إلى المحطة فى يوم من الأيام ؟ »

وقال الفلاح متظاهراً بشد العنان : « حسناً يا صديقى ، متى بلغنا قمة التل الذى هناك لا يبقى لنا إلا فيرستان » ، ثم صاح يقول وهو يضرب الجواد الأيمن بسوطه « اصبح ، أترارك تفكر ؟ سأعلمك كيف تفكر ! »

وقال رودين : « أخشى أن تكون سائقاً لا تحسن مهنتك فما زلنا منذ الصباح

نجر أنفسنا جرّاً ولم نبلغ بعد بغيتنا ، ولعلك تغنيننا على الأقل شيئاً »
 « لاحيلة لى فى الأمر يا صديق . فالجياذ على ما ترى منهوكة القوى ، وما أنا
 بمستطيع أن أغنى ، فلست من عمال المحطات الذين يغنون » ، ثم صاح فجأة فى
 عابر طريق يرتدى سترّة قدرة وحذاء من ليف النبات أكل الدهر عليه وشرب :
 « أنت يا هذا الحمل المسكين ، أفسح الطريق أيها الحمل المسكين ! »
 ووقف الرجل ، وشيع الحوذى متمتماً : « يا له من حوذى ظريف ! » ، ثم
 مضى يقول فى صوت غلبت عليه الملامة : « أظن أنه من أهل موسكو ! » ، وهز
 رأسه ثم مضى يسير متقارب الخطى .

وصاح السائق وهو يشد عنان « السوءاس » : « الزم الطريق أنت أيها الشيطان
 الحبيث ! » .

ومضت الجياذ منهوكة القوى فى خطى ثقيلة حتى انتهى بها المسير إلى المحطة ،
 وخرج رودين من العربى يحرق نفسه جرّاً ودفع للفلاح أجره (ولم يمنح له الفلاح بل
 أخذ يقلب النقود فى يده برهة طويلة ، والظاهر أن النفقة التى نفحه بها كانت
 تافهة) ، ثم حمل حقيته بنفسه إلى المنزل .

وقد قال لى مرة صديق أكثر من الطواف فى أنحاء روسيا : إن المرء سرعان
 ما يصيب طلبته من الجياذ إذا وجد جدران المحطة مزدانة بصور تمثل مشاهد من
 « سجين القوقاز » أو صوراً لبعض القواد الروس ، أما إذا كانت الصور تمثل حياة
 جورج دى جرمانى المقامر المشهور فأخلق بالمسافر أن يتخلى عن كل أمل فى الرحيل
 سريعاً ، ذلك أنه سيجد الوقت للإعجاب بمخصلات الشعر المنتصبة لذلك المقامر
 فى شبابه ، وبصداره الأبيض ، وسراويله العجيبة فى إحكامها والتصاقها بجسمه

وقصرها . ووجهه المتقلص المربد . وقد وقف عندما تقدمت به السن في كوخ يعلوه سقف شديد الانحدار . يلوح بكرسى ويقتل به ابنه . وكانت هذه الصور نفسها المأخوذة من قصة « ثلاثون عاماً أو حياة مقامر » ، معلقة على جدران الغرفة التي دخلها رودين ، ونادى رودين صاحب التزل فأجابه رجل يداعب الكرى أجفانه (وبهذه المناسبة هل اتفق لأحد منكم أن رأى صاحب نزل لا يداعب الكرى أجفانه ؟) وقال الرجل في استهتار دون أن يكلف نفسه مشقة انتظار سؤال رودين : إنه ليس لديه جياذ .

وسأله رودين : « ماذا تعنى بقولك : ليس لديك جياذ وأنت لا تعلم من أمر المكان الذى أقصد إليه شيئاً ؟ لقد جئت إلى هنا مستعيناً بجياذ بعض الفلاحين » . فأجاب صاحب التزل : « ليس لدينا جياذ تمضى إلى أى مكان ، ترى ماذا قلت عن مقصدك ؟ » . « أقصد - سك » .

وأعاد صاحب التزل قوله : « ليس لدينا جياذ » . ثم خرج . وشخص رودين إلى النافذة ، وألقى بقبعته على المائدة لما أصابه من غيظ وحنق . وكانت الستان اللتان مرتا به لم تنالا منه كثيراً . إلا أن وجهه غدا شاحباً وخطط المشيب شعره المجعد ، وبدأ أن عينيه اللتين ظللتا على جهالهما . قد فقدتا بعض بريقهما ، وظهرت على شفتيه وعلى وجنتيه وصدغيه تجاعيد دقيقة من فرط ما انتابه من انفعالات مضطربة مريرة . وكانت ملابسه قديمة رثة . لا يشاهد فيها أثراً لقميص ، ولاح للعين أنه قد ودع ربيع العمر . أو أن عوده قد ذوى كما يقول البستاني .

وأخذ رودين يقرأ النقوش التي على الجدران . وهي عادة محبة إلى قلوب
 المسافرين الذين تدرّكهم الملالة والسأم . وإذا بالباب يصرو ويدخل صاحب التزل .
 وقال الرجل : « ليس ثم جياد تمضي إلى . . . سك . ولن تيسر قبل مضي
 مدة طويلة . ولكن ثم جوادين سيعودان إلى . . . أوف »
 وهتف رودين : « إلى . . . أوف ؟ ، ولكنها تبعد كل البعد عن طريق . فإني
 ذاهب إلى بنزا . ولكن . . . أوف فيما أحسب على طريق تمبوف !
 « وأى ضير في ذلك ؟ تستطيع أن تبلغ . . . سك عن طريق تمبوف أو تختصر
 الطريق إليها بوسيلة ما من . . . أوف »
 وتدير رودين الأمر . ثم قال أخيراً : « حسناً ! قل لهم يسرجون الجياد فالأمر
 يستوى عندي . وسأذهب إلى تمبوف »
 وسرعان ما جهزت الجياد . وحمل رودين حقيته الصغيرة ، وتسلق العربة .
 ثم جلس وقد ران عليه اليأس والقنوط كما كان حاله من قبل . وأفصح ظهره المحنى
 عما يساوره من بؤس العاجز واستسلام الحزين المفجوع . ومضت العربة ثقيلة
 الخطى . تتفض وتهتز وأجراسها تصلصل وتجلجل .

خاتمة

ومرت عدة سنوات أخرى .

وكان ذلك في يوم بارد من أيام الخريف ، وقد وقفت عربة من عربات السفر عند درج الفندق الكبير في بلدة س . . . من أعمال الريف ، وهبط منها سيد ، ثم تمطى وهو يتنهد ويشاءب ، ولم يك هذا السيد متقدماً في السن ، إلا أنه كان قد أوتى تلك البسطة في الجسم التي ألف الناس أن يعدوها سمة من سمات الاحترام والمهابة ، وارتقى الدرج إلى الطيقة الأولى ، ووقف في مدخل دهليز واسع ، وتلفت حوله فلم يجد أحداً ، فهتف يطلب غرفة بصوت مرتفع ، وانصفق الباب من مكان ما ، وقفز نُدُل هزيل من خلف دريئة منخفضة وقاد التريل مسرع الخطى يطلع ، وكان ظهره الأملس وكماه المرفوعان تتألق في ضوء الممشى الخافت ، وما إن دخل المسافر غرفته ، حتى خلع معطفه وشاحه ، وجلس على أريكة وأسند يديه المثبتين على ركبتيه ، ثم نظر حوله نظرة وسنائة ، ونادى خادمه ، فانصرف النُدُل يطلع كشأنه ، ولم يكن المسافر إلا ليزنيف ، وقد جاءت به الحملة السنوية للتجديد إلى س . . .

١٩٣

ودخل خادم ليزنيف ، وكان شاباً مجعد الشعر مورد الخد يرتدى معطفاً أشهب وحزاماً أزرق وحذاء طويلاً من اللباد ، فقال ليزنيف : « إيه يا غلام ، ها نحن أولاء قد بلغنا بغيتنا ، ولم تنخلع العجلة التي كنت شديد القلق عليها » وأجاب الخادم وقد أخفت ابتسامته بنية معطفه المرفوعة : « ها نحن أولاء قد بلغنا بغيتنا ، أما السبب في أن العجلة لم تنخلع . . . » وارتفع صوت من الممشى يقول : « هل من أحد هنا ؟ » واعتدل ليزنيف في جلسته وأرهف السمع . وصاح الصوت مرة أخرى يقول : « أنتم يا من هناك ! » ونهض ليزنيف ، ومضى إلى الباب ، ودفعه فانفتح . وألقى أمامه رجلاً متصباً طويلاً القامة محدودب الظهر أتى المشيب على شعره كله أو كاد ، وقد ارتدى سترة قديمة من المخمل لها أزرار من نحاس ، وعرفه ليزنيف في الحال

فهتف : « رودين ! » ، والتفت رودين ، ولم يستطع أن يميز ملامح ليزنيف ، لأن ليزنيف كان يقف وظهره إلى الضوء ، فأخذ ينظر إليه متعجباً .

وسأله ليزنيف : « ألا تعرفني ؟ »

فصاح رودين : « ميخائيل ميخائيلوفتش ! » ، ومد إليه يده ، ثم تردد ، وسحبها مرة أخرى ، وأسرع ليزنيف وأمسك بها بكلتا يديه .

وقال رودين : « تعال ، تعال إلى غرفتي » ، وأدخله غرفته ثم قال ليزنيف بعد سكون دام برهة قصيرة وهو يخفض صوته كرها عنه : « لقد تغيرت كثيراً ! » فأجاب رودين ، وعيناه تجولان في الغرفة : « نعم ، هكذا يقولون ، والسنوات

تغير ، ولكنك لم تتغير قط ، كيف حال ألكسندرة . . . زوجتك ؟ »
 « إنها بخير وشكرا لك ، ولكن ماذا تفعل هنا ؟ »
 « أنا ؟ إنها قصة طويلة ، ولعمري لقد هبطت هذا المكان مصادفة . كنت
 أبحث عن رجل أعرفه ، ومع ذلك فإني سعيد كل السعادة . . . »
 « أين تتناول غداءك ؟ »
 « أنا ؟ لست أدري ، في أى مطعم . فإني مضطر أن أغادر البلدة اليوم »
 « مضطر ؟ »
 « وابتسم رودين ابتسامة ذات مغزى : « أجل . مضطر . فإنهم سيحملونني إلى
 قريتي لأقيم فيها .
 « فلتتناول الغداء معي »
 « والتقت نظرات رودين ونظرات ليزنيف للمرة الأولى . وقال له : « أوتدعوني
 لتناول الغداء معك ؟ »
 « أجل يا رودين . كشأنا في الأيام الخوالي . وكخير الأصدقاء . أوقد اتفقنا ؟
 ما كنت أتوقع أن أراك ، ويعلم الله متى يقيض لى أن ألقاك مرة أخرى ، ولا يمكن
 أن نفترق على هذا النحو ! »
 « لا بأس . وإني لأوافق »
 « وضغط ليزنيف على يد رودين . ونادى خادمه وأمره بإعداد الغداء . وأن
 يثلج زجاجة من الشمبانيا .
 « وراح ليزنيف ورودين يتحدثان في أثناء الغداء . كأنها قد اتفقا على ذلك
 ضمناً : يتحدثان عن أيام الدراسة . ويذكran كثيراً من الأحداث ، والناس أحياء

١٩٥

وأمواتا ، والتزم رودين جانب التحفظ أول الأمر . إلا أن الدم جرى في عروقه بعد أن تناول كتوساً قليلة من الخمر . وجاء النذل بالطبق الأخير . ونهض ليزنيف وأغلق الباب واتخذ مجلسه أمام رودين وجهاً لوجه . ثم أسند ذقنه على يديه في هدوء . وأنشأ يقول : « وبعد ، فلتحدثني بكل ما وقع لك منذ التقينا آخر مرة » .

ونظر رودين إلى ليزنيف

وعاد ليزنيف يحدث نفسه قائلاً : « يا إلهي ! لشد ما تغير هذا البائس المسكين ! »

ولم تتغير ملامح رودين إلا قليلاً منذ افترقنا عنه في المحطة . بالرغم من أن الكبر المحيى به كان قد ألقى عليها ظلاله . ومع ذلك فإنها كانت تفصح عن شيء آخر لم نعهده فيه . لقد تبدلت نظرات عينيه . بل إن كيانه كله . والطريقة التي كان يتحرك بها متكاسلاً تارة ومتمفضاً تارة أخرى . ثم حديثه الذي فقد حميته وغشيه الانكسار والفتور - كل أولئك كان يتم عن ملل مضمّن وحزن دفين صامت لا يشبه في شيء أبداً تلك الكتابة المشوبة بالانفعال التي كان يتظاهر بها من قبل ، شأنه في ذلك شأن جميع الشبان الذين يملأ صدورهم الأمل والاعتزاز بالنفس في براءة وسذاجة .

وقال رودين : « أحدثك بكل ما وقع لي . لا أستطيع أن أقص عليك كل شيء . ولست أرى ضرورة لهذا . . . لقد شقيت كثيراً ، وأبعدت في الرحلة والتجول . لا بالجسم فحسب بل بالروح أيضاً - رباه ! لشد ما خاب مني الرجاء في الناس وفي الأشياء ! ويا للصلوات التي لا آخر لها ! » ، ثم ردد قوله (وقد لاحظ أن ليزنيف ينظر في عينيه بعطف عجيب) « أجل . لا آخر لها ! وما أكثر

ما عصنتي كلماتي ، فلم تجمد على شفتي فحسب ، بل جمدت على شفاه قوم كانوا يشاركونني في آرائي ! وما أكثر ما استحالت شكاسة الطفل عندى إلى بلاده في الحس أشبه ببلادة الجواد يضرب بالسوط فلا يهترله ذيل ! وما أكثر ما هزنى الفرح وداعبني الأمل ، وشهرت الحرب على الناس ، وأذلت نفسى ، فما عاد ذلك على بشيء ! وما أكثر ما كنت أنقض كالنسر الجسور وأرتد متخاذلاً كالقوقعة تحطمت صدفها ! فأين أين الآفاق التي لم أجها ؟ وأين أين الطريق الذي لم أسلكه ؟ ، ثم أردف رودين مشيحاً بنظراته : « فهل تعلم أيها السيد . . . »

وقاطعه ليزنيف قائلاً : « أفصح ، فما كنا نصطنع فيما بيننا هذا التكلف في الأيام الخالية . . . فلنستعد تلك الأيام ، ولنشرب نخب الأخوة ! » وتشدد رودين ، وانتصب واقفاً ، وكانت النظرة العابرة إلى عينيه أفصح من كل كلام .

وأجاب رودين : « أجل ، شكراً يا أخى ، ولنشرب نخب الأخوة ! » وأفرغ ليزنيف ورودين كأسيهما .

واسترسل رودين يقول مبتسماً وقد أسقط لفظ « يا سيد » ، « ألا تعلم أن بين جوانحي ناراً لا تنفك تنهشني نهشاً وتأكل لحمي أكلاً ، فلا أشعر بالهدوء أبداً ، وتحملني على النيل ممن يقعون في أول الأمر تحت سلطانى ثم . . . » ، وأوماً رودين بيده إيماء قطع بها حديثه ، ثم أردف : « مذ لقيتك آخر مرة يا سيد . . . بل مذ افترقنا وأنا ماضٍ أضرب في خضم الحياة وأجرب أموراً كثيرة . . . فقد كنت بين الفينة والفينة أبدأ الحياة من جديد ، وأخطو خطوة جديدة ، وإنك لتستطيع أن ترى بعينيك إلى أين انتهى بي المطاف ! »

وقال ليزنيف كمن يفكر بصوت عال : « إنما كانت تنقصك قوة الاحتمال »
 « لقد كنت على ما قلت مفتقراً إلى قوة الاحتمال ، ولم أخلق قطّ بناءً ، وكيف
 يتاح للمرء ، بربك ، أن يبني ويشيد والأرض من تحت قدميه هشة لا صلابة فيها ؟
 بل كيف يتأتى له ذلك وهو مضطر أن يضع الأساس لنفسه أولاً ؟ لن أحاول أن
 أصف لك كل ما خضته من مغامرات ، أو كل ما أصابني من خذلان ، بل
 سأحدثك عن حادثين أو ثلاثة ، وأعني بها تلك الوقائع من حياتي التي بدا لي منها
 أن الزمن قد أخذ يتسم لي آخر الأمر ، أو أن النجاح فيها كان يراود نفسي بتعبير
 أدق ، وبين الأمرين فارق ملحوظ »

وأصلح رودين من شعره الأشيب ، الذي كان قد نحل ، على نحو ما عهدناه
 فيه عندما كان يدفع خصلات شعره الأسود الكثيفة إلى الوراء .

وأنشأ يقول : « حسناً ، أنصت إلي ، لقد وقعت في موسكو على سيد فيه من
 غرابة الأطوار شيء كثير ، ولم يك هذا السيد يعمل في خدمة الحكومة ، بل كان
 رجلاً واسع الثراء يمتلك ضياعاً واسعة ، وقد شغل قلبه وملك عليه حياته شيء
 واحد هو حب العلم ، حب العلم عامة ، ولست أفهم حتى اليوم كيف نما في قلبه
 هذا الحب ؟ هذا الحب الذي اختلط بدمه واحتواه احتواء السرج للبقرة ، وما بي
 شك أن عقله لم يبلغ المستوى الذي كانت تصبو إليه نفسه ، لقد كان يعجز عن
 الكلام أو يكاد ، وكل ما كان يستطيعه هو أن يدير عينيه دوراناً معبراً ، ويهز رأسه
 في رزانة ووقار ، ولم أصادف قطّ يا صديقي رجلاً أقل منه ذكاء ولا أغنى منه
 عقلاً . . . ، وفي ناحية سمولنسك أماكن لا تجد فيها إلا راملاً وبعض العشب
 متناثراً هنا وهناك يأنف أي حيوان أن يصيب منها شيئاً ، وكان كل شيء يحاوله

الرجل يخيب فيه خيبة ذريعة ، كان كل شيء يروغ منه ويفلت من قبضته . وخاصة أنه كانت تتملكه نزوة تحمله على أن يجعل من الشيء اليسير عسيراً ، وصدقني أن الأمر لو كان بيده لجعل الناس يأكلون بكعوب أقدامهم لا بأفواههم ؛ كان يكدح ويكتب ويقرأ بهمة لا تعرف الكلل ، وكان ينحطب ود العلم في شيء من الإصرار العنيد والمثابرة التي لا هواده فيها ، ولم يكن لغروره حد ، وكانت إرادته من حديد ، وقد عاش في عزلة وعرف بغربة الأطوار .

« عرفته ، ومن عجب أنه مال إلى . ولا أخفى عنك أنني سرعان ما أدركت تفاهته ، ولكن تعصبه لرأيه أثر في نفسي . ثم إن موارده كانت من الجسامة والوفرة حتى كان من المستطاع تحقيق الخير الكثير على يديه ، وأقيمت معه ، ثم صحبتته آخر الأمر إلى ضيعته في الريف . لقد كانت خططي يا صديقي عظيمة ، رحت أنجيل ضرورياً شئ من الإصلاح والتجديد . . . »

وقال ليزنيف وهو يتسم ابتسامة ثم عن سلامة الطوية « كما فعلت في منزل السيدة لاسونسكايا »

« كلا ، كلا فقد كنت عندها أحس في قرارة نفسي أن كلماني تذهب سدى ، أما في هذه المرة . . . أما في هذه المرة فقد تهيأت لي فرصة عظيمة . . . وحملت معي عدداً كبيراً من الكتب التي تبحث في الزراعة ، ولا أخفيك أنني لم أقرأ واحداً منها حتى نهايته ، ثم شرعت في العمل ، ولم تجر الأمور بادئ ذي بدء على ما أشتى ، ولكنها استقامت فيما يظهر من بعد ، وكان صديقي الذي اكتشفته حديثاً يرقب ما أفعل ولا يقول شيئاً ، لم يكن يدس أنفه في أموري بالقدر الذي ينجم عنه ضرر ، وكان يأخذ باقتراحاتي ، ولكنه كان يفعل ذلك في نفور بالغ .

ويلازمه شك ملح خنى . ثم يعود دائماً أبداً إلى سابق عهده ، ذلك أنه كان يعتز
أياً اعتزاز بكل فكرة من أفكاره ، ويكابدها مكابدة تقتضيه أشد الجهد وأعنفه .
مثله كمثل أنثى الطير تعتلى نصل عشب من العشب تقبع عليه وتسوى جناحيها
بمنقارها مهيئة للطيران . ثم لا تلبث أن تسقط . وتبدأ كل ذلك من جديد . . .
ولا يأخذتك العجب من هذه المقارنات . فقد ظلت تساور نفسى منذ ذلك
الحين . وهكذا كافحت سنتين ، وسار العمل سيراً سيئاً بالرغم من كل ما بذلت
من جهود . وبدأت أضيق بهذا كله . فقد أضجرتى صديق وبعث فى نفسى اللالة
والسأم . فجنحت إلى التهمك ، كان يضيق على الأنفاس كأننى أرقد فى فراش من
ريش ، واستحال عدم ثقته فى إلى تبرم صامت ، وطنى على نفس كل منا شعور
من الحقد المتبادل فلم نعد نستطيع أن نناقش أمراً من الأمور بهدوء . وكان لا ينفك
يحاول بطريقة خفية أن يبين لى أنه قد برم بنفوذى إما بتشويه خططى أو بإلغائها
إلغاءً . وتجلى لى آخر الأمر أننى إنما كنت طفيلياً يوفى لى المأكل والمسكن نظير
ما أكفله للسيد المالك من رياضة عقلية ، وكان يمز فى نفسى ما اتضح لى من أننى
أضيع وقتى وجهدى سدى . وأن آمالى قد أنهارت مرة أخرى . والشئ الوحيد
الذى كنت أعلمه حق العلم هو مقدار ما يصيبنى من خسارة بالتخلي عن عملى .
بيد أننى لم أعد أحتمل السكوت على هذه الحال . وقد حدث ذات يوم أن
شاهدت منظرأً أليماً تشمئز منه النفس أظهر صاحبه فى صورة كرهية جداً . فتشاجرنا
مشاجرة كانت هى الأولى والأخيرة ، ورحلت تاركاً ذلك السيد المتحذلق الذى
صنع من عجينة اختلط فيها الدقيق الروسى والعسل الأسود الألمانى . . .
وتتم ليزنيف وقد وضع كلتا يديه على كفى رودين : « أى أنك تركت

ما يكفل لك أسباب القوت »

« أجل ، وجدت نفسى مرة أخرى خالى الوفاض جائعاً أضرب فى الفراغ حراً
أنطلق حيث أشاء... إيه ، فلنشرب ! »

وقال ليزنيف وهو ينهض ويقطع قبلة على جبين رودين « فى صحتك ، فى
صحتك وفى ذكرى بوكورسكى ، فقد أوتى هو أيضاً الشجاعة على احتمال الفقر .
وسكت رودين برهة وجيزة ثم قال : « كانت هذه إذن هى المغامرة » رقم
واحد « أو أمضى فى الحديث ؟ »

« أرجوك أن تفعل »

« تالله إن نفسى قد عافت الكلام ، وسمعت الحديث يا صديقى ! ولكن ليكن
ما تريد ، لقد انطلقت من بعد أضرب فى أماكن أخرى مختلفة ، وقد يحمل فى أن
أنبتك فى معرض هذا الحديث كيف أصبحت كاتب سر موظف إمبراطورى سليم
الطوية ، وما انتهى إليه أمرى معه ، إلا أن ذلك يخرج بنا عن الموضوع
كثيراً ، ... أقول إننى اضطلعت بأمور عدة ثم عقدت العزم على أن أصبح آخر
الأمر - وأرجوك ألا تضحك - رجلاً من رجال الأعمال ، رجلاً ينظر إلى الأمور
بمنظار الواقع ، وشاءت المقادير أن أتعرف برجل يسمى كورييف ، ولعلك سمعت
عنه ، ألا تستبين من الاسم شيئاً ؟ »

« كلا ، لم أسمع به قط ، ولكن بالله عليك يا رودين كيف فاتك ، وأنت
الرجل الذكى الأريب ، أنه ليس من عملك أن تكون رجل أعمال ، وعفواً لهذا
الجناس ؟ »

« أعرف أن ذلك ليس من عملى ، ولكن ترى ما عملى ؟ » كنت أتمنى أن

٢٠١

تري كورييف ، وأرجو ألا يذهب بك الظن إلى أنه رجل ثرثار كالطبل الأجوف (يقولون : إنني كنت فصيحاً في يوم من الأيام) ولكنني لو قورنت به ما كنت شيئاً ، فقد كان رجلاً عجباً في عمله ، رجلاً لَوذعياً ، له عقل مبدع يا صديقي في التجارة والصناعة . لقد كان رأسه حافلاً بأعظم المشروعات جرأة . وأشدها ابتعاثاً للدهشة والعجب ، فوضعت يدي في يده وقررنا أن نكرس أنفسنا لعمل من الأعمال التي تعود على الجمهور بالخير . . . » .

« أفلا تحدثني عن هذا العمل ؟ »

ونخفض رودين بصره وأجاب بقوله : « سيحملك ذلك على الضحك »
« عجباً ! لن أضحك »

فقال رودين مبتسماً ابتسامة يغلب عليها الحياء :

« لقد قررنا أن نمهد نهراً في ناحية ك - آيا ونجعله صالحاً للملاحة »

« بشس ما فعلت ! إذن فقد كان كورييف هذا رأساً مالياً ؟ »

فأجاب رودين وهو يحن رأسه الأشيب خائر العزم مكتئباً : « لقد كان أشد فقراً مني » .

وانفجر ليزنيف ضاحكاً ، ولكنه أمسك بغتة ، وأخذ بيد رودين ثم قال :

« أرجوك أن تصفح عني يا صديقي ، فقد أخذت على غرة ، حسناً ، ولا شك

أن مشروعك قد ظل حبراً على الورق »

« لم يكن الأمر كما تقول بالضبط ، فقد شرعنا نضع خططنا موضع التنفيذ ،

فاستأجرنا العمال ثم بدأنا العمل ، وسرعان ما صادفتنا عقبات شتى ، ذلك أن

أصحاب المطاحن لم يكونوا راضين عن المشروع . وأشد من هذا وأنكى أننا كنا

عاجزين عن تسوية النهر للملاحة وقد خلا وفاضنا من الآلات ، وما كنا لنستطيع شراء الآلات بالمال القليل الذى تيسر لنا ، فعشنا ستة أشهر فى أكواخ من الطين ، وكان كوريبيف يعيش على الخبز دون سواه ، أما أنا فلم يكن لدى من الزاد إلا القليل ، على أنى لست نادماً على ما فعلت ؛ فقد كانت مناظر تلك الناحية رائعة ، ومضينا فى كفاحنا وحاولنا أن نثير فى التجار الاهتمام بمشروعنا ، وكتبنا الخطابات والمنشورات ، وانتهى الأمر بإنفاق آخر كويك فى جيبى على المشروع .

وقال ليزنيف : « لم يكن هذا بالأمر العسير فيما أحسب ! »

« لم يك حقاً بالأمر العسير ! »

ونظر رودين من خلال النافذة : « ولكننى أقسم أن المشروع لم يك سيئاً ، ولعله كان حريئاً بأن يسفر عن خير عميم »

وسأله ليزنيف : « وما الذى حدث لكوريبيف ؟ »

« إنه فى سيريا الآن يبحث عن الذهب ، وسترى أنه سيواتيه حظه من بعد ،

ولن يصاب بالخذلان »

« ربما واثاه حظه ، أما أنت فلن يواتيك حظك أبداً . »

« أنا ؟ واعجباً ! ، ولكن لا غرو فقد كنت تحسبني دائماً لا أصلح لشيء . »

« أنت - لا تصلح لشيء ! على رسلك يا صديق ؛ صحيح أنه قد مر بى زمن

لم أتبين فيه إلا نواحي الضعف فيك . ولكنى أؤكد لك أننى قد عرفت مقدارك

حقاً ، إنك لن تصيب حظك . . . ومن أجل ذلك أحبك ، أحبك حقاً . . . »

وابتسم رودين ابتسامة فاترة ثم قال : « حقاً ؟ »

٢٠٣

وردد ليزيف : « إني أحترمك من أجل ذلك . ولا شك أنك تدرك ما أعنى » .

ولاذ الرجلان بالصمت برهة

« حسناً . هل لى أن أنتقل إلى المغامرة « رقم ثلاثة ؟ »

« افعل ولك الفضل . »

« حسناً جداً . إذن . أما المغامرة الثالثة والأخيرة فقد خرجت منها منذ عهد

قريب . ولكن أأست أبعث فى نفسك الملالة والسأم ؟ »

« امض فى حديثك . »

فاسترسل رودين يقول : « لقد طرأ لى فى لحظة من لحظات الخمول والكسل .

وما أكثر ما تحلّ بى هذه اللحظات ، أننى تدبرت أمر نفسى كما يقولون ، ووجدت

أننى رجل واسع العلم أسعى لخير الناس . . . أترك تنكر على هذا ؟ »

« كلا وإيم الحق »

« لقد حلت بى الحيرة فى كل ما عدا ذلك من أمور . . . فلم لا أغدو معلم

أحداث ، أو مدرساً إذا شئت الوضوح ؟ ومالى أضيع حياتى هباءً ؟ . . . » ونخت

صوت رودين رويداً رويداً وانتهى بزفرة ، ثم مضى يقول : « ومالى أضيع حياتى

هباءً على حين أنه يجدر بى أن أسعى إلى تلقين غيرى ما أصبت من علم ، لعلهم

يفيدون منه بعض الفائدة ؟ ودار فى نفسى أن كفاياتى فوق المستوى العادى ، ثم

إننى أوتيت فوق ذلك لساناً ذلقاً يضطرب فى رأسى ، فصح عزمى على أن أكرس

نفسى لهذا العمل الجديد ، ووجدت مشقة كبيرة فى الحصول على وظيفة ، ذلك

أننى لم أشأ أن أعطى دروساً خاصة ، ولم يكن فى مقدورى أن أصنع شيئاً فى

المدارس الأولية ، وأفلحت آخر الأمر في الحصول على وظيفة مدرس في المدرسة الثانوية هنا .

وسأله ليزنيف : « وأى مادة كنت تدرسها ؟ »

« الأدب الروسى ، ولا أكتمك أنى ما أقبلت على عمل بمثل هذه الغيرة والحماسة ؛ فقد كانت صياغة عقول الشباب من الأفكار التى تلهمنى ، وقضيت ثلاثة أسابيع أكتب المحاضرة التى أستهل بها دروسى »

وقاطعه ليزنيف قائلاً : « ألدك نسخة منها ؟ »

« كلا لقد فقدتها فى مكان ما ، وكانت محاضرة جيدة نجحت نجاحاً كاملاً ، . إنى لأستطيع الآن أن أتمثل وجوه الحاضرين - وجوهاً شابة لطيفة تضيئها أمارات لانتباه الجاد ، ويشوبها العطف ، بل التعجب ، وارتقيت المنصة وألقيت محاضرتى وأنا كالحموم ، وحسبت أنها ستستغرق أكثر من ساعة ، إلا أننى قرأتها فى عشرين دقيقة ، وكان المفتش حاضراً ، وكان شيخاً نحيلاً يضع على عينيه عويينات ذات إطار من الفضة ويرتدى شعراً مستعاراً قصيراً ، وكان يجهد نفسه من حين إلى حين فيميل إلى الأمام ليسمعنى فى جلاء ووضوح ، وفرغت من إلقاء محاضرتى ، وقفزت من كرسى فقال لى : « أحسنت ، ولكن المحاضرة أقرب إلى التهويل والمبالغة والغموض ، ولم تتناول الموضوع إلا لماماً » ، إلا أننى أؤكد لك أن الطلبة كانوا يتبعوننى بنظرات تم عن الاحترام ، وهذا هو الشيء الرائع حقاً فى الشباب ؛ وكتبت محاضرتى الثانية ، والثالثة . . . ثم أخذت أرئجل الكلام من بعد » .

« وهل نجحت ؟ »

« نجحت نجاحاً باهراً ، ورحت ألقهم كل ما كان فى جعبتى من علم ، وكان

ثلاثة فتيان أو أربعة منهم مدهشين حقاً . أما بقيتهم فقد تعذر عليهم أو كاد أن يفهموا عني شيئاً قط ، على أنني لا أنكر عليك أن أولئك الذين فهموا عني كانوا في بعض الأحيان يثيرون في نفسى الحيرة والاضطراب بما يوجهون إليّ من أسئلة . إلا أن ذلك لم يفتّ في عضدى ، لقد كانوا جميعاً يحبوننى ، وكنت أمنحهم جميعاً الدرجات النهائية في الامتحانات ، ولكن لاحت في الجودسية دبرت لى . كلا . لقد أخطأت التعبير ، فلم يكن ذلك دسية ، وغاية ما فى الأمر أنني لم أكن فى حالتى الطبيعية ، لقد أوقعت غيرى فى حيرة ، ووقعت أنا فيها . كنت أحاضر طلبة المدرسة الثانوية على نحو لم يعهده طلبة الجامعة إلا نادراً ، ولم يفد المستمعون من محاضرتى إلا القليل ، وكنت أنا نفسى أعرف الحقائق ، ولكن معرفتى بها كانت ناقصة ، ثم إننى لم أكن راضياً عن المنهج الذى كلفت أن أنهض بالتدريس فى حدوده ، وهذا فيما تعلم من نواحى الضعف فىّ ، لقد كنت متعطشاً إلى استحداث إصلاحات جوهرية ، وأقسم أنها كانت إصلاحات عملية ممكنة التحقيق ، وكنت أرجو أن أضعها موضع التنفيذ بمعاونة ناظر المدرسة ، وهو رجل فاضل أمين كان لى عليه أول الأمر شىء من السلطان ، وعاونتنى زوجه ، ولم أصادف فى حياتى يا صديقى إلا القليل من هذا الطراز من النساء ، كانت قد تجاوزت الثلاثين بكثير ، إلا أنها كانت تؤمن بالخير والصلاح ، ونحب كل ما هو جميل حباً حاراً لا تنجده إلا فى ابنة الخامسة عشرة ، وكانت لا تهاب التصريح بما تعتقد أمام أى إنسان مهما كان شأنه ، وإن أنس فلا أنس غيرتها الخالصة ونفسها الطاهرة . ورسمت خطة بناءً على مشورتها ... إلا أنهم نصبوا لى شركاً بالخط من شأنى أمامها ، فقد كان مدرس الرياضيات رجلاً حقيراً حاد الطبع غَضُوباً ، لا يؤمن بشىء . مثله مثل

بيجاسوف ، إلا أنه كان أقدر منه بكثير . وألحق بي هذا الرجل أبلغ الضرر... وبهذه المناسبة كيف حال بيجاسوف ؟ . هل هو على قيد الحياة ؟ . « أجل ، ولكن أيدور بخلك أنه تزوج امرأة من أهل المدينة تضربه على ما تقول

الشائعات ؟ »

« إنه يستحق ما يلقي . حسناً . وهل تنعم ناتاليا لاسونسكايا بصحبة جيدة ؟ »

« أجل »

« أسعيدة هي ؟ »

« أجل »

ولاذ رودين بالصمت لحظة قصيرة . ثم قال :

« إلى أين بلغ بي الحديث ؟ أى نعم . مدرس الرياضيات . لقد تولد في نفسه الحقد على . وشبه محاضراتي بالصواريخ . وكان يقيم الدنيا ويقعدها إذا شاب عبارة واحدة من عباراتي أى غموض . وقد اكتشف مرة خطأ في إشارة عن ملحمة من ملاحم القرن السادس عشر . وأسوأ ما رمانى به هو بذور الشك في نواياي . ودق آخر مسمار في نعشي فقضى على . ذلك أن المفتش الذى عجزت عن التفاهم معه منذ البداية . قد أثار ناظر المدرسة على . ووقعت الواقعة بيني وبينه . وأبيت أن أذعن له واستشطت غضباً . واتصل الأمر بذوى الشأن . فأكرهت على الاستقالة . ولم أترك الموضوع عند هذا الحد . بل أردت أن أبين للقوم أنه لا يمكن معاملتي على هذه الصورة . . . ولكن الأمر انتهى على هذه الصورة . . . وكان لابد لي حينئذ أن أغادر هذه البلدة »

ولزم رودين الصمت . وجلس الصديقان منكسي الرأس .

وكان رودين أول من تكلم وقال : « أجل يا صديقي . أستطيع الآن أن أردد قول كولتسوف^(١) : « إيه يا شباني . لقد أترعت قلبي بالألم حتى ضاقت بي سبل الخلاص جميعاً » . ولكن أتراني حقاً لا أصلح لشيء . ولا أستطيع أن أنهض بشيء في هذا العالم ؟ ألا ما أكثر ما سألت نفسي هذا السؤال ! ومها بلغ من تحقيري لنفسي في نظر نفسي فأني لا أملك إلا الشعور بأن في أعماقي قوى لم توهب للناس جميعاً . فلماذا تظل هذه المواهب إذن عقيمًا لا تثمر ؟ ثم إني لأذكر الأوقات التي قضيتها أنا وأنت في خارج البلاد . لقد كنت حينئذٍ منافقاً ممتلي النفس بالغرور . والحق أنني لم أكن أدرك وقتئذٍ ما أريد حق الإدراك ؛ كنت أطرب للألفاظ وأستعديها وأجد في أثر الأشباح والأوهام . ولكنني الآن والله على ما أقول شهيد . أستطيع أن أجهر أي إنسان بما أريد . وليس عندي قط ما أخفيه ، بل إني الآن رجل حسن النية بأدق ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، وأنا على استعداد لإذلال نفسي والمواءمة بينها وبين الظروف ، ولست أبتغي إلا القليل . أريد أن أبلغ أقرب هدف إليّ ، وأن أنفع الناس بعض النفع مها كان حظهم من التفاهة . ولكن ذلك يتأني على فلا أستطيعه . فما السر في ذلك ؟ وما الذي يتحول بيني وبين الحياة والعمل كغيري من الناس . . . ؟ إن هذا هو كل ما يراودني الآن . على أنني ما إن انتهت إلى وضع من الأوضاع واستقرت عند نقطة بعينها حتى يتزعجني القدر انتزاعاً . . . لقد بدأت أخشى مصري . . . فما حيلتي في هذا ؟ حل لي هذا اللغز ! » .

وردد ليزنيف قوله : « لغز حقاً ! أجل ، إنك كنت دائماً لغزاً في عيني حتى

(١) كولتسوف (١٨٠٩ - ١٨٤٢) . شاعر ديمقراطي من فحول الشعراء . وقد أخذ هذا البيت من قصيدته « مفترق الطرق » (١٨٤٠) - المترجم .

في شبابك ، فقد كنت إذا وقع أمر تافه تنطلق بغتة في الحديث فتملك على شغاف قلبي ، ثم . . . وأنت تعلم ما أعنى . . . بل إنني كنت أعجز عن فهمك حيثنذ ، ولهذا بدأت أكرهك ، إن مواهبك عظيمة جداً ، وسعيك في سبيل المثل الأعلى لا يقل ولا يعل . . . »

وقاطعه رودين قائلاً : « كلمات ، إن هي إلا كلمات ! كلمات لا يتحقق من ورائها شيء ! »

« يتحقق ؟ وأي شيء وراءها كان خليقاً بالتحقيق ؟ »
 « أي شيء ؟ أن يعمل المرء ويعول امرأة عجوزاً كفيفة البصر هي وأسرتها جميعاً كما فعل بريازنتسوف على ما تذكر ، وهذا شيء تحقق »
 « أجل . ولكن الكلمة الطيبة هي أيضاً عمل طيب »
 ونظر رودين في صمت إلى ليزنيف وهز رأسه في بطء وتمهل ، وكان ليزنيف على وشك أن يقول شيئاً ، ولكنه مر بيده على وجهه . وسأله آخر الأمر : « والآن أذهب أنت إلى قريتك ؟ »

« نعم »

« ولكن أتعني القول بأنك مازلت تملكها ؟ »
 « مازال بعضها ملكي ، وعندى بعض العبيد وركن تنوى إليه عظامي ، ولعلك تحدث نفسك في هذه اللحظة قائلاً : « ها هو ذا لا يستطيع حتى الآن أن يستغنى عن اللفظ الحسن ! » ، صحيح أن الألفاظ كان فيها دماري والقضاء على ، ومع ذلك فإني لا أستطيع إلى اليوم الخلاص منها ، على أن ما قلته الآن لا يعد ألفاظاً فحسب ، وما هذا الشعر الأبيض وهذه التجعيدات وهذا

المرفقان الهزيلان بألفاظ تقال ، لقد كنت دائماً تقسو في الحكم على ، إلا أنك كنت تصيب جادة الحق ، ولكن ما جدوى ذلك الآن ؟ وقد انتهى كل شيء ، وأقفر المصباح من الزيت ، وأخذت ذبالبته تحبو وتحمد . . . ولا بد يا صديقي أن يأتي الموت أخيراً فيصلح . . . »

وقفز ليزنيف من مقعده وصاح قائلاً : « رودين ! ما بالك تقول لي هذا القول ؟ وهل أستحق ذلك منك ؟ فمن أكون بين القضاة حتى أجلس مجلس الحكم على الناس ؟ وماذا تكون صفتي بين الرجال إذ أرى الحدود الغائرة والتجاعيد الملعة فأفكر في الألفاظ الحسان ؟ أنحب أن تعرف رأيي فيك ؟ إليك إذن قولي : هاكم رجلاً قد كفلت له مواهبه كل مطلب لو أراد ، فأى شيء يتمتع عليه ؟ وأى كثر من كنوز الأرض يقف دونه ؟ ولكني أراه جائعاً ، شريداً . . . »

وقال رودين في صوت أجوف : « إنك ترى الحالى »
« كلا ، إنك مُخطئ في ذلك ، وإنما أنا أحترمك ، وهذا كل ما في الأمر ، فما الذى كان يحول بينك وبين الإقامة سنة بعد أخرى مع ذلك المالك صديقك ، الذى لا شك عندي في أنه كان خليقاً بأن يعينك على التوفيق في حياتك لو أنك تخليت عن طبيعتك لإرضائه ؟ ولماذا تعثرت خطواتك في المدرسة الثانوية ؟ ولماذا أيها الرجل العجيب كنت تحتم دائماً كل مشروع تكرس له نفسك ، مهما كانت بواعثك إليه ، بتضحية مصالحك الخاصة ، ورفضك التمكين لنفسك في تربة غريبة عليك مهما كان حظها من الحصب والنماء ؟ »

فقال رودين ، وعلى شفثيه ابتسامة حزينة : « لقد فطرت على أن أكون حجراً دوّاراً ، ولا أستطيع الكف عن الدوران »

« صحيح ، ولكن ليست علة ذلك هي النار التي ترعى بين جوانحك على حد قولك . . . إنها ليست ناراً خبيثة ولا هي بروح من القلق الحامل ، بل هي حب للحق ملتهب يضطرم بين جوانحك ، وإني لأحسب على الرغم من جميع أوهامك أنه أشد اضطراباً في نفسك منه في نفوس كثير من أولئك الذين لا يرون ما هم فيه من « أنانية » ، وربما رموك بأنك أفاق ، ولو أنني كنت في موضعك لأطفأت منذ زمن بعيد تلك النار الخبيثة التي تنهش قلبي ، ورضت نفسي على كل أمر ، أما وهذه النار لم تفسد عليك جوانب نفسك جميعاً ، فإني لوائت أنك على استعداد حتى الآن للبدء في مشروع جديد بكل ما أوتي الشباب من غيرة وحمية »

وغمغم رودين : « كلا يا صديقي ، لقد حل بي التعب الآن ، وحسى ما لقيت »

« التعب ! لو أن أي شخص آخر لقي ما لقيت لطواه الموت منذ زمن بعيد ، وأنت القائل إن الموت يصلح الأمور ، أفلا تظن أن هذا يصدق أيضاً على الحياة ؟ إن من عاش ولم تعلمه الحياة أن يكون سمحاً كريماً مع الناس فهو خليق ألا يلقى منهم سمحة ولا كرم ، ومن ذا الذي يجرؤ على القول بأنه في غنى عن سمحة الآخرين وكرمهم ؟ لقد بذلت كل ما في وسعك وناضلت حتى النهاية . . . فأى شيء كنت مستطيعاً أن تفعله أكثر مما فعلت ؟ لقد اختلفت بنا السبل . . . »

فقاطعه رودين وهو يتهدد : « أنت يا صديقي شخص تختلف عني كل الاختلاف »

واسترسل ليزنيف يقول : « لقد اختلفت سبلنا ، ولعل علة العلل في ذلك أن حظي الموفق وفتور همي وغير ذلك من الظروف السعيدة ، لم تمنعني من أن

أضم يديّ إحداهما إلى الأخرى ثم أضعهما في حجرى وأترؤى في مقعد المتفرجين .
أما أنت فلم تجد بداً من أن تخرج إلى الميدان . وتشمر عن ساعدك وتعمل ، لقد
اختلفت سبلنا . . . ولكن انظر كيف أن كلينا وثيق الصلة بصاحبه ، فنحن نتكلم
لغة واحدة أو نكاد . ويفهم كل منا صاحبه للوهلة الأولى ، وقد شببنا ونحن نؤمن
بمثل واحد ولم يبق منا إلا نفر قليل يا صديقى . والحق أننى أمثل أنا وأنت آخر سلالة
من أهل البلاد الأقدمين الأصلاء ، وقد كنا فى الأيام الحالية نستطيع أن نختلف بل
نتقاتل . لأن فسحة الحياة كانت ممتدة أمامنا . أما الآن . فإن صفوفنا ترق .
والأجيال الجديدة تمر بنا . عاقدة العزم على بلوغ أهداف غير أهدافنا . وما أحرانا
أن نتماسك كما لم نتماسك من قبل . ولنقرع كأسينا يا صديقى ونشدد أنشودتنا القديمة
« جواد يا موسى أجيئور »

وقرع الصديقان كأسيهما ، وبلغ بهما التأثير كل مبلغ . فأخذوا يغنيان فى نشاز
أغنية الطلبة القديمة على خير ما يفعله الروس .
وقال ليزنيف : « إنك ذاهب إلى الريف الآن . وأنا لا أومن لحظة بأنك
ستظل هناك طويلا ، ولا أستطيع أن أتخيل أين وكيف ينتهى بك المطاف . فلتذكر
مهما ألم بك من أحداث ، أن لك دائما مكاناً ، بل عشاً تستطيع أن تأوى إليه .
وأنا أتحدث بهذا عن منزلى . . . أو قد سمعت يا صديقى ؟ إن للفكر أيضاً مرضاه .
وهؤلاء أيضاً يجب أن يكون لهم مأوى يلجئون إليه . »

وانتصب رودين واقفاً وقال : « شكراً لك يا صديق العزيز . شكراً لك ؛ لن
أنسى ذلك . وكل ما فى الأمر أننى غير جدير به ، لقد بددت حياتى ولم أخدم
الفكر كما كان ينبغى لى . . . »

وهتف ليزنيف : « أمسك ؛ فإن كل إنسان رهين بما أودعته الطبيعة أيّاه . ولا يمكن أن يطلب منه أكثر من ذلك ، لقد اتخذت لنفسك اسم اليهودى التائه ؛ فمن أدراك ؟ لعله قد كتب عليك أن تظل في تيهك إلى ما شاء الله ، ولعلك تؤدي بذلك رسالة رفيعة لا تعلم من أمرها شيئاً ، وليس بعجيب ما جاء على لسان العامة من حكمة تقول : « إننا جميعاً بين يدي الله » وسأله ليزنيف إذ رآه يهم بالتقاط قبعته : « أذهب أنت ، وهلا تقضي الليلة هنا ؟ » .

« إني لراجل ، إلى اللقاء ، وشكراً لك ؛ أجل ، ستكون نهايتي سيئة »

« هذا في علم الله وحده ، أوقد صح عزمك على الرحيل الآن ؟ »

« أجل ، إلى اللقاء ، ولتذكرني بالخير »

« ولتذكرني أنت أيضاً بالخير . . . ولا تنس ما قلته لك ، وإلى اللقاء »

وتعانق الصديقان ، وخرج رودين مسرعاً

وراح ليزنيف يذرع الغرفة ، وظل على ذلك وقتاً طويلاً ، ثم وقف بجوار النافذة مستغرقاً في تأملاته وتتم : « يا للبائس المسكين ! » ، ثم جلس إلى المنضدة وشرع يكتب خطاباً إلى زوجته «

وهبت ريح خارج الدار ، وأخذت تصفر صفيراً كثيباً وتضرب النوافذ المقعقة ، وكان ليل الحريف الطويل قد بدأ يرخى سدوله ؛ ألا طوبى لأولئك الذين يقبعون في مثل تلك الليالي تحت سقوف منازلهم ، ويجدون ركناً دفيئاً يهجعون إليه . . . وكان الله في عون الضالين يهيمون على وجوههم بلا مأوى ولا نصير .

* * *

وفي السادس والعشرين من يونية سنة ١٨٤٨ ، وفي عصر هذا اليوم الذي

تميز بالحرارة والرطوبة ، كانت فتنة « المصانع الأهلية » في باريس تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وقد راحت سرية من جنود المشاة النظاميين تهاجم دريئة أقامها المفتنون في شارع ضيق من شوارع ضاحية سانت أنطوان ، كانت القنابل قد دمرت ، وشرع من بقي على قيد الحياة من المدافعين عنه يهجره ، ولا هم لهم إلا النجاة بأنفسهم ، وعلى حين غرة ظهر فوق قمة الدريئة نفسها ، وعلى هيكل منبعج لسيارة عامة مقلوبة ، رجل طويل القامة يرتدى سترة رسمية عتيقة ويتمنطق بجزام أحمر ، ويضع على شعره الأشيب الأشعث قبعة من القش ، وقد أمسك بيده علماً أحمر وباليده الأخرى سيفاً مثلوماً ؛ كان يهتف بشيء في صوت حاد مجهد متسلقاً القمة وملوحاً بعلمه وسيفه ، وصوب إليه جندي من مشاة أهل فانسين بندقيته ، وأطلق النار . فوق العلم من يد الرجل الطويل ، وسقط الرجل ووجهه إلى الأرض كأنه يلقي بنفسه على قدمي شخص . . . واخترقت الرصاصة قلبه .

وقال أحد العصاة لزميل له : « انظر ؛ لقد قتلوا البولندي لتوهم ؛ »
وأجابه زميله قائلاً : « وما شأننا ؟ » ، واندفع كلاهما إلى قبو منزل من المنازل أغلقت مصاريع نوافذه وشوه الرصاص وقنابل المدافع جدرانها .
وكان البولندي هو : ديمتري رودين !



١٩٨٠/٤١٦٠	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٧٣٣٧-٢٤-٨	الترقيم الدولي

١/٧٩/٢٨٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

733

تو

۱۰ ۳۳۸۱